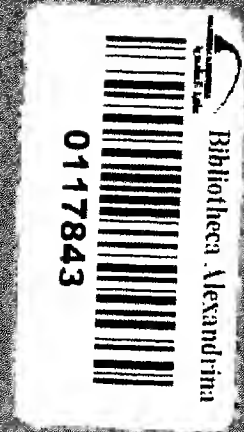


الدكتور عادل الفريجات

دراسات في المكتبة العربية التراثية



دار عمارة العين منشورات دار علاء الدين

دراسات
في المكتبة العربية الزاوية

الدكتور عادل الفريجات

دراسات في المكتبة العربية التراثية

منشورات دار علاء الدين



حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

لدار علاء الدين

الطبعة الأولى - دمشق - ١٩٩٩

/ ١٠٠٠ نسخة /

موافقة وزارة الإعلام في الجمهورية العربية السورية

٣٩٣٠٨ تاريخ ١١ / ٢ / ١٩٩٧

يطلب الكتاب على العنوان التالي :

دمشق : ص.ب : ٣٠٥٩٨

هاتف : ٢٣١٧١٥٨ - ٥٦١٧٠٧١

فاكس : ٢٣١٧١٥٩ - تلكس : ٤١٢٥٤٥

- * إن الأفكار والآراء الموجودة في النص تعبر عن وجهة نظر المؤلف .
- * يرجى ذكر اسم الكتاب في حال أخذ أية معلومة منه أو استشهاد ببعض موادّه في أي بحث كان .

المقدمة

المكتبة العربية التراثية محيطة منداح الأبعاد، بل هي هيكل معماري شامخ متعدّد الوجوه والجهات، أو دوحة ضخمة وارفة الظلال، تذكر فروعها وأغصانها بفروع المعارف العربية الكثيرة وأغصانها.

وقد بُنيت هذه المكتبة، لَبَنَةً فوق لَبَنَةٍ، منذ أن عرف الإنسان العربي الكتابة. وهي معرفة قديمة دون ريب، يلمع في تاريخها اختراع أول أجدية في العالم على أيدي أسلافنا الفينيقيين، منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام. يَبْدَأُ تاريخ الكتابة أبعد بكثير. وقد مرّت البشرية بأطوار عديدة قبل أن تختزل رموز كتابتها إلى ثمانية وعشرين رمزاً، وجدها الآثاريون في منطقة رأس شمرا (أوغاريت) شمالي سورية. وإذا كان اكتشاف مكتبة مملكة (إيبلا) جنوبي حلب عام ١٩٧٦، المؤلفة من سبعة عشر ألف رقيم، يُعدُّ اكتشاف القرن العشرين الأبرز من جهة أولى، فإنه من جهة ثانية يُعدُّ دليلاً على اهتمام أبناء هذه المنطقة وأسلافهم القدامى بالحرف والكلمة والعبارة، وهي أدوات الفكر والعلم والحضارة. ولا أدلّ على ذلك من أن المكتبة العربية التراثية، التي نولف فيها، تتكوّن من أربعة ملايين مخطوطة حسب أكثر التقديرات رصانة.

وفي الوقت الذي عايّنتُ خلال إبحاري في محيط مكتبتنا العربية لآلئ وجواهر ثمينة، فإنني عايّنتُ من إخفاق في الطموح إلى أن أحيط بها من كل جنباتها، وأنسى لي ذلك، وأنا أعرف، على سبيل المثال، أن خزانة الصاحب بن عبّاد (٣٨٥ / ٩٩٥) وحدها قد بلغت (٢٠٦) آلاف مجلّد، وأن خزانة الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ / ٩٧٥) في مصر قد ضمّت نحو (٦٠٠) ألف كتاب، فيها (٣٠) نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، واحدة منها بخط الفراهيدي نفسه، وأن مكتبة جامعة قرطبة في الأندلس كانت تحوي (٤٠٠) ألف مجلّد؟؟ ومن هنا يتضح لنا حجم العطاء الفكري لأجدادنا القدامى وتظهر ضخامته وغزارته.

وقد كنتُ حرّرتُ في شؤون المكتبة التراثية دراسات وأبحاثاً، وصنفتُ حول بعض كتبها نقوداً وتعريفات، فعزمت، بعد مراجعتها، على أن أجعلها في كتاب سميته: « دراسات في المكتبة العربية التراثية ». وعلى الرغم من أن كتباً ودراسات قد ألفت قبلي في هذا الباب، أمثال كتاب الدكتور أجد الطرابلسي: نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، وكتاب الدكتور عمر الدقاق: مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، وكتاب الدكتور عز الدين إسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، وكتاب: دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث للدكتور محمود أحمد حسن المراغي، وكتاب: الوجيز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم للدكتور محمود محمد الطناحي، وكتاب: عيون المؤلفات لعبد الوهاب الصابوني، وكتاب: معجم المعاجم لأحمد الشرقاوي إقبال، وكتاب: اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية للدكتور عبد اللطيف الصوفي، وغيرها وغيرها... إلا أنني رأيت أنه بقي لدلوي مكان بين الدلاء، ولسهمي مضرب بين السهام، فأدليت بدلوي وضربت بسهمي، وكانا موجهين إلى بمار الأدب واللغة وأفاقهما...

ومصنفي هذا ثلاثة كُتب أو أقسام : الكتاب الأول عَنَوْتُهُ بـ (جوانب من عالم المكتبة العربية التراثية) وفيه عرضت أولاً، للتأليف النوعي والموسوعي في التراث العربي، الأدبي والتاريخي خاصة، وتناولت ثانياً، مشكلة الكتب المفقودة أو المنشورة ناقصة في زماننا، وبجنت ثالثاً، في ظاهرة المتابعة والتتبع في كتب التراث، وهي ظاهرة استتبعها المشكلة الأولى التي تقدّمتها، حتى إنني وجدت بينهما صلوات وثيقة صعب عليّ تخليصها بعضها من بعض. ودرست رابعاً، قضية تصنيف المعارف العربية بالشعر، وفيها لاحظت أن العرب كادوا أن لا يتركوا باباً من أبواب المعرفة القديمة، إلاّ صنّفوه شعراً، أو صنّفوا بعضه. وذلك بغية حفظه وتبسيط تحصيله، فكانت لديهم المنظومات التعليمية الكثيرة جداً جداً.

أما الكتاب الثاني فقد وسمته بـ (ضروب من كتب التراث) وفيه وقفت عند ثلاثة عشر كتاباً مختلفاً كنتُ قد راجعتها بين فينة وأخرى. وكانت مراجعتي لها متفاوتة، فبعضها

توفرت عليه توفراً حسناً فنقلته وصححت بعض أوهامه، وأضفت إليه شيئاً من هنا وشيئاً من هناك. وبعضها لم أفصل فيه كثيراً، وظل في نفسي منه شيء، ولم أستكملته تمام الاستكمال، فتركت الباب مفتوحاً لأناس غيري يُتمُّونه ويستكملونه... وإني لأزعم أن وفرة المعارف وكثافة المعلومات اللتين اكتنزهما كتابي هذا يعدلان ما اعتراه من نواقص، ربّما أكون أعلم بمواطنها من غيري.

أما الكتاب الثالث وعنوانه : (دراسات وكتب متصلة بالتراث) فقد كرّسته لبعض الدراسات والكتب التي ألفت في زماننا، وانصبَّ اهتمام أصحابها على قضايا التراث أو مصادره أو مؤلفاته أو نصوصه أو أعلامه أو بلدانه... فكان لي مكث، يطول أو يقصر، عند تسعة كتب ذات محاور تراثية، أو متصلة بالتراث بأسباب، فعرفت بها، وقدمتها للقارئ مشفوعة ببعض الملاحظات والتصويبات والإضافات التي سقتها بروح نقدية وموضوعية معاً.

ولما كان القارئ العربي ينتزّل منازل، كانت دراساتي هنا تنتزّل منازل أيضاً، فمنها ما ينفع الدارس المتخصّص والباحث المتبحّر من الطلبة الجامعيين، ومنها ما يهمّ من يرغب بالاطلاع والخلوص إلى فكرة ما عن كتاب بعينه، ومنها ما يخدم قارئاً مُعجلاً قد لا يكون من كُليهِ وطبيعة عمله ما يضطره للتريث كثيراً عند كسب التراث اللغوية والأدبية والتاريخية، بل أن يُلمّ سريعاً بجانب من جوانب التآليف التراثية، من خلال صوى تمكّنه من ذلك.

ولقد خفّف من تردّدي في إلحاق بعض التعريفات القصيرة لبعض الكتب، بمصنفي هذا، اعتقاد مألّف: أنه كما يمكننا أن نخصّص دراساتنا لطلبة الجامعات والمختصّين، يمكننا أيضاً، بل ينبغي علينا، أن نوجه اهتمامنا إلى شدة ما يبعثون معلومة قصيرة موجزة، تتصل بتراث الأجداد وجهودهم التأليفية العظيمة. ومن المسلم به أن جسم الإنسان كما يحتاج إلى وجبة دسمة، يحتاج أيضاً إلى وجبة خفيفة سريعة. وإذا استقام لنا تشبيه تينك الوجبتين بالقوام والخوافي، فإننا نرى أن طائر العلم ينبغي له أن تتصافر قوامه وخوافيه ليحجوب أرجاء الفضاء الرحب الفسيح .

د. عادل الفريجات

دمشق في ٢٠ / ٢ / ١٩٩٧

الكتاب الأول

(جوانب من عالم المكتبة التراثية)

آ - التأليف النوعي والموسوعي في التراث العربي

ب - الكتب المفقودة أو المنشورة ناقصةً

ج - المتابعة والتتبع في كتب التراث

د - التصنيف بالشعر في التراث العربي

التأليف النوعي والموسوعي في التراث العربي

كان للعلم والمعرفة، في الحضارة العربية، مكانة بارزة، واحتلّ العلماء والمفكّرون فيها منزلة مرموقة، حتى إنهم وُصِفوا في تراثنا بأنهم ورثة الأنبياء. وقد ورد في التنزيل العزيز ﴿ وَيَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (سورة المجادلة ٥٨ : ١١). وورد في الحديث الشريف عن الرسول عليه السلام: « أربعة تلزم كلّ ذي ححي وعقل من أمّتي، قيل: يا رسول الله وما هي؟ قال: استماع العلم وحفظه، والعمل به ونشره » - وعن جعفر بن محمد أنه قال: " اطلبوا العلم وتزيّنوا معه بالحلم والوقار، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، ولا تكونوا علماء جبابرة فيذهب باطلكم بحقكم".

ولعميق تقدير الرسول ﷺ للقراءة والكتابة، وهما مقدمة كل علم، جعل فداء كل أسير من أسرى المشركين المتعلمين، في وقعة بدر، أن يعلّم عشرة من أبناء المدينة القراءة والكتابة، فكأنني به كان يقايض حرية النفس وظلمة الأسر، بحرية الفكر ونور العلم. إذا استهوت المعرفة نفوس العرب، وجذب العلم قلوبهم، فكّرّس بعضهم حياته كلها لها، ووضع لمعاصريه وللأجيال اللاحقة مصنّفات تنمّ على عزائم يعزّز نظيرها، وعلى همم تطاول الجوزاء علواً وشموخاً. وكان من بين هؤلاء رجال آثروا شأن العلم وأنواره وأمجاده، على شأن السلطة وطماحها وأمجادها، حتى إن أحد العلماء قال، وقد تحلّق حول طلابه، في ليلة برّذ قارس، وكانوا يجلسون معه في غرفة متواضعة، في مسجد عتيق، قال: " لو علم الملوك ما نحن فيه من نعيم لقاتلونا عليه ". والحق أن أنوار العلم الكاشفة التي تُبدّد ظلمات الجهل، وتجعل العالم بأسره مضاءً تحت أبطارنا، هي أثنى بكثير من كنوز الدنيا الفانية. وقد صدق من قال: " رتبة العلم أعلى الرُتب".

ولا غرّو، بعد، أن تحفل المكتبة العربية القديمة بأسماء رجال آمنوا بالأفكار الساقطة، فتعلّموا، واستوعبوا، وهضموا، ونضجوا، ثم راحوا ينهضون بأعمال تأليفية وتصنيفية عظيمة ورائعة، لا يملك من يعاين الجهد المبذول فيها، إلا أن ينحني إجلالاً لأصحابها ومؤلفيها... وفي كل قرن من قرون الفكر العربي وُجدت أسماء بارزة تستوقف الدارس، وتستأنى الباحث، لأنها اتصفت بغزارة العلم وموسوعية المعرفة ودأب البحث والدرس. وسنركز حديثنا هنا على التراث اللغوي والأدبي والتاريخي لأنه محور اهتمامنا ومناطق عملنا. ومن تلك الأسماء في هذا التراث، يبرز في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، وهو قرن التدوين والتأليف الجديين عند العرب، العلامة الخليل بن أحمد الفراهيدي (٧٨٦/١٧٠) الذي ألف معجم « العين »، وهو أول معجم عربي. وقد طبع في تسعة مجلدات بتحقيق الدكتورين إبراهيم السامرائي ومهدي المخزومي. ويعدُّ الخليل أيضاً المؤسس الأول لعلم من علوم العربية، وهو علم العروض. وقد اكتشف أربعة عشر بحراً من الشعر العربي. كما يُعد أيضاً أستاذاً لسيبويه صاحب كتاب «الكتاب» في النحو.

وقد كان هذا الرجل مثلاً يحتذى في سيرته، قال فيه الفقيه سفيان الثوري: " من أحبَّ أن ينظر إلى رجلٍ خُلِقَ من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد ". وقال عنه تلميذه النضر بن شميل: " أكلتُ الدنيا بعلم الخليل بن أحمد وكتبه، وهو في خصٍّ لا يشعر به " (نزهة الألباء، للأتباري ص ٤٨). وخلاصة القول: إن الخليل مفخرة من مفاخر الحضارة العربية، وعبقري عظيم قلما يجود الزمان بمثله.

وإذا تركنا القرن الثاني وانتقلنا إلى الثالث الهجري / التاسع الميلادي، طالعنا ثلّة من العلماء العظام في هذا القرن، تمثل عليهم بأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤ / ٨٣٨) الذي صنّف العديد من الكتب، من بينها كتابه العظيم « الغريب المصنّف ». وقد أمضى أبو عبيد في تأليفه أربعين عاماً، فانتج سفيراً من أجلّ أسفار القرن الثالث، من الزاوية اللغوية والأدبية. ويمكننا أن نعدّه معجماً لغوياً بني على أساس الموضوعات. ويتألف هذا الكتاب من ألف باب متفرقة في كتبه السبعة والعشرين التي منها مثلاً:

١- كتاب خلق الإنسان. ٢ - كتاب النساء. ٣ - كتاب اللباس. ٤ - كتاب الأظعمة. ٥ - كتاب الأمراض. ٦ - كتاب الدور والأرضين... الخ.

ويحوي الغريب المصنّف نحو ألف ومئتي شاهد من شواهد اللغة، وقد لقي من العلماء الذين عاينوه عنايةً فائقة، حتى إنّ ابن سيده الأندلسي، علي بن إسماعيل الضرير، حفظه غيباً. ومخطوطات هذا الكتاب توجد متفرقة في القاهرة وأيا صوفيا، والفتح، والاسكوريال، وامبروزيانا، وتونس (انظر أحمد الشرقاوي إقبال: معجم المعاجم العربية ص ١٤٣، وكوركيس عواد: أقدم المخطوطات العربية في العالم ص ١٧٥). ومن المعروف أن الجزء الأول من هذا الكتاب قد صدر في تونس بتحقيق محمد مختار العبيدي. وحقق جزءاً منه رمضان عبد التّوّاب سنة ١٩٦٢، ونشر أربعة فصول منه محمد حسن آل ياسين في مجلة المجمع العلمي العراقي عام ١٩٨٣ و ١٩٨٥ (مج ٣٥ و ٣٦).

ومما قيل في شأن صاحب الغريب المصنّف: " علماء الإسلام أربعة: عبد الله بن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والقاسم بن معن في زمانه، والقاسم بن سلام في زمانه " - (الأعلام ٥: ١٧٦).

ومن علماء القرن الثالث الكبار أيضاً أبو عبيدة - مَعْمَر بن المنثى (٨٢٤/٢٠٩) ويُعزى إليه أكثر من مئتي مصنّف حسبما يذكر ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان، (وانظر مقال ناصر حلاوي: مؤلفات أبي عبيدة في مجلة المورد مج ٣ ع ٣). ومنهم المدائني، وله نحو (٢٤٠) كتاباً حسبما أحصى له عبد السلام هارون من مؤلفات في كتاب الفهرست لابن النديم. وكذلك هشام بن محمد الكلبي، وله نحو (١٤٠) كتاباً. والشافعي وقد سرد له ياقوت الحموي نحو (١٤٢) كتاباً. أما الجاحظ (٨٦٨/٢٥٥) أديب العربية الأكبر، فذكر أنه صنّف زهاء ثلاثمائة وستين كتاباً، في ألوان من المعارف شتى. وقد ساق هذا سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان. ولعلّ أهم كتب الجاحظ على الإطلاق كتابه الحيوان، وقد طبع في سبعة أجزاء، وكتابه البيان والتبيين، وطبع في أربعة مجلدات. ولكنّ ثمة من ينزل مؤلفات الجاحظ إلى مئة وثيف وسبعين كتاباً. أما ياقوت الحموي فقد

نَسَبَ إليه (١٢٨) كتاباً فقط. (انظر عبد السلام هارون: قطوف أدبية ص ١٧١) (ومقال هدى شوكة بهنام : الموروث الجاحظي مخطوطاً ومطبوعاً - مجلة المورد مج ٧ ع ٤).
 وفي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي يطالعنا محمد بن جرير الطبري (٣١٠/
 ٩٢٢) بقامته العالية في ميدان التأليف والتصنيف، فقد عُزِي إليه (٤١) كتاباً، ونُسِبَ إليه خمسة كتب ما بين مفقود ومنسوب.

وكان الطبري يكتب أربعين ورقة في كل يوم على مدى أربعين عاماً. وقد ذكر كُتبه الواحد والأربعين عبد الرحمن حسين العزاوي مؤلف كتاب (الطبري - السيرة والتاريخ) المطبوع ببغداد سنة ١٩٨٩. ومن مفاخر هذا العالم الكبير أنه ألف كتابين ضخمين هما: تفسير القرآن، الذي طبع منه ثلاثون جزءاً في القاهرة (١٣٢١/١٩٠٣) وتاريخ الأمم والملوك، المعروف بتاريخ الطبري، وقد نشره مرحوم محمد أبو الفضل إبراهيم بالقاهرة في عشرة أجزاء . ومما أثار عن شغف الطبري بالعلم والمعرفة أن بعض الثقات روى أن الطبري قبل وفاته بساعة أو أقل ذكر أمامه دعاء عن جعفر بن محمد، فاستدعى محبرة وصحيفة فكتبه، فقيل له: أفي هذا الحال ؟ فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتى الممات (تاريخ بغداد ٢: ١٦٣).

وفي القرن ذاته ظهر كتاب عظيم يمكن أن يُعدَّ عنواناً لهذا القرن، وهو يدخل في باب التراجم والسير، واسمه كتاب الأغاني، لمؤلفه أبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦ / ٩٦٦). وقد أمضى أبو الفرج في تأليف كتابه هذا نحواً من خمسين سنة، فانتهى إلى كتاب من أمهات كتب المكتبة العربية، إذ ضم تراجم كثيرة لشعراء العرب في الجاهلية والإسلام والعصرين الأموي والعباسي. وقد أهدى كتابه هذا إلى سيف الدولة الحمداني، فوهبه ألف دينار. ولما بلغ نبأ هذه المكافأة صاحب بن عبَّاد، قال: " قصَّر سيف الدولة، إن أبا الفرج يستحقُّ أضعافها ". وكان صاحب يستصحب في أسفاره حمل أربعين بعيراً من كتب الأدب، فلما وصل إليه كتاب الأغاني استغنى به عنها. أما مجموع كتب صاحب الشخصية، فكان يقدر بحمل أربعمئة بعير أو أكثر (معجم الأدباء - ط الرفاعي ٦: ٢٥٩).

ويستوقفنا في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ثلاثة أعلام كبار عظام، هم: الثعالبي، والبغدادي، والبيروني. وأمّا الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد (٤٢٩ / ١٠٣٧) فقد نعته الباخري صاحب دمية القصر وعصرة أهل العصر بأنه " كان جاحظ نيسابور، وزبدة الأحقاب والدهور، لم ترَ العيون مثله، ولا أنكرت الأعيان فضله " - (الدمية ص ١٨٣). وقد عدّ المحقق (صادق النقوي) من مؤلفات الثعالبي المطبوعة والمخطوطة والمفقودة (١٢٥) مئة وخمسة وعشرين كتاباً، وذلك في مقدمته لكتاب الثعالبي « خاص الخاص ». ولعلّ أهم كتب هذا الرجل يتيمة الدهر، ويقع في خمسة أجزاء، وممار القلوب في المضاف والمنسوب، وهو جزآن، والتمثيل والمحاضرة، وآداب الملوك، وأحسن ما سمعت... الخ وربما لكثرة تصانيفه وصفه ابن بسّام في كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة بأنه " رأس المؤلفين في زمانه".

وإذا كان الثعالبي، ومن قبله الأصفهاني، مؤلّفين موسوعيّين، اشتُهرًا بوفرة مصنفاتهما وغزارتها، فإن البيروني (٤٤٠ / ١٠٤٨) كان مؤلّفاً نوعياً وموسوعياً معاً. وقد حُصرت مؤلفاته ببلغت (١٨٠) مئة وثمانين كتاباً ورسالة. ونظراً لقيمة هذه الكتب، أو بعضها، قال المستشرق (سخاو) عن البيروني «إنه من أضخم العقول التي ظهرت في العالم، بل هو أعظم علماء عصره، ومن أعظم العلماء في كل العصور» - (انظر د. عبد الحلّيم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدّمه ص ١٠٣). ووصفه (جورج سارطون) بقوله: " إن البيروني من أعظم علماء الإسلام ومن أكابر علماء العالم " - (انظر عبد الحلّيم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص ١٨٦). وقال فيه المستشرق (أريو بوب): " في أية قائمة تحوي أسماء أكابر العلماء، يجب أن يكون لاسم البيروني مكانه الرفيع ". واعترف (سميث) في كتابه تاريخ الرياضيات بأن البيروني كان ألمع علماء عصره في الرياضيات، وأن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرها في العلوم. ورأى بعض العلماء أن البيروني سبق (نيوتن) بعدة قرون في معرفة أن الفترات المتساوية بين الزوايا لا تقابلها تغيّرات متساوية في الجيوب... وللبيروني من الكتب الهامة: الآثار الباقية عن القرون الخالية، وتحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، والتفهيم لصناعة

التنجيم، والجواهر في معرفة الجواهر، والقانون السعدي، ويقع في ثلاثة مجلدات في نحو (١٥٠٠) صفحة، وهو في الفلك والجغرافيا. وقد أصدرت أكاديمية العلوم السوفيتية سنة ١٩٥٠ مجلداً بعنوان « البيروني » بمناسبة ألفية مولده. وكذلك صدر في الهند مجلد تذكاري سنة ١٩٥١ عن البيروني يحوي عشرات المقالات، احتفالاً بذكره واعترافاً بفضل - (انظر د. عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ص ١٠٣ - ١٠٤).

ولا يصح أن نترك القرن الخامس الهجري دون أن نشير إلى كتاب عظيم للخطيب البغدادي، أحمد بن علي (٤٦٣ / ١٠٧٠) وهو تاريخ بغداد، ويقع في (١٤) أربعة عشر جزءاً. وهو موسوعة كبرى في باب التراجم والرجال. وللمؤلف نفسه كتاب هام أصدرته المحققة الأستاذة (سكينه الشهابي) بعنوان تلخيص المتشابه في أسماء الرجال. وهذان الكتابان مصدران هاما كانا من مصادر علم عظيم من أعلام القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي هو ابن عساكر (٥٧١ / ١١٧٥). وهذا القرن هو الذي سنقف عنده الآن من خلال ثلاثة أعلام هم: ابن عساكر والعماد الأصفهاني وعلي بن عقيل الحنبلي.

فابن عساكر هو مصنف كتاب « تاريخ مدينة دمشق » الذي يقع في إحدى تجزئاته في (٨٠) ثمانين مجلدة. ويحتاج الآن إلى جمهرة كبرى من الباحثين لإخراجه محققاً ومخدوماً وفق أسس النشر العلمي المعاصر. وقد طبع من هذا الكتاب حتى الآن، في مجمع اللغة العربية بدمشق، وخارج نطاق المجمع أكثر من عشرين جزءاً. وكان الجزء الأول قد صدر عام ١٩٥١ بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد. وتعد الباحثة السورية (سكينه الشهابي) المتخصصة الأولى بتاريخ ابن عساكر، وقد أصدرت منه وحدها سبعة عشر مجلداً حتى اليوم. ومن المعروف أن ابن منظور المصري (٧١١ / ١٣١١) قد اختصر تاريخ ابن عساكر، فنشر مجموعة من الباحثين هذا المختصر في (٢٩) جزءاً بدار الفكر في دمشق وبيروت، بين عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٨.

ويمكن للمرء أن يشير في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي إلى عالم آخر من أصفهان هو العماد الأصفهاني (٥٩٧ / ١٢٠٠)، فهو عالم عظيم، وله كتاب كبير يدخل في باب التراجم اسمه: خريدة القصر وجريدة أهل العصر، وقد نشر منه في بغداد سبعة

وقد عاد الصغاني من أجل كتابه « التكملة » إلى ألف كتاب عدّها في مقدمة معجمه الذي طبعه بجمع اللغة العربية بالقاهرة في ستة أجزاء.

أما ابن الجوزي (٦٥٤ / ١٢٥٦) فقد صنع حول مؤلفاته الباحث (عبد الحميد العلوجي) كتاباً كاملاً، طبع في بغداد سنة ١٣٨٥ / ١٩٦٥ ذكر فيه أن لابن الجوزي ما يقرب من أربعمئة كتاب، استقرّ منها مخطوطاً أكثر من ١٣٩ / كتاباً في خزائن المخطوطات الشرقية والغربية، وضاع أكثر من ٢٣٣ / كتاباً، وطبع (٣٠) كتاباً (انظر مقدّمه العلوجي لكتابه مؤلفات ابن الجوزي ص ٥). ومن أهم كتب هذا العالم التي وصلت إلينا وتتصف بالموسوعية كتابه: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ويقع في (١٨) مجلداً وظهر بدار الغرب الإسلامي عام ١٩٩٥، بتحقيق عبد الجليل عطا. وما يُروى عن هذا الرجل، الذي كرس حياته للعلم والمعرفة أيما تكريس، أنه وصّى أن تجمع بُرايات الأقلام التي كُتِبَ بها أحاديث رسول الله، لتكون وقوداً للنار التي يسخّن بها الماء الذي سيفسّل به جسده بعد موته، فاستُجيب لوصيته، فكفّت تلك البرايات وزاد منها..! وروى ابن العماد الحنبلي أن ابن الجوزي كان يكتب في اليوم الواحد أربع كراريس، فيرتفع له كل سنة، من كتابته، ما بين خمسين إلى ستين مجلداً!

هذا وقد وصف المستشرق الأمريكي (ف. روزنتال) في كتابه « علم التاريخ عند المسلمين » كتاب المُتَّظَم لابن الجوزي بقوله: " لقد بقي في اللغة العربية تاريخ عالمي عظيم، هو كتاب المتظّم، لابن الجوزي، أما الذين تلوّه فقد انحدروا إلى أوطأ مستوى تدنّى إليه التاريخ الإسلامي " - (انظر عيون المؤلفات لعبد الوهاب الصابوني ج ٢ ص ٢٩٦). والمعروف أن كتاب المتظّم مرتب حسب السنين. ويبدأ بالخلقة إلى ظهور الإسلام، ثم من الإسلام إلى سنة ٥٧٥ هجرية.

ويثير إعجابنا في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي أربعة مصنّفين كبار، يعدّ كلُّ منهم عنواناً لتأليف في الأدب والتاريخ. وهؤلاء الأربعة هم، ابن منظور المصري (٧١١ / ١٣١١) والذهبي (٧٤٨ / ١٣٤٧) وابن فضل الله العمري (٧٤٩ / ١٣٤٨) والصفدي (٧٦٤ / ١٣٦٢).

أما ابن منظور محمد بن المكرّم فهو صاحب معجم: لسان العرب. وقد طبع هذا المعجم بدار صادر ببيروت في (١٥) مجلداً، وفهرسته ثلثة من العلماء الأردنيين في ستة مجلدات وطبعتها.

ولسان العرب معجم لغوي ضخم ضمّ خمسة معاجم قديمة هي:

١ - تهذيب اللغة للأزهري . ٢ - والصحاح للجوهري. ٣ - والمحكم لابن سيده. ٤ - وحواشي ابن بري على الصحاح. ٥ - والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري. ونقل ابن حجر العسقلاني عن ابن ابن منظور - قطب الدين أن أباه ترك بخطّه خمسمئة مجلدة. ويُقال إن الكتب التي اختصرها هي خمسمئة كتاب. ومما اختصره ابن منظور: كتاب الأغاني، والعقد الفريد، والذخيرة، ومفردات ابن البيطار، ومررنا باختصاره لكتاب ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق، الذي طبع في (٢٩) مجلداً.

أما الذهبي، فهو مؤلف الكتاب العظيم: تاريخ الإسلام، الذي طبع منه حتى الآن (٤٢) مجلداً، بتحقيق عبد السلام التدمري. وكان بشّار عواد معروف قد نشر منه أربعة أجزاء في بيروت. وللذهبي أيضاً كتاب عظيم آخر ينتمي إلى باب التراجم واسمه: سير أعلام النبلاء. وقد طبع في (٢٥) جزءاً بمؤسسة الرسالة ببلنجان. ولو لم يكن للذهبي سوى هذين الأثرين العظيمين لكفاه فخراً.

أما ابن فضل الله العمري الدمشقي مولداً ووفاءً، فقد صنّف موسوعة ضخمة تقع في أربعين مجلداً هي: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أثارت إعجاب ابن شاکر الكتبي، فراح يكتب عنها قائلاً: " كتاب حافل لم أعلم أن لأحد مثله ". وطبع من هذا الكتاب ثلاثة أجزاء بدار الكتب المصرية عام ١٩٣٤ بتحقيق أحمد زكي، كما طبع منه في لبنان جزآن آخران بتحقيق المستشرق (دوريتا). ومن سوء الحظ أن الأجزاء الأخرى مفقودة ولم يعرف خبرها اليقين عند الباحثين حتى الآن.

أما الصفدي - خليل بن أيك، فهو الآخر مؤلف موسوعي بدليل أنه صنّف كتاباً هاماً، عنوانه: الوافي بالوفيات. لا نعرف عدد أجزائه المخطوطة بدقّة، ولكننا نعرف أن المعهد

الألماني بيروت قد أصدر منه حتى الآن ما يربو على عشرين جزءاً، بعناية مجموعة من المستشرقين الأوربيين والباحثين العرب.

ومما يثير الدهشة في هذا الكتاب، عدد الكتب التي رجع إليها الصفدي في زمانه لتأليفه، فقد ذكر في مقدمته المئين من الكتب (انظر ج ١ ص ٤٧ - ٥٥). وهي كتب في تاريخ المشرق والمغرب، واليمن والحجاز، وكتب تواريخ جامعة، وتواريخ خلفاء وملوك ووزراء وعمال وقضاة وقرّاء وعلماء وشعراء، وتواريخ مختلفة.. وعندما بلغ إلى كتب المحدثين والصحابة أشار إلى الاستيعاب لابن عبد البر، وأسد الغابة لابن الأثير، وكتب الجرح والتعديل، ومعجم المحدثين ومشیخات الحفاظ والرواة، ثم قال أخيراً: "إنها شيء لا يحصره حدٌ، ولا يقصره عدٌ، ولا يستقصيه ضبطٌ، ولا يستدنيه ربطٌ، لأنها كاثرت الأمواج أفواجاً، وكابرت الأدرج اندراجاً" - (مقدمة الجزء الأول من الروافي بالوفيات ص ٥٥). وفي عبارات الصفدي هذه عبرة لنا، مآلها: أن محاولة حصر كتب أي قرن من القرون، حتى وإن كانت ذات صفة موسوعية، محاولة دونها خرط القتاد. والنجاح فيها بعيد المنال، لذا كان وكذاها هنا التمثيل، وليس الاستقصاء، وذكر النماذج، وليس حصر النتائج.

ونمثل لموسوعات (القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي) بمؤلفات أربعة من الرجال الكبار هم: ابن خلدون (٨٠٨ / ١٤٠٥) والقلقشندي (٨٢١ / ١٤١٨) والمقريزي (٨٤٥ / ١٤٤١) وابن حجر العسقلاني (٨٥٢ / ١٤٤٨). فابن خلدون يكفيه رفعةً وعلوًّا أنه مؤسس علم الاجتماع وفلسفة التاريخ، وصاحب كتاب التاريخ المسمّى بتاريخ ابن خلدون، ويقع في أربعة عشر مجلداً. وهو قبل ذلك كله مؤلف المقدمة، المعروفة بمقدمة ابن خلدون، وهي التي قال فيها (روبرت فلنت): " من وجهة علم التاريخ وفلسفته يتحلّى الأدب العربي باسمٍ من ألمع الأسماء، فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة، ولا العالم المسيحي في القرون الوسطى يستطيعان أن يقدّما اسماً يضاهي في لمعانه ابن خلدون" - (انظر العلوم عند العرب، لقدري حافظ طوقان ص ٢٢٦). وكذلك أشاد (توينبي) الأستاذ بجامعة أكسفورد بمقدمة ابن خلدون فقال: " ابن خلدون في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام قد أدرك وتصوّر وأنشأ فلسفة التاريخ. وهي بلا شك أعظم عمل من نوعه خلقه أي

عقل في أي زمان ومكان". وعلى الرغم من إشارات باحثين معاصرين إلى إفادة ابن خلدون من فلسفة "إخوان الصفا"، فإن مدى هذه الإفادة وحجمها وقيمتها لم تدرس بعد... وإذا كان ثمة بذور لأفكار ابن خلدون عند "إخوان الصفا" فإن تشكيل فلسفة التاريخ وتعميقها وإنضاجها قد تمَّ على يدي هذا الرجل، مما حدا بـ (كارا دو فو) لأن يقول: "إن نزعة الاهتمام بالبحث في كل شيء في تاريخ النشوء والتطور وأسباب الحدوث والتقدم تضع ابن خلدون في مصاف أرقى العقليات في أوروبا الحالية" (العلوم عند العرب، لطوقان ص ٢٣١).

أما القلقشندي، فهو صاحب كتاب (صبح الأعشى في كتابة الإنشاء)، وهو كتاب ذو طابع موسوعي ويهتم بصناعة النثر الفني، لأنَّ صاحبه كان فقيهاً وكاتباً في ديوان الماليك، وبالشروط التي يجب أن تتوافر في الكاتب من معرفة باللغة والنحو والصرف والتصريف والبيان إلى حفظ القرآن والأمثال والأنساب وأنماط الخطوط، ثم نجد بعدئذ يتناول أحوال الممالك الإسلامية، فيقف عند كل واحدة منها، وعند حدودها، وخصائصها وعجائبها، وأنهارها، وزرعها، كما يتطرق إلى الموائيق والعهود والسنة الشمسية والقمرية، ونظام البريد والرسائل والحمام الزاجل، وإجازات العلماء، ويتناول الأوائل في مختلف المجالات... الخ. ومنهجه يشبه منهج النويري في كتابه «نهاية الأرب» الذي صدر منه حتى الآن أكثر من ثلاثين مجلداً. أما صبح الأعشى ذاته فقد طبع في مصر بين سنتي ١٩١٠ و١٩٢٠ في (١٤) مجلداً، دون فهارس، فنهض محمد قنديل البقلي بصنع فهارس صبح الأعشى، وأصدرها في كتاب مستقل بالقاهرة سنة ١٩٧٢. ثم أصدر المؤلف نفسه كتاباً آخر حول هذه الموسوعة سماه: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، عام ١٩٨٣ بالقاهرة أيضاً - (انظر مصادر التراث العربي، لعمر الدقاق ص ١٢٥ - ١٢٦).

أما المقرئزي، وهو من مدينة بعلبك ببلبنان، فقد أربت مولفاته على مئتي كتاب، حسبما يذكر السنخاوي في كتابه البدر الطالع. ومن أهم كتبه «المقفى الكبير». ونشرت منه دار الغرب الإسلامي ثمانية مجلدات، بتحقيق محمد البعللوي سنة ١٩٩١. وللمقرئزي من الأسفار الهامة: «السلوك لمعرفة الملوك»، ويقع في (١٢) مجلداً. «وخطط المقرئزي»،

وهو ثلاثة مجلدات. « وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع »، وهو في تسعة مجلدات - (الأعلام للزركلي، ١: ١٧٨، وانظر عيون المؤلفات للصابوني ج ٢ ص ٣٠٧ - ٣١٠).

ومن موسوعات ابن حجر الهامة كتابه: « فتح الباري بشرح صحيح البخاري »، وطبع في مطبعة بولاق بمصر سنة ١٣٠٠ هـ في ثلاثة عشر مجلداً. وكتابه: « تهذيب التهذيب »، ويقع في اثني عشر مجلداً. وكتابه « الإصابة في تمييز الصحابة »، وهو في أربعة مجلدات. وكتابه: « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة »، وهو في أربعة أجزاء. « وتبصير المتنبه بتحريр المشتبه »، وهو في أربعة أجزاء. هذا عدا كتبه الأخرى التي لم تصل إلينا رغم قرب عهده مِنَّا نسبياً.

وفي القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، تَسَطَّحَ نجوم لامعة في ميدان التأليف والتصنيف، وربما كان السيوطي (٩١١ / ١٥٠٥) الذي يُرْوَى أَنَّهُ أَلْفَ أَكْثَرِ مِنَ (٢٨٠) كتاباً، أهم رجال هذه المئة... وقد ذكر يوسف إيلان سركيس (١٩١٩) في كتابه: معجم المطبوعات العربية (٩٢) كتاباً للسيوطي. وسمَّى محمد الشرقاوي إقبال في كتابه: معجم المعاجم العربية (٢٠٤) كتب للسيوطي. وفي عام ١٩٩٠ نشر الدكتور عبد الإله نيهان إحصاء لمؤلفات السيوطي المطبوعة فبلغت عنده (٢٥٠) كتاباً، واستدرك على نيهان السيّد، محمد خير رمضان (١٥) كتاباً فاتته ذكرها. ثم تعقّب جهد الباحثين الآخرين (أعني نيهان ورمضان) السيد بديع اللحام، فاستدرك عليهما (١٧) كتاباً آخر جديداً مطبوعاً لهذا الرجل العظيم، فبلغ بذلك عدد كتب السيوطي المطبوعة حتى عام ١٩٩٠ (٢٨٢) كتاباً (انظر حياة جلال الدين السيوطي مع العلم من المهد إلى اللحد، لسعدي أبو جيب، دمشق ١٩٩٣ ص ٤٧). هذا، وقد عرف السيوطي قدر نفسه، فقال عن ذاته في كتابه حُسْنُ المحاضرة: « إني ترجيتُ من نعم الله وفضله، كما ترجى الغزالي، أني المبعوث على هذه المئة اثنا تسعة، لانفرادي بالتبحر في أنواع العلوم ». وكان السيوطي أطلق رجاءه هذا سنة ٨٩٦هـ، قبل وفاته بخمس عشرة سنة. وادّعى السيوطي أنه بلغ رتبة الاجتهاد في الفقه لانه حقّق شروطه.

ومن أهم مؤلفي القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي نذكر ابن العماد الحنبلي (١٠٩٨ / ١٦٨٦) الذي صنّف كتاب: شذرات الذهب في أخبار من ذهب. وقد طبع هذا الكتاب مؤخراً بدار المسيرة في بيروت عام ١٩٧٩ في ثمانية مجلدات. وهو كتاب في التراجم والرجال.

وإذا تَلَفَّتْنَا قَلِيلاً إلى الاندلس ذكّرنا القرن الذي لازلنا فيه (الحادي عشر الهجري) بمؤلف كبير هو المقرّي، أحمد بن محمد (١٠٤١ / ١٦٣١) وهو مصنف كتاب نفتح الطيب في غصن الاندلس الرطيب. وقد قصّرهُ على الاندلس. وكان طابع هذا الكتاب طابعاً أدبياً، وينتمي إلى علم التراجم والرجال. وقد حوى، إلى ذلك، نُصُوصاً هامة ووافية من الشعر والنثر وشؤون التاريخ والاجتماع. والكتاب، بعد، قسمان: الأول في الاندلس ووصفها وجغرافيتها ومناخها وفتح العرب لها، وذكر بلدانها وأحوالها سكانها، ومن وفد منها إلى المشرق، ومن رحل إليها من المشرق. والقسم الثاني في التعريف بلسان الدين بن الخطيب الذي أعجب به المؤلف إعجاباً عميقاً. وقد طبع هذا الكتاب عدة مرات كانت الأولى في بولاق بمصر سنة ١٢٧٩ / ١٨٦٢ م، والأخيرة في بيروت بتحقيق إحسان عباس، وتقع في ثمانية مجلدات، وذلك في العام ١٩٦٨. وترجع قيمة هذا الكتاب لما حواه من نقول من كتب مفقودة مشرقية ومغربية كانت بين يدي مؤلفه، ثم طواها الزمن وضاعت.

ولدى استذكارنا للقرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي يهجم على الذهن اسم رجل كبير ومؤلف موسوعي هو محمد أمين بن فضل الله المحيي (١٦٩٩/١١١١) وهو صاحب كتاب: نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، وهو مثل كتاب ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ينتمي إلى علم التراجم. وقد صدر في ستة أجزاء في مصر ١٣٨٧ / ١٩٦٧ بتحقيق عبد الفتاح الحلّو. وللمحّي نفسه كتاب آخر هام في باب التراجم عنوانه: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. وطبع في بيروت في أربعة أجزاء. وعنوانه دال بوضوح على مضمونه.

أمّا في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، فإني لا أتمالك نفسي من أن أجازر بإعجابي الشديد بمصنّف أكبر معجم عربي على الإطلاق، وهو المرتضى الزبيدي،

أبو الفيض محمد بن محمد (١٢٠٥ / ١٧٩٠) الذي ألف معجم: تاج العروس من جواهر القاموس. وقد طبع هذا المعجم في مطبعة بولاق بمصر في عشرة أجزاء. وهاهوذا يطبع من جديد في (الكويت) بتحقيق فريق من الباحثين الأكفاء. وقد صدر منه حتى الآن (١٩٩٧) تسعة وعشرون مجلداً. ويُتَوَقَّعُ أن يصل إلى نحو أربعين مجلداً. ويضمّ هذا المعجم الذي يعد درّة التاج في المعاجم العربية نحو (١٢٠) ألف مادة لغوية. وللمؤلف نفسه كتاب آخر هو التكملة والصلة والذيل. وهو في الاستدراك على معجم القاموس المحيط، للفيروز أبادي. وقد طبع التكملة، وهو غير كتاب التكملة والذيل والصلة، للمصغاني، طبع في مصر في ستة مجلدات. ومن كتب الزبيدي أيضاً: إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين، للغزالي. وطبع في مصر في عشرة أجزاء.

وقد بلغ هذا العالم التحرير، الذي ولد في (المهند) ونشأ في (زبيد) باليمن، وأقام بمصر، شأواً عظيماً، وشأناً رفيعاً، في مدارج المجد العلمي والتأليفي، فكاتبه ملوك الحجاز والهند واليمن والشام والعراق والمغرب والترك والسودان والجزائر. وصار بعض الناس في المغرب يعتقدون أن مَنْ حجَّ ولم يزر الزبيدي، ولم يصله بشيء، لم يكن حجّه كاملاً (انظر الأعلام، للزركلي ٧ / ٧٠).

.....

.....

.....

وإذا اتقلنا إلى عصرنا القريب، ونظرنا في شموسه العلمية الساطعة التي صنفت الكتب الموسوعية والنوعية الكبرى، أو التي أمضت سحابة عمرها في البحث وتحصيل المعرفة، وإنارة درب الأجيال بنور العلم وشعاع المعرفة، إذا فعلنا ذلك، طالعنا أسماء كثيرة عظيمة، لانستطيع استقصاءها، وإنما تمثّل عليها تمثيلاً، علماً بأننا نحصر همنا هنا فيمن خدموا اللغة والأدب والتاريخ والتراث العربي عامةً.

ففي مصر الشقيقة، ربما كان أكبر مَنْ خَدِمَ التراث فيها، وحقّق كتباً من كتبه، ونشر مؤلفات منه وحوله، المرحوم (عبد السلام هارون)، فقد أصدر هذا العالم مئة وعشرين كتاباً. وكان كتابه الذي طُبِعَ بعد موته، وهو بعنوان: قطوف أدبية - دراسات نقدية في التراث العربي، الكتاب الحادي والعشرين بعد المائة له، وقد طبع بالقاهرة عام ١٩٨٨.

ومن العراق الشقيق يُنظر بالبال في الحال اسم العلامة (جواد علي) صاحب كتاب: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. وهو كتاب عظيم ممتاز لم يؤلف نظير له في الدراسات المتصلة بالعصر الجاهلي. وقد اقتضى إخراجها للناس إتفاق عمر كامل في الجمع والتصنيف والتأليف. وقد طبع هذا الكتاب في عشرة مجلدات، بدار العلم للملايين في ثمانينيات هذا القرن.

ولا يصح للمرء أن ينسى، من العراق، أكبر بيلوغرافي عربي، وهو المرحوم (كور كيس عواد) الذي أصدر كتاباً نوعياً اسمه: مصادر التراث العسكري عند العرب، في ثلاثة أجزاء، وأمضى من عمره لإنجاز هذا العمل الضخم (٤٥) عاماً. وكور كيس عواد هو ذاته مؤلف كتاب: فهرس فهارس المخطوطات العربية، الذي طبعه معهد المخطوطات العربية بالكويت عام ١٩٨٤ في جزأين، وهو مؤلف كتاب هام آخر ستمرّ بنا مراجعته في القسم الثالث من هذا الكتاب، هو: أقدم المخطوطات العربية في مكبات العالم. وهو أيضاً صاحب كتاب: فهارس المؤلفين العراقيين ويقع في ثلاثة أجزاء، بالإضافة إلى تحقيقه لمجموعة كبيرة من كتب التراث مثل الديارات للشابشتي، والوزراء والكتاب للصايي.

أما لبنان فلا يسوغ لنا أن ننسى من علمائها العظام عالمين كبيرين هما: بطرس البستاني، ولويس شيخوخو، فبطرس البستاني هو مؤلف دائرة المعارف التي أصدر منها قبل موته، سنة ١٨٨٣، ستة مجلدات، وبدأ بالسابع فأكملة ابنه سليم، الذي أرفقه بالثامن، وتعاون أبناؤه مع عمهم سليمان البستاني فأصدروا التاسع والعاشر والحادي عشر، وشرعوا في الثاني عشر، فتوقف العمل. وللبستاني هذا مؤلفات كثيرة أخرى غير دائرة المعارف، فهو مُصنّف معجم محيط المحيط، ويقع في مجلدين. وقد اختصره في معجم آخر دعاه قطر المحيط. ومن المعروف أن البستاني قد أصدر مستعيناً بابنه الأكبر سليم أربع صحف هي: نفي سورية، والجنان، والجنّة، والجنينة. ولاشك في أن بطرس البستاني يعدّ عالماً من أعلام اليقظة العربية إلى جانب ناصيف اليازجي وابنه إبراهيم، وغيرهما.

أما لويس شيخوخو المتوفى سنة ١٩٢٧، فقد كرّس حياته كلها للعلم والمعرفة فأسس، وعمره دون الأربعين، مجلة المشرق في بيروت سنة ١٨٩٨، وراح يحرر أكثر مقالاتها على

مدى خمسة وعشرين عاماً. وتنقل شيخو في أوروبا والشرق، وأطلع على المخطوطات العربية في خزائن المكتبات التي زارها، فنسخ الكثير منها، ونشر بعضه. ومما نشره شيخو مثلاً: شرح ديوان الخنساء، والألفاظ الكتابية، للهمذاني، ومن تصانيفه المتصلة بالتراث: المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، وجماني الأدب، وشعراء النصرانية قبل الإسلام. وقد ألف الأب كميل حشيمة - مدير دار المشرق ببيروت - كتاباً كاملاً رصد فيه آثار هذا العالم اللبناني، وذكر فيه عشرات الكتب والمقالات والأبحاث التي ديجَّها، بعد أن كان الأب حشيمة نفسه قد صنف كتاباً بالفرنسية نقدَ فيه كتاب شيخو شعراء النصرانية، وخلَّصه مما مزجه من أوام تتصل بنصرانية بعض الشعراء الجاهليين خاصةً.

ومن فلسطين لايسع المرء إلا أن يقف مطولاً عند الباحث الدكتور (إحسان عباس) الذي يمكن أن يعد عميداً ثانياً للأدب العربي، لكثرة مؤلفاته ومصنفاته، ولما بذله من جهود علمية في التحقيق والترجمة، فدلل على شخصية علمية متكاملة تهتم بالتراث والمعاصرة معاً... وقد نشرت مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات، في عددها الأول لعام ١٩٩٤، محوراً خاصاً حول الدكتور إحسان عباس، ذكرت فيه مؤلفاته المطبوعة، وكتبه المحققة، والمترجمة، والمحرورة، بالإضافة إلى بحوثه العلمية ومقالاته النقدية، فبلغ مجموع كتبه المؤلفة (٢٤) كتاباً. أما كتبه المحققة فبلغت (٥٢) كتاباً، من بينها ما هو ثمانية أجزاء، مثل: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني. وقد طبع في ليبيا وتونس بين عامي ١٩٧٤ و١٩٧٩، ومعجم الأدياء وهو سبعة مجلدات، وقد طبع بدار الغرب الإسلامي عام ١٩٨٨، ومن كتب الدكتور عباس التي تعد مراجع هامة في كثير من الجامعات العربية كتابه: تاريخ النقد الأدبي عند العرب - نقد الشعر، وطبع لأول مرة في بيروت عام ١٩٧١، وكتابه: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، الكويت ١٩٧٨ (سلسلة عالم المعرفة). أضف إلى ذلك تحقيقه لمجموعة من دواوين الشعراء العرب القدامى، أمثال ديوان لبيد بن ربيعة، وديوان كُثير عزة، وديوان الصنوبري، وأشعار الخوارج... الخ. كما شارك الدكتور عباس في ترجمة كتاب: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، لستانلي هايمن، وكتاب غوستاف فون غرونباوم: دراسات في الأدب العربي... الخ.

أما في سورية فقد برزت أسماء لأعلام كبار وهبوا العلم بحيواتهم، وكرسوا له أعمارهم، واتصفوا بهِمَمٍ نادرة، وعزائم عظيمة، فصنفوا من الكتب القيمة والموسوعية، ما يشهد لهم بتلك الصفات، ويؤكد زهدهم بملذات الحياة، وتفانيهم في خدمة الثقافة والمعرفة. ومن تلك الأسماء قائمة طويلة نقف عند خمسة رجال كبار فيها، هم:

- ١ - محمد كرد علي.
- ٢ - عمر رضا كحالة.
- ٣ - صلاح الدين المنجد.
- ٤ - خير الدين الزركلي.
- ٥ - خير الدين الأسدي.

فمحمّد كرد علي المتوفى سنة ١٩٥١ يكفيه فخراً أنه أسّس مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩١٩، وأنه كان وزيراً للمعارف السورية مرتين، وأنه مؤلف كتاب خطط الشام الذي طبع في ستة مجلدات، استخرجه من نحو (٦٩٥) كتاباً، فيها ما هو عربي وما هو تركي وما هو فرنسي. وأنه مؤلف كتاب: أمراء البيان، وكتاب: غرائب الغرب، (بمجلدان)، والإسلام والحضارة العربية، وهو أجلُّ كتبه، كما يقول خير الدين الزركلي. وقد أصدر كرد علي أيضاً مجلة المقتبس في ثمانية مجلدات على مدى ثماني سنوات، وحرّر في المقتطف خمس سنوات. وله أبحاث ومقالات كثيرة. وقد أصدر له مجمع اللغة العربية كتاباً مخطوطاً بعد وفاته بعنوان: المعاصرون - (انظر الأعلام، للزركلي ٦: ٢٠٢ - ٣٠٢).

أما عمر رضا كحالة، فهو صاحب معجم ضخيم لا غنى عنه لكل باحث في التراث، واسمه معجم المؤلفين، وقد طبع في (١٤) جزءاً. وهو مؤلف كتاب معجم القبائل العربية، ويقع في خمسة أجزاء، ومعجم أعلام النساء، وهو ثلاثة أجزاء، فضلاً عن كتب أخرى له كثيرة، أهّلته لأن يُمنَح وسام الاستحقاق السوري بجدارة قبل وفاته سنة ١٩٨٧.

أما خير الدين الزركلي (١٩٧٦) فهو مصنّف أعظم كتاب عربي معاصر في التراجم، وأريد به كتاب الأعلام، وقد طبع بدار العلم للملايين ببيروت في ثمانية أجزاء. وسر عظمة هذا الكتاب هو الروح الاستقصائية الموجودة فيه، والمشاركة التي تحلّى بها صاحبه،

والدقة والضبط اللذان اتصف بهما، مما جعل هذا الكتاب في غاية النفاسة، يصعب على أي باحث معاصر أن يستغني عنه.

أما خير الدين الأسدي، فهو صاحب كتاب موسوعة حلب المقارنة، التي طبعها معهد التراث العلمي العربي بحلب في ستة مجلدات. وللأسدي مجموعة كبيرة جداً من المؤلفات أهّلته، مثل عمر رضا كحالة، لأن ينال وسام الاستحقاق السوري على جهوده التصنيفية في خدمة تراث هذه الأمة وفكرها وتاريخها.

وبعد، فهذا غيض من فيض، بل هي خطرات خطرت لي دون جهد استقصائي كامل، ودون استيفاء شامل لأسماء من عملوا في التأليف النوعي والموسوعي. وربما كان من غبتهم حقهم في الذكر هنا، أكثر بكثير ممن أنصفتهم، فقد أغفلت من مصر العربية مثلاً أعلاماً كباراً أمثال طه حسين، والعقاد، وشوقي ضيف الذي أُلّف نحو خمسين كتاباً. ومن العراق هلال ناجي الذي جاوزت آثاره المطبوعة المئة أثر (انظر مجلة معهد المخطوطات العربية مج ٣٩ ج ١ لعام ١٩٩٥ ص ١٤٩) ومصطفى جواد، وحاتم الضامن، ونوري حمودي القيسي. ومن تونس حسن حسني عبد الوهاب، والعروسي المطوي، ومن السعودية الشيخ حمد الجاسر، صاحب مجلة العرب، ومحقق وناشر مجموعة طيبة من كتب التراث. ومن ليبيا والسودان والجزائر والمغرب والأردن والإمارات والكويت وعمان أسماء كثيرة جداً لم يسعني جهلي باستقصائها وذكرها هاهنا.

ولكن الذي يشفع لي، في الحقيقة، هو أنني رُمْتُ من وراء ما كتبت هنا أن أشير إشارات سريعة إلى هذا الملمح من ملامح التأليف العربي، لأصنع منه مدخلاً متواضعاً للتأمل في عظمة عزائم أبناء أمتنا من الأجداد والأسلاف، مما يبعث فينا الدهشة والإكبار، ويشير فينا مشاعر التقدير والإعجاب بأمة أُنجبت، حسب التقديرات الرصينة ما يقرب من أربعة ملايين مخطوطة ماثورة في مكتبات أصقاع المعمورة المتباعدة. فهانحن إذاً إزاء تراث عظيم باذخ عجزت عن إنتاج ما يباهيه أمم أخرى كثيرة.

ومن يُعاینُ ما كتبه الألماني - التركي العلامة (فؤاد سزكين) في كتابه تاريخ التراث العربي الذي نقلته إلى العربية جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ونشرته في

عشرة أجزاء في ثمانينيات هذا القرن، يَرَّ شَيْئاً عَجَباً من البحر الزاخر الذي لا ساحل له، من المؤلفات المطبوعة والمخطوطة، التي كان (سزكين) يشير إليها مجرد إشارات بعد حديثه عن كل علم من أعلام التراث العربي. وكان قد وقف في تاريخه هذا عند العام (٤٣٠ / ١٠٣٨) فقط. فإذا وضعنا هذا الكتاب إلى جانب كتاب آخر مشابه وسابق له زمنياً هو كتاب: تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان، وقد ترجم إلى العربية ونشر في القاهرة، تكاملت لدينا ملامح صورة ما عن تراث العرب العظيم في شتى جوانب المعرفة البشرية القديمة. وهذا تراث لا يستطيع إلا جاهل أو مكابر، أو حاقد، أن يتنكر له، أو يستخف به، شرط أن ينظر إليه في إطاره التاريخي والاجتماعي والحضاري الذي ظهر فيه، ويضع في حسبانته نسبية تطور العلوم وترقي المعارف، عبر المسيرة الحضارية للبشرية جمعاء.



مصادر البحث ومراجعته

- ١ - ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق هنري لاوست، وسامي الدهان، دمشق ١٩٥١.
- ٢ - الأحذب، خلدون: سوانح وتأملات في قيمة الزمن، جدّة - السعودية - ١٤٠٧هـ.
- ٣ - إقبال، أحمد الشرقاوي: معجم المعاجم، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٤٠٧ / ١٩٨٧.
- ٤ - الانباري، نزهة الالباء في طبقات الأدباء.
- ٥ - الباخريزي: دمية القصر وعصرة أهل العصر.
- ٦ - بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم نجار وصحبه، ط ٣، القاهرة ١٩٧٤.
- ٧ - البغدادي، تاريخ بغداد.
- ٨ - الدقاق، عمر: مصادر التراث العربي، دار الشروق بيروت.
- ٩ - الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت.
- ١٠ - سزكين، فؤاد: تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي، الرياض ١٤٠٣ / ١٩٨٣.
- ١١ - الصابوني، عبد الوهاب: عيون المؤلفات، حلب (مطبوعات معهد التراث العلمي العربي) ١٤١٣ / ١٩٩٢.
- ١٢ - الصفدي، خليل الدين بن أيك: الوافي بالوفيات، بيروت، مطبوعات المعهد الألماني.
- ١٣ - طوقان، قدرى حافظ: العلوم عند العرب، دار اقرأ. د. ت.

- ١٤- علوجي، عبد الحميد: مؤلفات ابن الجوزي، بغداد ١٣٨٥ / ١٩٦٥.
- ١٥ - عواد، كوركيس: أقدم المخطوطات العربية في العالم، بغداد ١٩٨٢.
- ١٦ - اللحام، بديع: حياة جلال الدين السيوطي مع العلم من المهدي إلى اللحد، دمشق.
- ١٧ - هارون، عبد السلام: قطوف أدبية، القاهرة ١٩٨٨.
- ١٨ - ياقوت الحموي: معجم الأديباء، ط الرفاعي، مصورة دار إحياء التراث العربي بيروت، وطبعة إحسان عباس.
- ١٩ - مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات، بيروت، العدد الأول ١٩٤٤.
- ٢٠ - مجلة معهد المخطوطات العربية - القاهرة - مج ٣٩ - ج ١ لعام ١٩٩٥.



الكتب المفقودة أو المنشورة ناقصة

في رحلة الكُتُب التراثية التي بدأت منذ عهد التدوين إلى يوم الناس هذا، ضاع الكثير الكثير، وقد أصاب المصنفات العربية القديمة ما أصاب الشعر القديم. وإذا كان الشعر، في زمن الشفاهية قد فقَدَ من رصيده ما هو جم غفير - كما يقول أبو عمرو بن العلاء (١٥٤ / ٧٧٠) - فإن المصنَّفات الأخرى كذلك فقِدَتْ أجزاء منها، أو فقدت كلها في زمن الكتابة. ومن يطالع كتاب الفهرست، لابن النديم (٣٨٥ / ٩٩٥). بما حواه من مصنفات ومؤلفات، يلحظ، بأسى، مدى خسارتنا لكُتُبٍ قيِّمة ألُفَّتْ قبل موت ابن النديم. وقد بلغ عدد الكتب التي حصرها ابن النديم في الفهرست (٨٣٦٠) عنواناً على وجه الدقة. وبلغ عدد المؤلفين (٢٢٣٨) مؤلفاً. ويدخل في عداد الكتب ما هو ذو مئة جزء، وما هو رسالة ذات عشر ورقات. ويدخل في عداد المؤلفين من قال بيتاً من الشعر، ومن ألف حمسمته عنوان، من بينها عنوان واحد في عشرين ألف ورقة، وهو أقصى توريق وصل إليها كتاب الفهرست (انظر مقدمة شعبان خليفة ووليد محمد العوزة لكتاب الفهرست، طبع القاهرة ١٩٩١، ج ١ ص ٣٩).

ويزداد الأسى إذا وازن المرء بين ما ذكره ياقوت الحموي (٦٢٦ / ١٢٢٨) في كتابه معجم الأدباء من مؤلفات الأديب الذي يترجم له، وما وصل إلينا من مؤلفات الأديب ذاته إلى هذه الأيام... وتتسع الدائرة أكثر فأكثر إذا ما قارنا بين ما سجَّله الحاج خليفة (١٠٦٧ / ١٦٥٦) في كتابه: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، وما صار إلى أيدي الناس الآن. ومن دلائل غزارة مادة هذا الكتاب الأخير أنه عرض لـ (٢٠٠) مثني علم وفن، ووقف عند نحو (١٥٠٠٠) خمسة عشر ألف عنوان، وأشار إلى (٩٥٠٠) تسعة آلاف وخمسة مئة مؤلف - (انظر: الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات، محمود الطناحي ص ٩٩). ويضاف إلى هذه الملاحظات النتيجة التي يفضي إليها النظر في مصادر المصنِّفين الكبار التي عادوا إليها

في زمانهم وفُقدت في زماننا، أمثال ابن عساكر، وياقوت الحموي، وخطيب بن أيك الصفدي، وعبد القادر البغدادي، والسيوطي. ولكل من هؤلاء مؤلفات دسمة وغنية، عناوين بعضها يقع في عدة أجزاء. بيد أن بعض الباحثين في التراث في عصرنا هذا شاوروا أن يبعثوا إلى الحياة أجزاء من كتب مفقودة، عثروا عليها في جولات بحثية لهم في بطون أمهات الكتب، فضموا أجزاءها بعضها إلى بعض، وخرجوا، بعد بذل الجهد، بأمشاج كتاب ضائع، مُقدِّمين بذلك فكرة جيدة، أو مقبولة، واسعة أو موجزة، عن نهج ذاك الكتاب المفقود، وعن محتواه، وهم مؤلفه، مما يكمل ملامح صورة ناقصة، أو يرسخ حكماً، أو يعدل أحكاماً، قد يكون بعضها مبنياً على استقرارات ناقصة.

ويبدو أن النقص أو الزيادة في بعض مخطوطات الكتب كان قديماً، فقد ذكر ياقوت الحموي أنه قرأ بمصر في نسخة لـ «يتيمة الدهر»، للنعالي، عليها خط يعقوب بن أحمد، بالقراءة عليه يروها عن مؤلفها النعالي، فوجد زوائد لم يعرفها في النسخ المشهورة بأيدي الناس آنئذٍ (معجم الأدباء ٦: ٢٦٩).

وإذا كانت اليتيمة قد وصلت ونشرت في أربعة أجزاء، ثم نشرت تمتتها في جزء خامس في زماننا، فإن كتباً أخرى بقيت ضائعة أو مبنوثة في مصادر لاحقة جاءت بعدها. ومن تلك الكتب على سبيل المثال لا الحصر، كتاب طبقات الشعراء، لدعبل الخزاعي (٢٤٦ / ٨٦٠)، فهو كتاب ضائع. وقد نشر (محمد جبار المعيد) أجزاء معينة منه، في مجلة المورد العراقية (مج ٦ ع ٢). ومنها أيضاً كتاب الأربعة في أخبار الشعراء، لأبي هيفان المهزبي (٢٥٧ / ٨٧٠). وقد نشر (هلال ناجي) مقاطع من هذا الكتاب في مجلة المورد المذكورة سابقاً (مج ٨ ع ٣) وأضاف ان هذا الكتاب قد أثر تأثيراً واضحاً في مصنفات من جاء بعده، فاحتذى حذوه (محمد بن داود بن الجراح) (٢٩٦ / ٩٠٨) و (أبو محمد الحسن بن محمد - الوزير المهلب) (٣٥٢ / ٩٦٣م) و (أبو أحمد العسكري) (٣٨٢ / ٩٩٢). وكُتب هؤلاء كلها ضائعة.

وبعد أن نشر المحقق (برنهارد ليفن) الجزء الثالث والنصف الأول من: كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري، في بيروت سنة ١٩٧٤، قام الدكتور (محمد حميد الله) بنشر ملتقطات من المجلد الأول والثاني والرابع الضائعة. وذلك في مدينة كراتشي بباكستان سنة ١٩٩٣.

وقبل هذا التاريخ نهض المحامي (عبود الشالجي) بنشر أربعة أجزاء ضائعة من كتاب: نشوار المحاضرة، للتنوخي، البالغ ثمانية مجلدات، بعد أن بذل جهداً كبيراً ينقب في بطون الكتب، يقول الشالجي في هذا الصدد: «حاولتُ من بعد ذلك أن أتبع الفقرات الضائعة من المنشورات في ثنايا الكتب، فأعيد جمعها. وكان ذلك بدء عمل معين، بذلتُ فيه وقتاً وجهداً وصبراً، فقد راجعت مؤلفات تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، وتاريخ الوزراء، للصائبي، ومؤلفي ياقوت: معجم الأدباء، ومعجم البلدان، ووفيات الأعيان... الخ والأجزاء التي أضافها (الشالجي) إلى الأصول المخطوطة هي الأجزاء (الرابع والخامس والسادس والسابع).

ومن الكتب التي عُدت مفقودة، ولم تطبع إلى الآن، بعض كتب معاني الشعر. وقد ألف في معاني الشعر مُصنّفون كثير، نذكر منهم: المفضل الضبي (١٦٨ / ٧٨٤ م)، ويونس ابن حبيب (١٨٣ / ٧٩٩ م)، وابن كناسة الكوفي (٢٠٧ / ٨٢٢ م)، والأخفش - سعيد بن مسعدة (٢١٥ / ٨٣٠ م) وابن السكيت (٢٤٦ / ٦٨٠ م)، والأصمعي (٢١٦ / ٨٣١ م) وابن أخيه عبد الرحمن (بعد ٢١٦ / ٨١٣ م) وأبا عبيد القاسم بن سلام (٢٢٣ / ٨٣٧ م) وابن الأعرابي (٢٣١٠ / ٨٤٥ م)، والأشنانداني (٢٢٨ / ٩٠٠).... الخ. ولم يطبع من كتب هؤلاء - في حدود علمي - سوى كتاب المؤلف الأخير، أعني: الأشنانداني، طبعه عز الدين التنوخي، ونشرته وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٦٩.

ومن المعروف أن كتب معاني الشعر تُعنى بالأبيات المألوفة التي لاتفهم معانيها للوهلة الأولى، بل تحتاج إلى تأمل وتدبر وإيضاح.

والحق أن البحث والاستقصاء يُمكننا من أن نقع على ملتقطات من بعض هذه الكتب المفقودة. وقد عثرت بجهد غير كبير على ثماني ملتقطات من كتاب ابن السكيت: معاني الشعر، أو أبيات المعاني، وكلاهما اسم يُسَمَّى واحد على الأرجح. ومن تلك

المُلْتَقَطَات نص جاء في خزانة الأدب، للبغدادي (١٠٩٣/١٦٨٢)، فقد قال البغدادي في
الخزانة (ج ١١ ص ٣٦٥) بعد أن انشد هذين البيتين:

فأما الصُدورُ، لاصدورَ جعفرِ ولكنْ أعجازاً شديداً ضريئها
تراجمنا عندَ المكارمِ جعفرَ بأعجازها إذ أسلمتها صدورها

«كذا أنشدهما يعقوب بن السكيت عن المفضل لرجل من الضباب في كتاب أبيات
المعاني وقال: يقول: بنو جعفر ضعفاء عن حربنا استعانوا بالنساء، وذلك أن قُطِية بنت
الحارث تزوجها بشر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، فكان بين الضباب وجعفر حرب،
فأعانت بنو أمية بني جعفر على الضباب. انتهى كلامه.»

ومن الكتب المفقودة، في باب التراجم، كتاب لابن رشيق القيرواني (١٠٦٣/٤٥٦)
اسمه الأتمودج في شعراء القيروان، وهو يضم مئة ترجمة لمئة شاعر عاصروا ابن رشيق. ولئن لم
تصل مخطوطة لهذا الكتاب إلينا، فإنّ كتباً تراثية لاحقة، عاش مصنفوها بعد ابن رشيق، قد
نقلت عن هذا الكتاب. ومن تلك الكتب مثلاً الذخيرة لابن بسام، والمنتظم لابن الجوزي،
ومعجم الأدباء، ومعجم البلدان، وكلاهما لياقوت الحموي، ومسالك الأبصار لابن فضل
الله العمري، ونفح الطيب للمقري، والوافي بالوفيات للصفدي، وغيرها وغيرها.....

وقد قام العروسي المطوي ومحمد البكوش، من تونس، بمهمةٍ جَمَعَ ملتقطات من
كتاب الأتمودج الضائع، من المصادر المتأخرة، ونشراها بتونس.

ولم يُفَقَدْ كتاب ابن رشيق فحسب، بل ضلَّ طريقه إلينا كتاب آخر هام، هو
كتاب: معجم الشعراء، لياقوت الحموي. وقد عثرت في أثناء بحوثي بنقول عن هذا الكتاب
الهام، فقد نقل عنه الصفدي في كتابه: الوافي بالوفيات، فقال عن الشاعر الحسين بن أبي
منصور: «قال ياقوت في معجم الشعراء: سمعته يقول: حفظت كتاب سيبويه، بعد المفضّل
للزنجشري، أقام بمصر في خدمة الملك العادل وصادف عنده القبول» - (الوافي بالوفيات ج
١٣ ص ٦٦).

وإنه لمن الملائم أن ينهض باحث معاصر، بمهمة مراجعة النقول التي وردت في مؤلفات من جازوا بعد ياقوت، وأخذت من كتاب معجم الشعراء، فيطلعنا على طريقة ياقوت في كتابه هذا، وقد يعرفنا على أعلام جلد مغمورين، ربما تفرد ياقوت بترجماتهم في معجمه المفقود، الذي نشير إليه هاهنا إشارة مختصرة.

وقد أشار المحقق الأستاذ (إبراهيم صالح) في مقدمة كتابه: وقفات قوم من المصريين، لابن الجبال (٤٨٢ / ١٠٨٩) إلى أن لابن الجبال هذا كتاباً، اسمه: كتاب التاريخ. وهو كتاب لم يصل إلينا، ولكن نقولاً منه وردت في كتب أخرى، مثل: بُغية الطلب، لابن العديم، والمنظّم، لابن الجوزي، ومعجم الأدباء، لياقوت الحموي، وسير أعلام النبلاء، للنهي، وجزوة المقتبس، للحميدي، وطبقات الشافعية الكبرى، للسبكي - (انظر مقدمة كتاب وقفات قوم من المصريين ص ٢٣ - ٢٥).

ومن المناسب أيضاً أن يقوم باحث هُمام يجمع تلك النقول من هذا الكتاب المفقود وتصنيفها ونشرها.

وقد وعى الباحث الكبير الدكتور (إحسان عباس) خطورة التقاط النصوص المبعثرة في بطون الكتب التراثية التي وصلت إلينا، والتي تعود إلى كتب مفقودة، فأصدر في العام ١٩٨٨، كتاباً هاماً يقع في (٥٣٤) صفحة، سمّاه: شذرات من كتب مفقودة في التاريخ والأدب. وقد جمع هذه الشذرات من مجموعة من المصادر، كان أهمها: كتاب بُغية الطلب، لابن العديم، ومعجم الأدباء، لياقوت الحموي، وذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي.

وبلغ عدد الكتب التي جمع نصوصاً منها (٣٠) ثلاثين كتاباً. منها (٢٢) اثنان وعشرون كتاباً في التاريخ و (٨) ثمانية في الأدب. وأكثر هذه الكتب بحكم المفقود. وقد صنع إحسان عباس معرضاً للنماذج منها تطول أو تقصر، ثم قال في معرضه هذا: «وهذا المعرض الجديد مؤشر على شيئين: أولهما على كثرة الكتب المهمة التي ضاعت أو ماتزال مخفية، وثانيهما على مبلغ النقص في بعض الكتب التي نشرت» - (المقدمة ص ٧).

ومن الكتب التاريخية المفقودة أو الناقصة التي التقط إحسان عباس نصوصاً منها:

١ - أخبار البرامكة، لأبي جعفر - عمر بن الأزرق الكرمانى (القرن الثالث الهجرى).

٢ - كتاب الأحداث، لأبي جعفر - محمد بن الأزهر (القرن الثالث الهجرى).

٣ - كتاب سيرة النغور، لأبي عمرو عثمان بن عبد الله بن إبراهيم الطرسوي (٤٠٠ / ١٠٠٩)

٤ - تاريخ العظمى، لأبي عبد الله علي بن محمد أحمد بن نزار التنوخى الحلبي (بعد سنة ٥٥٦ هـ).

وقد نشر السيد إبراهيم زعرور كتاباً للعظيمى هذا بعنوان تاريخ حلب، بعد أن نال به درجة الماجستير من جامعة دمشق. وكان ثمة نصوص واحدة وردت عند إحسان عباس وإبراهيم زعرور (قارن بين كتاب عباس ص ٦٣ رقم (٢٧) وبين تاريخ حلب للعظيمى ص ٣٥٥، وكذلك بين إحسان عباس ص ٦٤ رقم (٣٣) وتاريخ حلب ص (٣٦١).

٥ - الاستظهار في التاريخ على الشهر، للقاضي أبي القاسم علي بن محمد الرحبي، المعروف بابن السماني (٤٩٣ هـ).... الخ.

ومن كتب الأدب التي ساق نصوصاً منها الكتب التالية:

١ - كتاب المفاوضة، لأبي الحسن علي بن محمد بن نصر الكاتب (٤٣٧/١٠٤٦).

٢ - كتاب الربيع، لفرس النعمة أبي الحسن محمد بن هلال (٤٨٠/١٠٨٧). وقد ألفه هذا ليكون ذيلاً على كتاب نشوار المحاضرة، لأبي علي الحسن التنوخى.

٣ - نزهة الناظر، لكمال الدين أبي محمد عبد القاهر بن علوي بن المهنا (بعد سنة ٥٨٢ / ١١٨٦).

٤ - كتاب الديرة، لأبي الحسن علي بن محمد بن المطهر الشمشاطي (القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادي).

٥ - كتاب الأوراق، للصولي (٣٣١ / ٩٤٢). وقد اقتصر فيه على ماجاء في بغية الطلب، علماً بأن النقول عنه كثيرة. وقد نشر من هذا الكتاب ثلاثة أجزاء. وسيمر بنا بعد قليل استدراكات على ما نشر منه، لأنه لم يصل إلينا كاملاً.

ولم يكن كتاب الأوراق للصولي الكتاب الوحيد الذي نشر ناقصاً في زماننا هذا، بل نُشر مثله كتب كثيرة، فاضطر الباحثون إلى صناعة استدراقات عليها، بعد أن عرفوا حقيقتها واكتشفوا نقصها.... وقد كان النقص يأتي من أصل المخطوط الذي أخرج عنه المطبوع. والإضافة تأتي من مخطوطات أخرى، أوفى وأكمل، أو من كتب أخرى نقلت عن أصول خطية ضائعة، ليست هي التي آل إليها محقق الكتاب.

ومن الكتب التي ظهرت ناقصة، بسبب الاعتماد على مخطوطة واحدة فردة، كتاب الفرق، لثابت بن أبي ثابت اللغوي، وهو من علماء القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وموضوع هذا الكتاب الفرق بين تسمية أعضاء الجسم ووظائفه بين الإنسان والحيوان. وكان هذا الكتاب قد طبع في (المغرب) اعتماداً على مخطوطة جامع القرويين بفاس سنة ١٩٦٤، ثم اكتشف (محمود الطناحي) مخطوطة أخرى له، فأرسلها إلى (حاتم الضامن) بالعراق، فاستدرك هذا الأخير على الكتاب المطبوع ما يقرب من مئتي موضع أخلت بها النسخة المطبوعة، ونشر ذلك كله في مجلة المورد (مج ١٣ ع ١).

وكذلك نشر (حاتم الضامن) ما لم ينشر من كتاب الأمالي الشجرية، وهي المجالس العشرة التي أخلت بها طبعة حيدر آباد، لأمالي ابن الشجري (١١٤٧/٥٤٢)، وفي مجلة المورد (مج ٣ ع ١).

ثم إن هذا الكتاب لقي عناية أخرى، فحقق منه الدكتور (محمود الطناحي) (٤٩) تسعة وأربعين مجلساً. ونال بتحقيقه هذا، ودراسته عن ابن الشجري وأماليه، شهادة الدكتوراه. ثم نشر عمله في مكتبة الخابجي بمصر عام ١٩٩٢.

ولم تكن المجالس الـ (٤٩) التي أخرجها الطناحي من الأمالي الشجرية هي الكتاب برمته، فالأمالي تقع في (٨٤) مجلساً.

ومما أشار إليه المحقق في مقدمته، ويهمنا هنا، أن هذه الأمالي حفظت لنا نصوصاً من كتب ضائعة، مثل كتاب الأوسط، للأخفش - سعيد بن مسعدة، وكتاب الواسط، لأبي بكر الأنباري، وبعض نصوص من كتب مفقودة، لأبي علي الفارسي، كما حوت نصوصاً مفقودة من كتاب (الكتاب)، لسيبويه، ومن مُصنّفي المبرّد: المُقتضب، والكامل.

وقد نشر (ميخائيل عواد) كتاباً بعنوان: نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب، لمحمد بن عبدوس الجهشياري (٣٣١ / ٩٤٢) جمعها من مصادر مخطوطة ومطبوعة. ونشر (عواد) كتابه هذا في بيروت سنة ١٩٦٥. وكان الكتاب الأصلي الناقص نشر في القاهرة سنة (١٣٥٧ / ١٩٣٨) نشرة أدخلت بحوالي ثلثي أصل الكتاب - كما يرى (ميخائيل عواد) - (انظر مقدمته ص ١١).

وكذلك فعل هذا الدارس المتعقب مع كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، لهلال ابن المحسن بن إبراهيم الصابي (٤٤٨ / ١٠٥٦) المنشور في بيروت عام ١٩٠٤، إذ وجد بعض كراريس منه، فنشرها تحت عنوان: «أقسام ضائعة من كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء»، في بغداد سنة (١٣٦٧ / ١٩٤٨)، أفاد منها المرحوم عبد الستار فراج في نشرته الثانية للكتاب التي ظهرت في القاهرة عام ١٩٥٨ - (انظر: الموجز في مراجع التراجم، للطناحي ص ٦٧).

وكذلك نبه ناشراً كتاب الفهرست، لابن النديم، السيدان: شعبان خليفة ووليد عماد العوزة، اللذان طبعاه في القاهرة سنة ١٩٩١، إلى ان كتاب الفهرست لابن النديم يبقى بحاجة إلى إعادة نظر دائمة، لعدم وجود نسخة مخطوطة كاملة له، وكل مانشر من طبعات للفهرست كان ناقصاً بما في ذلك الطبعة الأخيرة له بالقاهرة.

وانظر حول الفهرست بحثاً للدكتور شاكراً الفحام في مجلة مجمع اللغة العربية بمصر (ج ٧٠ لعام ١٩٩٢)، وبحثاً للدكتور يوسف حسين بكار في كتابه: قراءات نقدية، دار الاندلس بيروت ١٩٨٠.

وفي وسعنا أن نعد طبعة (السيد أحمد صقر) لكتاب الموازنة بين الطائين الصادر في القاهرة عام ١٩٦١ أكمل طبعة لهذا الكتاب، الذي كان قد نشر في القاهرة خمس مرات، من قبل، منقولاً. يقول أحمد صقر في مقدمته: «أحمد الله سبحانه وتعالى إذ قَدَّر لي أن أكون أول طابع لكتاب الموازنة بين الطائين الذي ألفه أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة»، والمرات الخمس التي نشر فيها الكتاب بدأت من سنة ١٢٨٧ هـ، وانتهت سنة ١٣٧٣/١٩٥٤. ويضيف الأستاذ صقر: « إن جميع هذه الطبعات ناقصة

ملووعة بالتحريف، ومن عجب أنها تشتمل على نصوص تشير إلى ذلك النقص». ثم يذكر النصوص التي تؤكد نقص كتاب الموازنة، ويذكر أن الزيادات في طبعته هو تبدأ من الصفحة ٤٥٨، وتشمل سبعة أبواب كاملة.

كما أن هناك نقصاً آخر تخلل فصول الكتاب أشار إليه أحمد صقر في مقدمته لكتاب

الموازنة.

ومن القبيل ذاته أن كتاب محمد بن سلام الجمحي (٢٣١ - ٨٤٥ م) طبقات فحول الشعراء الجاهليين والاسلاميين، قد نشر ثلاث مرات منقوصاً غير كامل. وقد نشره (يوسف هل) بليدن بين سنتي ١٩١٣ و ١٩١٦. وطبعه (حامد عجان الحديد) ثانية بالقاهرة سنة ١٩٢٠، ثم أعاد (محمود شاكر) نشره ثالثة في القاهرة أيضاً سنة ١٩٥٢. حتى إذا عثر (شاكر) من جديد على مخطوطة للكتاب في مكتبة شيخ الاسلام (عارف حكمت) بالمدينة المنورة، أعاد نشر الكتاب بالاعتماد عليها مرة رابعة، سنة ١٩٧٤. وتَنصَلَّ في مقدمة طبعته الأخيرة من الطبعة السابقة، أعني طبعة سنة ١٩٥٢، يقول بالنص: «فأنا لا أُجِلُّ لأحد من أهل العلم أن يعتمد بعد اليوم على هذه الطبعة الأولى من طبقات فحول الشعراء (يقصد طبعة عام ١٩٥٢) مخافة أن يقع بي في زَلَلٍ لأرضاه أنا، وأضرع إلى كل من نقل عن هذه الطبعة شيئاً في كتاب، سواء كان قد نسبه إلي أو لم ينسبه، أن يراجع على هذه الطبعة الجديدة من الطبقات لينفي عن نفسه وعمله العيب الذي احتملت أنا وحدي وزره». - (مقدمة طبقات فحول الشعراء ١٩٧٤ ص ٧٠).

والحق أن هذا الكتاب، رغم العناية الفائقة التي أولاه إياها الأستاذ محمود شاكر، بقي ناقصاً سقطت من أصوله، التي اعتمدت، نصوص، كان اللاحقون لابن سلام قد نقلوها عن نسخ أخرى، ومن ذلك مثلاً، لاحتصاراً، خير ساقه ابن عساكر (٥٧١ / ١١٧٥) في كتابه تاريخ مدينة دمشق، حول خالد بن عبد الله القسري - والي سليمان على مكة - (انظر تاريخ مدينة دمشق - تحقيق مطاع الطرايشي دمشق ١٩٨٦ ج ٣٤ ص ١٦٥، ودراستنا حول الطبقات في القسم الثاني من هذا الكتاب).

وفي سنة ١٩٥٣ نشر المرحومان عبد الوهاب عزام وعبد الستار فرّاج كتاباً آخر في تراجم الشعراء، وهو كتاب الورقة، لمحمد بن داود بن الجراح (٢٩٦ / ٩٠٨). ولم يظهر هذا الكتاب على الصورة التي تُرك عليها عندما جفَّ عنه مداد مؤلفه. فهو كتاب ناقص مبتور. وقد اعترف المحققان بذلك، ولكنهما لم يسعيا لإكماله من الكتب التالية التي نقلت عنه، ومن تلك الكتب على سبيل المثال لا الحصر كتاب وفيات الأعيان، لابن خلكان، والوفيات بالوفيات، للصفدي. وفي كل كتاب من هذه الكتب نقول عن كتاب الورقة لم يرد في ما طبع منها سنة ١٩٥٣. وقد أوضحت ذلك بجلاء في حديثي عن هذا الكتاب في القسم الثاني من هذا المصنف.

هذا، وعندما قارن الدكتور (عبد الفتاح الحلو) بين ما بين يديه من مخطوطات كتاب دمية القصر وعصرة أهل العصر، لأبي علي بن الحسن بن علي الباعرزي (٤٦٧ / ١٠٧٤) ومانشره من المرحوم (محمد راغب الطباخ) بحلب سنة ١٩٣٠، هالاً ما وجد بين فرق بين المطبوع والمخطوط. وانتهى إلى أنّ النسخة التي اعتمد عليه (الطباخ) لنشر الكتاب، كانت مشوهة «عاثت ناسخها فيها فساداً، وحذف منها كثيراً من التراجم، وخلط بين التراجم الباقية، فنسب الشيء إلى غير قائله، ووصف الرجل بما ليس فيه، وترك القارئ من أمرها في حيرة». ويضيف الأستاذ (الحلو) في وصف أصوله هو التي اعتمدها للطباعة «وحسبك أن تعلم أن الدمية المطبوعة تتضمن ثلاثمائة ترجمة، بينما زاد عدد المترجمين في الأصول الخطية التي اعتمدها على عشرين وخمسمائة، وكذلك فقد طالت تراجم كثير ممن قصرت تراجمهم في المطبوعة. وردَّ إليهم مانسب إلى سواهم من قول، أو ادَّعي لغيرهم من شعر» - المقدمة ص ٥). وقد أخرج الأستاذ الحلو كتاب دمية القصر هذا بمصر سنة ١٩٦٨.

ومن المعروف للباحث المتتبع أن الدكتور محمد التوينجي قد أعاد طبع الكتاب ثلثة، بعد أن حصل به على شهادة الدكتوراه من جامعة القديس يوسف ببيروت، ونشره سنة ١٩٧١. وقد ذكر أن - تراجم الشعراء والرجال في كتاب الدمية، الذي أخرجه هو، بلغت حوالي ست مئة ترجمة.

ومن الكتب التي تُدوِّلتُ لسنوات، وهي ناقصة ومنقوصة، كتاب مزار القلوب في المضاف والمنسوب للنعالي. وقد حققه (محمد أبو الفضل إبراهيم) وطبعه بالقاهرة عام ١٩٦٤. ثم قام الأستاذ المحقق (إبراهيم صالح) بنشر هذا الكتاب بدمشق عام ١٩٩٤ معتمداً على نسختين مخطوطتين له في المكتبة الظاهرية، لم يطلع عليهما المحقق الأول المرحوم (أبو الفضل إبراهيم) فجاءت طبعة الأستاذ (صالح) أفضل وأكمل وأدق بكثير من طبعة المرحوم (إبراهيم). وهي بدون ريب أعلى بدرجات من الطبعة الأولى للكتاب، التي قام بها المحامي (محمد بك أبو شادي) حين أخرج الكتاب بمصر سنة ١٩٠٨.

ويبدو أن كتاب تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (٤٦٣ / ١٠٧٠) قد ظهر غير كامل بدليل أن المحقق التراثي الثبت (محمود الطناحي) ذكر أنه وجد من هذا الكتاب أربعة أجزاء في المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، على بعضها سماعات أقدمها يرجع إلى سنة (٥٠٣ هـ)، فكتب قائلاً: «ولعل في هذا ما يدعو إلى إعادة نشر الكتاب». وقد أخبر بذلك الدكتور أكرم العمري الذي كانت أطروحته للدكتوراه حول موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، لعله ينشر الكتاب من جديد.

ومن الجدير ذكره أن تاريخ بغداد طبع في أربعة عشر مجلداً، في مصر، بعناية محمد أمين الخانجي سنة ١٣٤٩ (الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات، للطناحي ص ٧٠).

ومما يُذكر أن كتاب معجم الأدباء، لياقوت الحموي، طبع طبعتين متقاربتين في الثلث الأول من هذا القرن، طبعه المستشرق (مرجليوت) ثم طبع ثانية بمصر سنة ١٩٣٢، وطبع ثالثة بدار المأمون بإشراف (أحمد الرفاعي) سنة ١٩٣٦، فجاءت هذه الطبعة في عشرين جزءاً. ثم نشرته بالتصوير دار إحياء التراث العربي ببيروت، كما نشرته دار الكتب العلمية ببيروت أيضاً مشفوعاً بالفهارس. وكل هذه الطبعات كانت ناقصة، لأنها لم تعتمد على شيء جديد. حتى إذا ما عثر الدكتور (إحسان عباس) على مخطوطة عُمانية عنوانها: «بغية الأدباء من معجم الأدباء» صنعها لنفسه (أحمد بن علي عبد السلام التكريتي)، أخرج هذا الكتاب بأوفى صورة له حتى الآن. وذلك بعد أن أفاد (عباس) مما كتبه مصطفى جواد

من استدراقات على طبعة مرجليوث، ومانشره الأديب الفلسطيني إسعاف النشاشيبي على طبعة الرفاعي من تصويبات واستدراقات، فصار لدى (عباس) حوالى مئتي (٢٠٠) ترجمة زائدة عما نُشر من معجم الأدباء، فيما مضى. وكذلك عاد عباس إلى مخطوطة كوبريللي بتركية، وهي تقع في (٢١٩) ورقة، فصحح من خلالها التحريفات والتصحيحات التي حفلت بها الطبعات الأسبق لمعجم الأدباء. وعليه جاءت طبعة إحسان عباس لهذا الكتاب أوفى وأكمل طبعة له. ورغم ذلك فإنَّ هذا المعجم يبدو حتى في صورته النهائية هذه، غير كامل، ومن هنا راح عباس يكتب في مقدمته: «هناك عشرات التراجم التي لاتزال مفقودة من معجم الأدباء» - (المقدمة ج ١ ص (١)).

ومما يدخل في نطاق الكتب المنشورة ناقصة كتاب النوادر، لأبي زيد الأنصاري (٢١٥ / ٨٣٠) الذي حققه (محمد عبد القادر أحمد)، وطبعه في بيروت سنة ١٩٨١، بعد أن كان قد طبع سنة ١٨٩٤ في بيروت، بتحقيق سعيد الشرتوني. والدليل على نقص هذه الطبعة الاخيرة، أن ثمة نصوصاً منه، نقلها البغدادي في خزانة الأدب، لم ترد في كتاب النوادر. وعلى سبيل المثال فقد ذكر المرحوم عبد السلام هارون - محقق الخزانة هذا الخير القائل:

«ويجوز رفع (بين) إذا لم يسبقها (ما)... ويُنصَّب. وروى أبو زيد في نوادره قول

الشاعر:

شَتَانُ بَيْنَهُمَا فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ هَذَا يُخَافُ وَهَذَا يُرْتَجَى أَيْدَاً

بِرَفَعِ (بَيْن)..... الخ». ثم قال هارون في حاشيته: «لم أجده في نوادر أبي زيد المطبوعة» (الخزانة ج ٦ ص ٢٧٩).

وفي كتاب خزانة الأدب أيضاً، وهو يقع في ثلاثة عشر مجلداً، ذكر البغدادي في مقدمته كتباً كثيرة ضاعت وفقدت، وكان هو نقل عنها، كما أشرنا من قبل، ومن تلك الكتب كتاب الأوراق، للصولي (٣٣٥ / ٩٤٦). وقد نشر المستشرق (ج. هيورث) أقساماً

منه بمطبعة الصاوي بالقاهرة بين سنتي ١٩٣٤ و ١٩٣٦. ولكن هذه النشرة أخلت مثلاً بهذا الخير الذي جاء في الخزانة (ج ١٠ ص ٢٣٨):

«وكذا روى الصولي في كتاب الأوراق عن الطيب بن محمد الباهلي، عن موسى بن سعيد بن مسلم أنه قال: كان أبي يقول: كان فهمُ الرشيد فهمَ العلماء. أنشده العماني في صفة فرس: «كأن أذني» البيت. فقال له: دغ «كأن» وقل: «تخال أذنيه» حتى يستوي الشعر». والبيت المراد هاهنا:

كأن أذنيه إذا تشوّفا قادمة أو قلماً محرّفاً

وعلم قوم أنه لحن، وبذلك في نصب (قادمة). ولم يهتدوا إلى إصلاحه، حتى أفتى الرشيد بما أفتى به. وقد مر أن الدكتور (إحسان عباس) استل من كتاب بغية الطلب، لابن العديم (١٦) قطعة أو خيراً لم ترد في كتاب الأوراق للصولي. (انظر كتاب عباس، شذرات من كتب مفقودة ص ٤٠٥ - ٤٢٧).

ومن الكتب المنشورة ناقصة أيضاً كتابان هامان هما: كتاب ليس، لابن خالويه (٣٧٠ / ٩٨٠) وكتاب مجالس نعلب، لنعلب (٢١٩ / ٩٠٣). وما يؤكد نقص الكتاب الأول هنا أنني وقعت في أبحاثي على إحالة تقول: «وفي كتاب ليس كذا وكذا... فراجعت كتاب ليس المطبوع في مصر صفحةً صفحةً، فلم أعثر على مبتغاي فيه، مما يؤكد أن المطبوع من هذا الكتاب غير كامل، وهو كذلك حتى في طبعاته الخمس التي ظهر فيها، وأعني بها طبعة (جوزيف ديرنبورغ) للكتاب في أوروبا سنة ١٨٩٤، وطبعة الشنقيطي له في مصر سنة ١٣٢٧ هـ، وطبعته الثالثة ضمن كتاب الطرف البهية عام ١٣٣٠، وطبعة أحمد عبد الغفور عطار له بالقاهرة سنة ١٩٥٧، وطبعة محمد أبو الفتوح شريف له بالقاهرة سنة ١٩٧٥. والثابت أن «كتاب ليس» كتابٌ ضخّمٌ، قال عنه السيوطي «إنه كان في زمانه ثلاثة مجلدات» - (انظر مقالاً حول كتاب ليس لمحمود جاسم الدرويش في مجلة المورد، بغداد، مج ١٥ ع ٢ / ١٩٨٦ ص ١٨١ - ١٩٨).

أما كتاب مجالس ثعلب، وهو قسمان، وقد نشره المرحوم عبد السلام هارون بدار المعارف بمصر عام ١٩٤٨ للمرة الأولى - ويسمى أيضاً بأمالي ثعلب، أو مجالسات ثعلب - فقد سقطت منه نصوص معينة. وفي هذا الشأن يقول هارون:

«وقد نرى نصوصاً ينقلها السيوطي في الزهر عن أمالي ثعلب، ولا نجد لها أثراً في نسختنا».

والحق أن هذا المحقق قد أثبت في آخر القسم الثاني من مجالس ثعلب الذي نشره، النصوص الضائعة من المخطوطة التي أخرج عنها الكتاب، بالاعتماد على الكتب التالية: الزهر، وشرح شواهد المعني، وكلاهما للسيوطي، وخزانة الأدب، للبغدادي، ولسان العرب، لابن منظور المصري، وأمالي القالي، لأبي علي القالي، والمؤتلف والمختلف، للآمدي، وإرشاد الأريب، لياقوت الحموي، وتثقيف اللسان، لابن مكّي الصقلي.

ومن الكتب التي ظهرت منقوصة كتاب معجم الشعراء للمرزباني (٩٩٤/٣٨٤) وقد طبع مرتين طبعه (ف. كرنكو) والمرحوم (عبد الستار فراج). ومن المعروف أن هاتين الطبعتين لم تحويا من تراجم الشعراء سوى أسماء الشعراء التي تبدأ بحرف العين فما بعده... وهذا هو الجزء الذي وصل إلينا من هذا المصدر القيم، لذا صار الباب مفتوحاً لاستدراكات كثيرة على ما وصل. وقد قام المحقق الأخير للكتاب ببجهد جيّد في هذا الصدد، فأضاف إلى أصل المخطوط الذي أخرج عنه الكتاب /٢٩٨/ شاعراً ذكرت المصادر القديمة أن المرزباني أدرجه في كتابه معجم الشعراء. ثم تابع الدكتور ابراهيم السامرائي مقام به (فراج)، فأخرج كتاباً برأسه أسماء: من الضائع من معجم الشعراء، فكان مجموع استدراكاته /٢٦٤/ شاعراً. وكانت الأسماء التي ذكرها فراج هي ذاتها التي ذكرها (السامرائي). بل ووردت بفارق (٣٤) شاعراً زيادةً من عند فراج على ما عند (السامرائي). ولكن الأخير ذكر نصوص الأخبار والأشعار التي تتصل بالشاعر المستدرك، من خلال المصادر التي عاد إليها، واكتفى (فراج) بذكر اسم الشاعر فقط. أما مصادر (السامرائي) فهي أحد عشر مصدراً هي: الإصابة لابن حجر، والاشتقاق لابن دريد، وتاج العروس للزبيدي، وتهذيب تاريخ مدينة دمشق لعبد القادر بدران، وخزانة الأدب البغدادي، وفوات الوفيات لابن شاعر

الكثير، ولسان العرب لابن منظور المصري، ولسان الميزان لابن حجر، ومعجم الأدباء لياقوت، ومعجم الشعراء لياقوت أيضاً، ووفيات الأعيان لابن خلكان. هذا، وتابع الدكتور (إحسان عباس) استدراقات ذينك الباحثين، فاتمهي إلى إضافة (٨٣) شاعراً جديداً إلى معجم الشعراء لم يردوا في ما طبع منه. وقد نشر الدكتور (عباس) استدراقاته في أحد أعداد مجلة الأبحاث الصادرة عن الجامعة الأمريكية ببيروت. ورغم هذه الجهود الثلاثة التي ذكرتها، فإن الباب لم يفلق أمام الإضافات والاستدراقات. وهذا ما فعلته في مراجعتي لهذا المعجم في القسم الثاني من كتابي هذا. وإذا تركنا الشعراء، وانتقلنا إلى الشعر، فإننا نسجل باطمئنان أن الكثير من دواوين الشعر القديمة التي وصلت إلينا لم تحو، ولم تستقص، شعر الشاعر الذي تحمل اسمه، بل ضاع منها الكثير.

وليس أدل على ذلك من مجموعة الاستدراقات التي تطالعنا بها الدوريات المعنية بالتراث، والتي تضم أبياتاً لشاعر حُقق ديوانه في هذا العصر، أو جُمع، أبياتاً أخذت من كتب تراثية لم يعاينها مُحقق الديوان أو جامعها. والحق أن هذا باب رحب مُنداح، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى. وفي حوزتي جذاذات كثيرة تحوي استدراقات على أكثر دواوين الشعراء الجاهليين المطبوعة أو المجموعة. منها ماهو بيت واحد، ومنها ما يربو على ستين بيتاً. وقد سبق لي أن استدركت على ديوان الشاعر الجاهلي بشر بن أبي خازم الأسدي - الذي ألفت كتاباً في حياته وشعره - / ٣٩ / بيتاً، وذلك إضافة إلى طبعتي الدكتور (عزة حسن) للديوان بدمشق سنتي ١٩٦١ و ١٩٧٣. وكان ذلك حتى أواخر عام ١٩٨٢. وعندما دفعت كتابي عن بشر للنشر، وصار ماثلاً للطباعة، ظهر مقال للشيخ (حمد الجاسر) في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٦٣ ع ٤) بعنوان: شعر بشر بن أبي خازم الأسدي في مخطوطة عمانية مجهولة، فقرأته وفحصته وقارنتُ بينه، وبين طبعة الديوان الأخيرة، فوجدت أن هذه المخطوطة تحتوي على ما يزيد على ستين بيتاً لبشر لم ترد في أي من طبعتي الديوان بدمشق. وهي أيضاً تختلف عما أضفناه إلى الديوان. وبين هذه الزيادات قصيدتان طويلتان تقع الأولى في / ٢٦ / بيتاً، والثانية في / ٣٠ / بيتاً. فأشرت إلى ذلك في حاشية كتابي

المطبوع: بشرى أبي خازم الأسدي (ص ١٧٩ - ١٨٠). وقد طبع كتابي بيروت عام ١٩٩١.

ومن سوء الطالع أن ديوان بشرى قد طبع بعد سنة ١٩٩١ مرتين اثنتين، أحدهما بتحقيق (مجيد طراد) بدار الكتاب العربي ببيروت، وثانيهما طبعة ثالثة بتحقيق الدكتور (عزة حسن) بدار الشرق العربي في حلب وبيروت عام ١٩٩٥. وهاتان الطبعتان لم تحتويا زيادات الديوان التي أشرت إليها من قبل.

وكذلك تمكنت في أطروحتي للدكتوراه، التي جمعت فيها أشعار أربعين شاعراً جاهلياً، سبقوا امرأ القيس الكندي، أو أدركوا طرفاً من حياته، أن أستدرك على ما جمعه الدكتور (حسن باجودة) من شعر لأحيحة بن الجلاح، وهو أحد شعرائي الأربعة، تمكنت أن أستدرك / ١٦ / ستة عشر بيتاً، بعد أن بلغت مصادر شعره عندي أكثر من ثلاثة أضعاف مصادر الدكتور (باجودة) - انظر (الشعراء الجاهليون الأوائل ص ٤٣٧).

وعلى صعيد شعر القبائل العربية التي لم يصل إلينا منها سوى شعر قبيلة هذيل، الذي صنعه أبو سعيد السكري (٢٧٥ / ٨٨٨) نملك الجزم بأن هذا الديوان ليس كل ما قاله شعراء هذيل في الجاهلية والاسلام، وخاصة أنهم كانوا نحو ثمانين شاعراً. ومجموع أشعار شعراء هذيل المطبوعة يكاد لا يبلغ ثلاثة آلاف بيت، في حين كان الإمام الشافعي وحده يحفظ عشرة آلاف بيت لهذيل بإعرابها وغريبها ومعانيها. وقد استدرك أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢/١٠٠١) على صنعة السكري لديوان هذيل، فألف كتاباً سماه التمام في تفسير أشعار هذيل مما أغفله أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري، وحجمه خمسمئة ورقة بل يزيد على ذلك (انظر مصادر الشعر الجاهلي، لناصر الدين الأسد ص ٥٦٢ - ٥٦٣).

هذا، وقد كثرت الاستدراكات على ما ينشر من دواوين لشعراء العربية القدامى في زماننا، فنشر الدكتور (رضوان محمد حسين النجار) عدة أبحاث بعنوان: «المستدرك على دواوين الشعراء العرب المطبوعة»، في مجلة معهد المخطوطات العربية (مج ٣٠ ح ١ و ٢) (مج ٣١ ج ١ و ٢).

وبلغ عدد الشعراء الذين استدرِك على دواوينهم المطبوعة خمسة وأربعين شاعراً، كان بينهم هؤلاء الشعراء: حُمَيْد بن ثور، والراعي النُمَيْري، والقحيف العقيلي، والغزدي... الخ. وبلغ مجموع ما استدرِكه الدكتور (النجار) على شعر حميد بن ثور وحده (١٨٧) بيتاً - (مجلة معهد المخطوطات مج ٣٠ ج ٢ ص ٦٩٤).

وكان جل اعتماده في ذلك على مخطوطة منتهى الطلب في أشعار العرب، لمحمد بن المبارك بن الميمون، وقد تعقب الدكتور (شاكر الفحام) بعض جهود الدكتور (النجار) هذه في مقالة له نشرها في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٦٣ ع ٣) مُدَقِّقاً ومصححاً. ولسنا هنا بصدد تفصيل هذه التعقبات والتصحيحات.

ولما نُشر ديوانُ أبي الفتح البُستي (حوالي ٤٠٠ / ١٠٠٩) ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٩، نشر الدكتور (حاتم الضامن) استدرِكاً عليه في مجلة المجمع (المجلد ٦٦ ع ٤) بلغ / ١٥٠ / بيتاً. ثم استدرِك الدكتور (هلال ناجي) على هذا الديوان ذاته (٢٥٦) بيتاً، نشرها جميعاً في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٧٠ ع ١). وكان الدكتور (ناجي) نفسه قد نشر في سنة ١٩٨٠ بحثاً بعنوان: المستدرِك على صناع الدواوين، في المجلد (٣٢ ج ١ و ج ٢) من مجلة المجمع العلمي العراقي، استدرِك فيه آتخذ على ما طبع من دواوين: للبُستي، والحُسَيْن بن الضحاك، وابن طباطبا، وابن مِيادة، والكميت بن زيد، والحمامي. وذلك بالعودة إلى مصادر مخطوطة أو مطبوعة لم يولَّ إليها أولئك الصنَّاع للدواوين المذكورة.

وانسجماً مع نهج الاستدراكات على الدواوين المطبوعة نشر الدكتور (طاهر الحمصي) جزءاً من ديوان صفي الدين الحلبي بعنوان: من ديوان الثالث والثاني والمعالِي والمعاني، لم يرد في مطبوعة الديوان. وذلك بالعودة إلى نسخة مخطوطة توجد في المكتبة الظاهرية (مكتبة الأسد الآن) ضمن مجموع رقمه / ٣٣٦١. وأبيات الحلبي هذه تقع في عشرين باباً، في كل باب بيتان أو ثلاثة. وقد أحصى الدكتور الحمصي مجموع هذا الشعر الذي أحل به ديوان الحلبي المطبوع فبلغ / ١٦١ / بيتاً.

ولا نرى بأساً، ها هنا، في أن نسوق نموذجاً من هذه الأشعار الجديدة، من باب التزهّد والعفة والتجرد، يقول الحلبي مثلاً:

سوقَ حدودَ الله لآفاتٍ محرماً إذا شئت أن تحظى بجنابِ الغُلبا
وإن أمكنت يوماً مِنَ الدهرِ لذةً فعزها، ولا تنسَ النصيبَ من الدنيا

(انظر مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة مج ٣٨ ج ١ ص ١٠٩ - ١٢٧).
وقد وقع في يدي أخيراً كتاب اسمه: المنتخب في محاسن اشعار العرب، منسوب للثعالبي، صنعه مؤلف قديم مجهول من القرن الرابع الهجري. وحققه الدكتور (عادل سليمان جمال) وطبعه في القاهرة عام ١٩٩٣، في جزأين. وهو يحوي (٩٤) قصيدة من عيون الشعر العربي، ومقطوعتين. وبعض هذه القصائد مما انفرد به هذا الكتاب، وبعضها مما تزيد أبياته زيادةً بيّنة عما في المصادر ودواوين الشعراء. ومن تلك التي انفرد بها هذا «المنتخب»، أرجوزة أسامة بن الحارث الهذلي، وعدتها ثمانية أبيات، ولم ترد في ديوان الهذليين، ولا في شرح الديوان. ومن تلك التي بها زيادات ملحوظة عما في الدواوين والجامع: جيمية للشماخ، وتزيد (١٤) بيتاً عما هي عليه في ديوان الشماخ، وسينية لعمر بن معدني كرب، وتزيد (١١) بيتاً عما هي عليه في ديوانه، ومعلقة عنزة بن شداد، وفيها (٢٢) بيتاً زائداً عما هي عليه في سائر شروح المعلقات، وهناك زيادات على أشعار كل من عمرو بن الأهتم، وعبد الله بن رواحة، والمخيل السعدي، والخزيمي، ومروان بن أبي حفصة، وسُحيم عبد بني الحساس، وكثير عزة، وجميل بثينة، وابن الدمينة.... الخ.

وهناك زيادات أخرى على قصائد أخرى نعزف عن إيرادها جميعاً، خشية الإطالة (انظر مقدمة المنتخب ص ٢٠ - ٢٤).

وفي مقال للدكتور نوري حمودي القيسي نشره في مجلة المورد (مج ١٨ ع ٣ لعام ١٩٨٩) استدرك القيسي أشعاراً على سبعة دواوين شعرية مطبوعة، كان أولها: ديوان محمود الوراق، بتحقيق عدنان راغب العبيدي - بغداد ١٩٦٩، وثانيها: ديوان صالح بن عبدالقدوس، ونشره عبد الله الخطيب ببغداد سنة ١٩٦٧، وشعر سابق البربري، وجمعه

ونشره بدر أحمد ضيف، وشعر عبد الصمد ابن المعدل، ونشره زهير غازي زاهر، ببغداد سنة ١٩٧٠، وشعر جحظة اليرمكي، ونشره مزهر السوداني ببغداد سنة ١٩٧٧، وشعر إبراهيم ابن العباس الصولي، وأخرجه عبد العزيز الميمني ضمن كتابه: الطرائف الأدبية، بالقاهرة عام ١٩٣٧، وشعر العطوي، وجمعه وحققه محمد جبار المعيد ونشره في مجلة المورد، ثم ضمن كتابه: « شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري ». وقد فعل القيسي ذلك كله من خلال عودته إلى كتاب تراثي هام، اسمه « الدر الفريد وبيت القصيد »، لابن أيدمر (١٣٠٦/٧٠٦) كان البحثة فؤاد سر كيس قد نشره مصوراً. والمعروف أن كتاب ابن أيدمر هذا، يحوي (٢٠) عشرين ألف بيت شروود قائم بنفسه فذ محكم مضبوط منقح على شروط فصيح اللفظ صحيح المعنى واقع التشبيه جيد الكتابة. وكان المؤلف حين يذكر البيت يعقبه بالقصيدة التي ينتمي اليه ويذكر خبره وخبر صاحبها. وهذا تأليف مُمَيِّز في بابهِ.

وقد ذكر هلال ناجي أنه ونوري حمودي القيسي قد أصدرنا الجزء الأول من كتابهما: المستدرک على صنّاع الدواوين عن المجمع العراقي سنة ١٩٩٣، وما زال الجزء الثاني ناجزاً مرقوناً ينتظر الطبع. ومن المتوقع أن يحوي الجزآن ما سبقته الإشارة اليه هنا. وقد أضاف هلال ناجي أن هذا الاستدراك قد تناول خمسين ديواناً محققاً ومجموعاً مما حققه أساتذته مختصون، مما فيها أعمال المؤلفين كليهما، ناجي والقيسي (انظر مجلة معهد المخطوطات العربية مج ٣٩ ج ١ لعام ١٩٩٥ ص ١٦٥).

وأشار هلال ناجي أن للقيسي استدراقات أخرى كثيرة على أعمال علمية من بينها استدراقات حول كتاب: معجم الشعراء في لسان العرب، للدكتور ياسين الأيوبي. وقد نشرها في خمس حلقات في (مجلة المجمع العلمي العراقي (مج ٣١ ج ٤ ومج ٣٢ ج ١ و ٢ ومج ٣٢ ج ٣ و ٤ ومج ٣٣ ج ٢ و ٣ ومج ٣٤ ج ٢، وذلك ما بين الأعوام ١٩٨٠ و ١٩٨٣).

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى النقص الواقع في مانشر من مجموعة شعرية قديمة هامة هي الأصمعيات. وهي قصائد اختارها الأصمعي (٢١٣ / ٨٣١ م) لهارون الرشيد ليؤدب بها ابنه، فنسبت إلى مختارها. وقد طبعت هذه المجموعة في القاهرة بتحقيق المرحومين

أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، فحاعات في (٩٢) قصيدة ومقطوعة. ولاشك في أن هذه القصائد والمقطوعات ليست كل ما اختاره الأصمعي، قبل ألف ومئتي عام. ودليلنا على ذلك أن ثقاتاً من المتقدمين ذكروا أشعاراً على أنها من اختيارات الأصمعي، وأخلت بها الطبعة المشار إليها آنفاً، وقد استدرك المرحوم (أحمد راتب النفاخ) في حاشية له استدراقات أتاح الدكتور (أحمد الطرابلسي) نشرها في كتابه: نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب (دمشق ١٩٦٩ ص ١٠٦ فما بعدها) - وقد استدرك المرحوم النفاخ مجموعة من الأشعار ذكر القدماء أنها من الأصمعيات، ولم ترد في المطبوع منها وهي:

١ - أبيات تنسب إلى امرئ القيس بن عابس الكندي، وإلى الفُند الزماني، وأولها:

بِأَمَلِكُ يَسْأَلُنِي صَلِيْبِي وَذُرِّي عَـذْلِي

فقد قال ابن قتيبة: وهذا الشعر مما اختاره الأصمعي بحفّة رويّه (الشعر والشعراء - طبعة دار المعارف ص ٨٥).

٢ - أبيات أولها:

بَرَقْتُ مِنَ الْخَوَارِجِ لَسْتُ مِنْهُمْ مِنْ الْعَرَالِ مِنْهُمْ وَابْنِ بَابِ

وساقها المبرد في الكامل ص ٩٢١ وعزا للأصمعي وضعها في كتاب الاختيار.

٣ - بيت في لسان العرب - مادة (ودع) وقد نقل ابن منظور عن ابن بري أن الأصمعي أنشده في الأصمعيات.

٤ - قصيدة رائية، منها:

وَقَلْنَ عَلَى الْفَرْدوسِ أَوَّلَ مَشْرَبِ أَجَلْ، حَبِيرٍ إِنْ كَانَتْ أَيْبَحَتْ دَعَائِرُهُ

وذكر البغدادي في خزنة الأدب (٤: ٢٣٥ ط بولاق) أن البيت من قصيدة لمضرس لأسدي، أوردها الأصمعي في الأصمعيات.

٥ - قصيدة دالية لعبيد بن الأبرص، منها قوله:

قد اترك القرن مصفراً أناملهُ كأن الثوابة مُجَّتْ بقرصادٍ

فقد قال البغدادي في خزنة الأدب (٤: ٥٠٣ ط بولاق): إن البيت من قصيدة أوردتها الأصمعي في الأصمعيات.

وأضاف المرحوم (النفاح) إلى ماسبق إشارة إلى منشئه (معظم حسين) سنة ١٣٥٧ من قصائد لم تنشر في المفضليات، والأصمعيات، تحت عنوان نُجْبَة من كتاب الاختيارين. ولما نشر الدكتور (فخر الدين قباوة) الجزء الثاني من كتاب الاختيارين، للأخفش الأصغر (٣١٥ / ٩٢٧) بدمشق عام (١٣٩٤ / ١٩٧٤) وهو الباقي من هذا الكتاب وجد فيه (١٤) قصيدة لم ترد في الأصمعيات، وهي القصائد ذوات الأرقام (٢١، ٣٩، ٣١، ٥٥، ١٥، ٨، ٢٨، ١٦، ٢٠، ٤٥، ٤٦، ٤، ٤٩، ٢٦) في كتاب الاختيارين. زد على ذلك سبع قصائد أخرى هي ذوات الأرقام: (٩١، ٦٧، ٦٩، ٦١، ٦٢، ٦٨، ٧٠) من كتاب الاختيارين.

ومما وقعنا نحن عليه، ويدخل في باب الاستدراك على الأصمعيات، ولم يذكر فيما سبق قصيدة للشاعر الجاهلي (الحادرة) تقع في (١٥) بيتاً، وهي القصيدة رقم (٤) في ديوانه ص ٦٩، بتحقيق ناصر الدين الأسد. وهذه أشير في تقديمها إلى أنها «أصمعية». ولكنها لا توجد في مطبوعة الأصمعيات. ومطلع قصيدة الحادرة :

أطاعنةً ولا تودعنا هنئدُ لتحنننا، عزَّ الصدف والكئدُ

وكذلك عثرنا في ديوان المتلمس الضبعي، بتحقيق حسن كامل الصيرفي (القاهرة ١٣٩٠ / ١٩٧٠) على قصيدة وصفت بأنها (أصمعية) و (مفضلية). وعلق المحقق عليها بقوله «لم ترد هذه القصيدة فيما بين أيدينا من المفضليات والأصمعيات، ولم ترد في منشور من كتاب الاختيارين» (الديوان ص ١٦٣) ومطلع قصيدة المتلمس هذه:

صَبَا مِنْ تَعْدِ سَلْوِيهِ فُوَادِي وَأَسْمَحَ لِلْقَرِيْبَةِ بِانْقِيَادِ

وهي تقع في (٨) ثمانية أبيات.

ووقعنا في معجم التكملة والذيل والصلة، للصَّغاني، على أربعة أشطار من الرجز وردت في مادة (شتت ج ١ ص ٣٢٠) أولها:

جاءت معاً وأطرفت شتينا

وكان الجوهري في الصحاح (شتت) عزا بيتين منها إلى (رؤبة)، فعقَّبَ الصَّغاني على الجوهري في الصحاح بقوله: «وليس لرؤبة على هذا الروي شيء، وإنما هي من الأصمعيات. والإنشاد مداحل» ثم ساق الأشطار الأربعة. ولدى مقارنة هذه الأشطار بما حوته الأصمعيات لم نجد لها فيها.

ولمة كتب أخرى كثيرة لم ترد في بحثنا هذا، نشرت ناقصة، ويصعب أن نتقصاها جميعاً، ومنها على سبيل المثال، كتابا أبي حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، والإشارات الإلهية، وكتاب الأنوار ومحاسن الأشعار، للشمشاطي، وقد عثر الدكتور إحسان عباس على نصوص منه في كتاب بغية الطلب، لابن العديم (انظر شذرات من كتب مفقودة ص ٣٨٣) ومنها كتاب المناقب الزيدية في أخبار الملوك الأسدية، بتحقيق الدكتورين صالح موسى الدرادكة، وجمد عبد القادر خريسات (عمان ١٩٨٤).

وهكذا نخلص إلى أن تراثنا بحر موجٍ ويلمُّ متلاطم، والغوص فيه يؤتي دون ريب ثمراً يانعة، وجنى وفيراً، ولكننا في ضوء ماتقدم نحتاط فنقول: إنه لا يصح أن نعلي شأن الاستدراك على شأن المبادرة، فهذا مما لا يجوز. بيد أن الأمثلة السابقة كانت تستهدف لفت الانتباه إلى أن احتمالاً قائماً بأن النقص ربما يتور ما ينشر وينداع بين الناس، وأن جهود الباحثين في الإضافة والإكمال والاستدراك لها قيمتها. فهي كما ذكرنا قد تُعدل أحكاماً أو تبطل نتائج، أو قد تكون من جهة أخرى، صورة ما عن أثر مفقود، أو مصنف ضائع، وهي تضيء، في كل الحالات، معرفةً جديدةً، وعلماً إضافياً، لا يصح التضحية بهما بحال من الأحوال.

مسرد الكتب المفقودة أو الناقصة المشار إليها في البحث السابق على

حروف المعجم

- الأحداث، لأبي جعفر محمد بن الأزهر.
- أخبار البرامكة، لأبي جعفر، عمر بن الأزرق الكرمانى.
- الاختيارين، للأخفش.
- الأربعة في أخبار الشعراء، لأبي هفان المهزومى.
- الاستظهار في التاريخ على الشهور، للقاضي أبي القاسم علي بن محمد الرحى المعروف بابن السمنانى.
- الإشارات الإلهية، لأبي حيان التوحيدى.
- الأصمعيات، للأصمعي.
- الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدى.
- الأنوار ومحاسن الأشعار، للشمشاطى.
- الأوراق، للصولى.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى.
- تاريخ العُظمى، لأبي عبد الله علي بن محمد التنوخى الحلبي.
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للثعالبي.
- دمية القصر وعصرة أهل العصر، للباخرزى.
- دواوين الشعراء التالية أسماءهم أو (أشعارهم حسب العنوان) :
 - ديوان إبراهيم بن العباس الصولى.
 - ديوان ابن الدمينة.
 - ديوان أبو الفتح البسى.
 - ديوان أحيحة بن الجلاح الأوسى.
 - ديوان بشر بن أبي خازم الأسدى.

- ديوان جَحَظَةَ اليرمكي.
- ديوان جميل بُيُنة.
- ديوان الحفري.
- ديوان سابق اليربري.
- ديوان سحيم عبد بني الحسحاس.
- ديوان صالح بن عبد القدوس.
- ديوان صفى الدين الحلبي.
- ديوان عبد الصمد بن المعدل.
- ديوان العطوي.
- ديوان عبد الله بن رواحة.
- ديوان عمرو بن الأهم.
- ديوان كثير عزة.
- ديوان محمود الوراق.
- ديوان المخيل السعدي.
- ديوان مروان بن أبي حفصة.
- الديرة ، للشمشاطي .
- ديوان شعر هذيل، صنعة أبي سعيد السكري.
- الربيع، لغرس النعمة، أبي الحسن محمد بن هلال.
- سير الثغور، لأبي عمرو عثمان بن عبد الله الطرسوي.
- طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي.
- كتاب ليس، لابن خالويه.
- مجالس ثعلب، لثعلب.
- معاني الشعر، لابن السكيت.
- معجم الشعراء في لسان العرب، لياسين الأيوبي .

- معجم الشعراء، لياقوت الحموي.
- المفاوضات، لأبي الحسن علي بن محمد بن نصر الكاتب.
- المناقب المزيديّة في أخبار الملوك الأسديّة، للشيخ الرئيس أبي البقاء هبة الله الحلبي.
- الموازنة، للآمدي.
- النبات، لأبي حنيفة الدينوري.
- نزهة الناظر، لكمال الدين أبي محمد عبد القاهر بن علوي بن المهنا.
- نشوار المحاضرة، للتونخي.
- النوادر في اللغة، لأبي زيد الأنصاري.
- الورقة، لابن الجراح.
- اليتيمة، للثعالبي.



المتابعة و التتبع في كتب التراث

لأن المتابعة و التتبع و التدقيق والتصحيح في أي جانب من جوانب الحياة مواقف هامة وإجراءات أساسية بها تُستكمل القضايا، و تستخلص الفوائد و النتائج، وتُصحح الأخطاء، و تقال العثرات .

و نقصد بالمتابعة و التتبع ان يقوم كتاب على كتاب، أو يدور حوله، أو عليه، أو على أشياء منه، شرحاً أو تلخيصاً أو مقارنة أو استنباطاً أو استيفاء أو تنقيحاً أو تصحيحاً. وفي تراثنا الباذخ نزوع عظيم لنهج المتابعة و التتبع لغرض من الاغراض السابقة. وفي هذا النزوع انسجام مع القول المأثور (أحبُّ الاعمالُ إلى الله أتقنها). و قد لاحظت هذه الظاهرة لدى وقوفي على كثير من كتب التراث التي ضربت في هذا الاتجاه. و لست هنا في معرض استيفاء هذه المسألة التي يمكن أن تُفرد لها صفحات كثيرة جداً، وتصنف فيها مؤلفات عديدة متكاثرة، فأنا أشير و أدلل و أنبه الأنظار، ولا أستقصي جميع الكتب الداخلة في نطاق المتابعات والشروح والإكاملات والتدقيقات والتصويبات.

ولو وقفنا قليلاً عند كتاب العرب الأول والأعظم المنزل على النبي العربي محمد بن عبد الله ﷺ أعني القرآن الكريم، لوجدنا علوماً كثيرة قامت حوله تتابع غريبه، وتفسر غوامضه، وتدرس أسباب نزوله، وتستخلص أحكام الفقه فيه، وتعربه، وتوضح أسباب إعجازه، وتدرس قراءاته، والمعرب والأعجمي فيه، وغير ذلك من علوم القرآن التي أوصلها لسيوطي في كتابه التحبير إلى مئة علم .

ولو أخذنا غريب القرآن مثلاً، لوجدنا العرب يؤلفون فيه الجُمَّ الغزير من المصنفات، فمن أوائل مصنفاتهم فيه مسائل نافع بن الأزرق، وهي مجموعة من الأسئلة كان يوجهها ابن الأزرق إلى عبد الله بن العباس - حبر الأمة (٦٨٧/٦٨) حول غوامض القرآن فيجيبه عليها

ابن العباس . وقد حقق هذه المسائل وطبعها في بغداد سنة ١٩٦٩ الدكتور إبراهيم السامرائي .

وَمِمَّنْ أَلَفَ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ أَيْضاً أَبَانُ بْنُ تَغْلِبِ الْبَكْرِيِّ (٧٥٨/١٤١) ومحمد بن السائب بن بشر الكوفي (٨١٠/١٤٦) وأبو فيد مؤرخ السدوسي (٨١٠/١٩٥) وأبو جعفر بن أيوب المقرئ من أهل القرن الثاني الهجري وأبو عبد الرحمن البيهقي المقرئ (٨٥١ / ٢٣٧) ولكل من هؤلاء كتاب اسمه غريب القرآن، كما صنف في تفسير غريب القرآن أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبهاني (٨٨٩ / ١٧٩) وابن قتيبة (٨٨٩/٢٧٦) وغيرهما.

ومن التفاسير التي تناولت القرآن عامة، لا غريبه فقط، يمكن للمرء أن يعد العشرات، ليست تفاسير الطبري والقرطبي والخازن وابن كثير وأبي حيان الأندلسي والسيوطي إلا بعضاً منها .

وقد أثار القرآن الكريم في علوم العربية تأثيراً عميقاً حتى إن أبا عمرو بن العلاء (٧٧٠/١٥٤) قال : (كل العلوم العربية علوم دين)، وأبرز علم من هذه العلوم هو علم النحو. وفي هذا الميدان أنتجت القرائح العربية فكراً نحوياً عظيماً. وربما كان كتاب الكتاب لسيبويه (٧٩٦ / ١٨٠) الذي نعته الناس بقرآن النحو أقدم وأعظم كتاب نحوي (انظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص ٨٧) و يليه في الأهمية أربعة كتب نحوية أخرى هي:

١ - الإيضاح لأبي علي الفارسي.

٢ - الكافية لابن الحاجب.

٣ - المفصل للزخشري.

٤ - التسهيل لابن مالك.

وقد تُنَوِّت الكتب الخمسة المذكورة بالشروح والتعليقات بغزارة لافتة النظر، فبلغت شروح كتاب سيبويه والتعليقات عليه (٥٥) شرحاً وتعليقاً. وبلغت شروح الإيضاح للفارسي (٣٠) شرحاً. وبلغت شروح المفصل للزخشري (٩٤) شرحاً. أما الكافية لابن

الحاجب فبلغت شروحها (١٤٢) شرحاً بالعربية، وثلاثة بالتركية، وسبعة بالفارسية، أما مختصراتها فهي خمسة مختصرات، ثم نظمت في تسع منظومات، وأعربت في ستة أعراب... هذا وبلغت شروح التسهيل لابن مالك (٦٦) شرحاً - (انظر مقدمة محمود الطناحي لكتاب الشعر، أو شرح الأبيات المشككة الإعراب للفارسي، القاهرة ١٩٨٨ ص ١١٥ - ١١٧).

ولو دققنا أكثر في تاريخ كتاب سيبويه (الكتاب) لوجدنا أن هذا الكتاب لقي، منذ ظهوره، حظاً سعيداً لدى العلماء، فقد اجتمع على خدمته بين شرح وتعليق وتفسير لأبياته أو كلام على أبيته، منذ القرن الثالث الهجري وحتى التاسع، طائفة كبيرة من العلماء المشاركة والمغاربة والأندلسيين والمصريين .

فممن شرح كتاب سيبويه أبو الحسن سعيد بن مسعدة المعروف بالأخفش (٨٣٠/٢١٥) وأبو عثمان بكر بن محمد المازني (٨٦٢ / ٢٤٨) وأبو بكر السراج (٩٢٨/٣١٦) وابن درستويه (٩٥٨ / ٣٤٧) وأبو سعيد السيرافي (٩٩٦ / ٣٨٦) وأبو الحسن الرماني علي بن عيسى (٩٩٤ / ٣٨٤) وأبو العلاء المعري (١٠٥٧ / ٤٤٩)، والزحشري (١١٤٣/٥٣٨) وابن خروف أبو الحسن علي بن محمد الأندلسي (١٢١٢/٦٠٩) واسم كتابه هذا (مفتح الأبواب في شرح غوامض الكتاب) وابن الحاجب أبو عمرو عثمان بن عمر المصري ثم الدمشقي (١٢٤٨ / ٦٤٦) وأبو حيان الأندلسي (١٣٤٤ / ٧٤٥).

وممن شرح مشكلاته ونكته وأبيته: أبو عمر صالح بن إسحق الجرمي (٨٣٩/٢٢٥) ومن كتبه في هذا الباب (تفسير أبيية الكتاب) و (غريب سيبويه). وأبو حاتم السجستاني (٨٦٨ / ٢٥٥) وله كتاب باسم (تفسير أبيية الكتاب) ولأحمد يحيى نعلب (٩٠٣ / ٢٩١) كتاب بالعنوان السابق نفسه. ولابن درستويه كتاب بعنوان (أغراض كتاب سيبويه) و(المسائل المفردة من كتاب سيبويه) ولأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي كتاب اسمه (الاستدراك على كتاب سيبويه في كتاب الأبنية والزيادات) .

وَمِمَّنْ شرح شواهد الكتاب ابن السيرافي (٣٨٥ / ٩٩٥)، وقد طبع هذا الكتاب
 ق بتحقيق الدكتور محمد علي السلطاني، والأعلم الششمري يوسف بن سلمان
 /١٠٨٣) وشرحه مطبوع على هامش كتاب سيويه بمطبعة بولاق.
 ومن اختصر الكتاب: أبو البقاء العكبري (٦١٦ / ١٢١٩) ومختصره يُسمى (لباب
 ٤). وكذلك أبو حيان الأندلسي.

وَمِمَّنْ أَلَّفَ في الاعتراض عليه محمد بن يزيد المُبرِّد (٢٨٥ / ٨٩٨) وله كتاب
 (الرَّدُّ على سيويه) وابن الطراوة سليمان بن محمد الملقبي (٥٢٨ / ١١٣٣) واسم
 (المقدّمات على الكتاب) وابن الضائع (٦٨٠ / ١٢٨١) وله كتاب رَدٌّ فيه على
 ابن الطراوة. وللأسود الغندجاني (كان حيّاً سنة ٤٣٠ / ١٠٣٨) رَدٌّ على
 في شرحه لأبيات سيويه - (انظر مقدمة عبد السلام هارون لكتاب سيويه ج ١ ص
 ٤١-٤٢).

وإذا انتقلنا إلى كتاب آخر في اللغة أَلَفَهُ ابن السكِّيت (٢٤٤ / ٨٥٨) وهو كتاب
 ح المنطق، وقد طبع في زماننا بتحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، وجدنا
 كتاب ينال عناية واهتماماً كبيرين من اللغويين الذين قرأوه بعد ظهوره، فألَّفَ حوله
 سور الأزهرى (٣٧٠ / ٩٨٠) كتاباً سماه (تفسير إصلاح المنطق) وكذلك أَلَّفَ فيه أبو
 علي بن أحمد ابن سيده الأندلسي (٤٥٨ / ١٠٦٥) وشرحه أبو العباس أحمد بن
 لمرسي (٤٦٠ / ١٠٦٧) واختصره الوزير المغربي (٤١٨ / ١٠٢٧) ومجد الدين أبو
 علي بن محمد بن هبة الله (٥١٦ / ١١٢٢) وأبو الفتح ناصر بن عبد السيد
 يمي المعروف بالمُطرزِي (٦١٠ / ١٢١٣) وأبو عبد الله محمد بن عبد العزيز التجيبي
 / ١٢٢١) وهذَّبَهُ أبو علي الحسن بن المظفر النيسابوري (٤٤٢ / ١٠٥٠)، وكذلك
 تيريزي (٥٠٢ / ١١٠٨) كتاب (تهذيب إصلاح المنطق) الذي حَقَّقَهُ ونشره الدكتور
 دين قباوة سنة ١٩٨٣ ببيروت. ورَتَّبَ أبو البقاء العكبري (٦١٦ / ١٢١٩) كتاب
 ح المنطق على حروف المعجم وسمَّى مصنّفَهُ هذا (المشوف المُعلَّم في ترتيب إصلاح
 على حروف المعجم) وقد حَقَّقَهُ وطبعه الأستاذ ياسين السوّاس.

وهناك كتاب للزجاجي استدرك فيه على ابن السكيت في إصلاح المنطق، فنهض أبو سعيد عبد الرحمن محمد المعروف بابن دوست (٤٣١ / ١٠٣٩) فألّف ردّاً عليه، وكذلك قام أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب بتأليف كتاب ردّ فيه على الخطيب التبريزي صاحب كتاب (تهذيب إصلاح المنطق) المشار إليه سابقاً. (انظر معجم المعاجم العربية لأحمد الشرقاوي إقبال ص ٧٧-٧٩).

وإذا انتقلنا إلى الحركة المعجمية العربية، وهي باب يحنّ للعرب أن يفاخروا فيه ويباهوا، فإننا نعاين من المصنفات فيها ما يبعث على الدهشة والإعجاب الشديدين، وربما كان أول معجم وصل إلينا (معجم العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ / ٧٩١) وهو معجم رُتبت فيه المواد حسب مخارج الحروف. وكان صاحبه باقعة عصره، أسس علماً من علوم العربية هو علم العروض. وقد طبع (معجم العين) في تسعة مجلّدات بتحقيق الدكتورين مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي.

وقد حظي (معجم العين) بعناية مؤلفين كثير، كان منهم من تناوله بالاختصار أو بالاستدراك أو التكملة أو الانتقاد، أو الرد على المزاعم والاجتهادات الواردة فيه. ومن ذلك مثلاً كتاب (المدخل إلى كتاب العين) لأبي الحسين النضر بن شميل المازني (٢٠٤ / ٨١٩) وكتاب (تلقيح العين) لأبي غالب تمام بن غالب القرطبي المعروف بابن التبان (٤٦٣/١٠٧٠) و (مختصر العين) لأبي الحسن بن القاسم السنجاني الخراساني، ومثله لأبي بكر محمد بن حسن الزبيدي (٣٧٩ / ٩٨٩) ومثله لأبي الفيض محمد بن محمد المعروف بالمرتضى الزبيدي (١٢٠٥ / ١٧٩٠) صاحب (تاج العروس). ومن تلك الكتب أيضاً (فائت العين) لأبي عمّر محمد بن عبد الواحد الزاهد المطرّز الملقّب بـغلام ثعلب (٩٦٥/٣٥٤)، وكتاب (التكملة) لأبي حامد أحمد بن محمد البشتي المعروف بالخارزنجي (٣٤٨ / ٩٨٩) و (المستدرك لما أغفله الخليل) لأبي الفتح الجهضمي البصري (١٨٧ / ٨٠٢) و (الاستدراك على العين) لأبي فيد مؤرّج السدوسي (١٩٥ / ٨١٠) و (الاستدراك على الخليل في كتاب العين) لأبي طالب المفضّل بن سلمة الكوفي (٣٠٠ / ٩١٢) و (ما أغفله الخليل في كتاب العين وما ذكر أنه مهمل وهو مستعمل وضده) لأبي عبد الله الكرمانى

الوراق (٣٢٩ / ٩٤٠) و (الاستدراك على الخليل في المهمل و المستعمل) لأبي تراب (القرن الثالث الهجري) و (غلط كتاب العين) لأبي محمد عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي (٤٢٠ / ١٠٢٩).

و توبعت السلسلة في النقد والرد على النقد، فكان لدينا من ردّ على من انتقد الخليل، مثل أبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة العقلي الملقب بنفطويه (٣٢٣ / ٩٣٤) وله كتاب بعنوان (الرد على المفضل بن سلمة في نقضه على الخليل) ومثل أبي محمد عبد الله ابن جعفر المعروف بابن درستويه وله كتاب باسم (الردّ على المفضل في الردّ على الخليل) وثمة من توسّط بين الناقد، ومَنْ نَقَدَهُ الناقد، فألّف ابن دريد (٣٢١ / ٩٣٣) في هذا الميدان وفي الموضوع ذاته كتاباً سمّاه (التوسّط)... والحقيقة أن أكثر هذه الكتب ضائعة لم تطبع، ولكن كتب التراجم عزتها إلى أصحابها - (انظر معجم المعاجم، لأحمد الشراوي إقبال ص ٢٠٥-٢٠٦) .

وإذا انتقلنا إلى معجم آخر هو (الصحاح) للجوهري (نحو ٤٠٠ / ١٠٠٩) فإننا نجد حركة تأليفية كبرى قامت حوله. منها ما كان حواشي عليه، ومنها ما كان تكملات له، ومنها ما هو مختصرات له، أو انتقادات، أو تهذيب، أو نَظْم له.

فمن قبيل الضرب الأول كتاب الحواشي على الصحاح لأبي القاسم الفضل بن محمد القصباني (٥١٥ / ١٢٢١) والتنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح لأبي محمد عبد الله بن بُرِّي (٥٨٢ / ١١٨٦) المعروف بحواشي ابن بُرِّي، وقد حقق هذا الكتاب وطبعه مصطفى حجازي و عبد العليم الطحاوي ونشراه في جزأين في مجمع اللغة العربية بمصر بين سنتي ١٩٨٠ و ١٩٨١، والحاشية على الصحاح لأبي العباس أحمد بن محمد الأزدي المعروف بابن الحاج (٦٥١ / ١٢٥٣).

ومن التكميلات: التكملة والذيل والصلة للصاغاني (٦٥٠ / ١٢٥٢) وقد نُثِر في ستة مجلدات بين سنتي ١٩٧٠ و ١٩٧٩ بمصر. وهذا كتاب هام للغاية لأنه استدرك على الجوهري ما فاتته من اللغات، واستتم ما أغفله من المعاني، و تعقّب أوهامه وما أخطأ فيه بالتصويب، واعتمد في كل ذلك على مصادر بلغت ألف مصدر. ورغم ذلك فإن الصاغاني

هذا المصنف العظيم لم يتخلَّ عن صفة العالم الحقيقي، أعني التواضع والورع، فراح يكتب في مقدمة كتابه ما نصه: « هذا كتاب جمعتُ فيه ما أهمله أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد الجوهري - رحمه الله - في كتابه، وذيلتُ عليه وسميته كتاب (التكملة والذيل والصلة) غير مدَّع استيفاء ما أهمله واستيعاء ما أغفله، ولا يكلف الله نفساً إلاَّ وسعها، وفوق كل ذي علم عليم، وكم ترك الأول للآخر ؟؟ ». وهذا بحق تواضع لافت للاتباه.

ومن مختصرات (الصحاح): كتاب مختار الصحاح لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي (٦٦٦ / ١٢٦٧) وهو أشهر مختصرات الصحاح وأكثرها تداولاً. وفيه زيادات على ذلك المعجم من (تهذيب اللغة) للأزهري ومن غيره. ومن المختصرات (صفو السراج من مختار الصحاح) لأبي الوجاهة عبد الرحمن بن عيسى العمري (١٠٣٧/١٦٢٧). و(مختار مختار الصحاح) لداود بن محمد القرصبي (١١٦٠ / ١٧٤٧).

ومن الانتقادات عليه (فيد الأراهد من الفوائد) لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري (٥١٨ / ١١٢٤) و (الإصلاح لما وقع من الخلل في الصحاح) لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (٦٤٦ / ١٢٤٨) و (نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهري من الوهم) لصلاح الدين أبي الصفاء خليل بن أيك الصفدي (٧٦٤ / ١٣٦٢) و (نور الصباح في أغلاط الصحاح) لأبي الفضل محمد بن عمر بن خالد القرشي من القرن السابع الهجري. ومن التهذيبات له: (تهذيب الصحاح) لأبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي (٥٤٠ / ١١٤٥) و (ترويح الأرواح في تهذيب الصحاح) لشهاب الدين أبي البقاء محمود ابن أحمد بن بختيار الزنجاني (٦٥٦ / ١٢٥٨) و (الراموز) لحسام الدين محمد بن الحسن الأدرنوي (٨٦٦ / ١٤٦١) جرَّد فيه الصحاح من الشواهد والامثال والأنساب، فأضاف إليه زيادات الزمخشري في (الفائق) و (نهاية ابن الأثير) و (مقرَّب) المطرزي.

ومن نظمه: زين الدين أبو الحسين يحيى بن معطي المغربي الزواوي (٦٢٨/١٢٣٠). ومن ألف حوله: تاج الدين عبد الوهاب بن إبراهيم بن عبد الله الخزرجي الزنجاني (٦٥٤/١٢٥٦) و اسم كتابه: (المُعَرَّب عما في الصحاح والمغرب) وشمس الدين أبو عبد الله محمد بن الطيب الصميلي (١١٧٠ / ١٧٥٦) و اسم كتابه: (ضوء القابوس في زيادة

الصحاح على القاموس) والصفدي (١٣٦٢/٧٦٤) وله كتاب آخر غير كتابه السابق (نفوذ السهم) اسمه (غوامض الصحاح). و ذكر الأستاذ أحمد الشرقاوي إقبال أن لهذا الكتاب مخطوطة بخط الصفدي نفسه في مكتبة الأسكوريال كتبها الصفدي سنة (٧٥٧هـ) (انظر معجم المعاجم ص ٢٢٧ فما بعدها).

ولما ظهر معجم القاموس المحيط للفيروز أبادي (٨١٧ / ١٤١٤) نشأ حوله حركة تصنيفية هامة، نذكر من نماذجها:

١. القول المأنوس على القاموس، للشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفي (٩٢٠ / ١٥١٤).

٢. القول المأنوس بتحرير ما في القاموس، لبدر الدين القرافي (١٠٠٨ / ١٥٩٩).
ومنه نسخة خطية بخط المؤلف بدار الكتب المصرية.

٣. إيناس النفوس بشرح القاموس، لمحمد عبد الرؤوف المنادي (١٠٣١ / ١٦٢١).

٤. القول المأنوس في صفات القاموس، للشيخ سعدا لله المقني، وطبع سنة ١٢٨٧ في (برامفور).

٥. تاج العروس في جواهر القاموس، للمرتضى الزبيدي - أبي الفيض (١٢٠٥ / ١٧٩٠) وقد ذكر في مقدمته أسماء علماء غيره شرحوا القاموس أيضاً.

٦. التكملة و الصلة و الذيل للقاموس، للمرتضى الزبيدي أيضاً. وهو استدراك على ما فات الفيروزآبادي في قاموسه. وقد طبع هذا الكتاب بمصر في ستة مجلدات.
و من الكتب التي تقدمت القاموس:

١. زيادات على القاموس، لعبد الرؤوف المنادي، الذي مرّ ذكره سابقاً.

٢. الدرّ اللقيط في أغلاط القاموس المحيط، لمحمد بن مصطفى الشهير بدادود زادة (١٠١٧ / ١٦٠٨).

٣. إضافة الأدموس ورياضة الشمس من إصلاح صاحب القاموس، لعبد العزيز الحلبي، وتوجد منه نسخة في مكتبة الجزائر - العاصمة.

٤. مَرَجَ البحرين في أجوبة القاموس عن اعتراضاته على الجوهري، للقاضي أريس بن عبد الرحمن المعروف بويسي (١٠٣٧ / ١٦٢٧).

٥. الجاسوس على القاموس، لأحمد فارس الشدياق (١٨٨٦ م). وقد طبع في مطبعة الجوائب عام ١٨٨١. (انظر مقال رابع لطفي جمعة في مجلة عالم الكتب - الرياض ١٤١٧ / ١٩٩٦ مج ١٧ ع ٢ ص ١١٢).

وإذا ودّعنا الحركة المعجمية وبعض الإشارات إلى الكتب المصنفة فيها ومتابعاتها، وانتقلنا إلى المجموعات الشعرية التي تضمّنت قصائد جاهلية وإسلامية وأموية وعباسية، كالمعلقات والمفضليات والأصمعيات والحماسات، فإننا نجد أنها هي الأخرى أحدثت حركة تأليفية نشطة حولها، فمن المعروف مثلاً أن «المعلقات» حظيت بشروح كثيرة في القديم لعلّ أقدمها شرح ابن الأنباري (٣٢٨ / ٩٣٩) الذي نشره المرحوم عبد السلام هارون بعنوان شرح القصائد السبع الطوال بدار المعارف عام ١٩٦٣ م، ويليه شرح ابن النحاس (٣٣٨ / ٩٤٩)، فشرح الزوزني (٤٨٦ / ١٠٩٣) فشرح التبريزي (٥٠٢ / ١١٠٨). وهذه كلها شروح مطبوعة، أما الشروح غير المطبوعة أو الضائعة فكثيرة جداً. ذكر منها محمد علي حمد الله في مقدمته لشرح المعلقة السبع للزوزني أكثر من عشرين شرحاً. بل هي ثلاثون شرحاً ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود، ولم يذكر بينها شروح الشنقيطي والغلاييني والبستاني وغيرهم من المعاصرين. (انظر مقدمة محمد علي حمد الله لشرح الزوزني ص ٥٧-٦٠).

ومن المعروف أيضاً أن «المفضليات» قد حظيت بخمسة شروح قديمة هامة نهض بها الأنباري القاسم بن محمد (٣٠٥ / ٩١٧)، وابن النحاس (٣٨٨ / ٩٩٨) والمرزوقي (٤٢١ / ١٠٣٠) والتبريزي (٥٠٢ / ١١٠٨)، والميداني (٥١٨ / ١١٢٤). ولم يطبع من هذه الشروح في حدود علمنا سوى شرحي الأنباري والتبريزي. أما «حماسة أبي تمام» فقد عدّ صاحب كشف الظنون أسماء عشرين ممن شرحوها، منهم أبو بكر الصولي (٣٣٥ / ٩٤٦)، والآمدي (٣٧١ / ٩٨١)، والنمري (٣٨٥ / ٩٩٥) وابن جني (٣٩٢ / ١٠٠١) والعسكري (٣٩٥ / ١٠٠٤) والمروزي (٤١٤ / ١٠٢٣) والمرزوقي (٤٢١ / ١٠٣٠) والخطيب

الإسكافي (٤٢١ / ١٠٣٠) وابن سيده (٤٥٨ / ١٠٦٥)، وهو شرح كبير يقع في ستة مجلدات، سَمَّاهُ « الأنيق »، وأبو الفضل الميكالي (٤٧٥ / ١٠٨٢) والخطيب التبريزي. ولم تصل هذه الشروح إلى زماننا، بل وصل منها شرح أبي عبد الله النمري، وقد حققه و طبعه في السعودية الدكتور عبد الله عسيلان عام ١٩٨٣، ووصل شرح المرزوقي فحقيقه و طبعه في أربعة مجلدات المرحومان عبد السلام هارون و أحمد أمين سنة ١٩٥١ ثم أعادوا نشر هذا الشرح في طبعة ثانية سنة ١٩٦٧. وكذلك نشر في مطبعة بولاق شرح الحماسة للتبريزي، ثم أعاد المرحوم محمد محي الدين عبد الحميد نشر هذا الشرح في ثلاثة مجلدات بالقاهرة.

ومن المعروف أن النمري في شرحه للحماسة قد تصدَّى لشرح بعض الأبيات المشكلات فيها، ولكن علماً آخر هو الأسود الغندجاني تعقَّب شرحه هذا، فألَّف كتاباً سَمَّاهُ « إصلاح ما غلط فيه أبو عبد الله النمري في شرح أبيات الحماسة »، وقد حَقَّق هذا الشرح ونشره الدكتور محمد علي سلطاني ضمن منشورات مهد المخطوطات العربية بالكويت عام ١٩٨٥.

و لو وَقَّفنا عند ديوان شاعر العربية الأكبر (المتنبي) لوجدنا أنه قد شرح شروحا كثيرة، فقد شرحه المعري والعكبري والواحدي والسيرقوقي وغيرهم وغيرهم... ولكن أول شارح له كان رجلاً لغوياً عظيماً عاصر أبا الطَّيِّب هو ابن جنِّي. ولا ابن جنِّي شارحان للديوان صغير وكبير، والاول هو الباقي لنا. وقد تعقَّب معاصرو ابن جنِّي، ومن بعدهم، هذا الشرح بالتعليق و التصويب. ومن هؤلاء كان الربيعي علي بن عيسى (٤٢٠ / ١٠٢٩) الذي ألَّف كتاباً سَمَّاهُ « التنبيه على خطأ ابن جنِّي في تفسير شعر المتنبي »، ومنهم محمد بن أحمد المعروف بابن فورجة و له كتاب اسمه « الفتح على أبي الفتح » وكتاب آخر عنوانه « التجنِّي على ابن جنِّي » وفيها يردُّ على ابن جنِّي في شرحه لشعر المتنبي. وكذلك تتبَّع الشريف المرتضى بالتنقيح والتصحيح أبيات المعاني التي تكلم عليها ابن جنِّي من شعر المتنبي، وللروزني استدراك على ابن جنِّي سَمَّاهُ « قشُر الفسَّر » ومنه نسخة بمكتبة طلعت بدار المصرية، وقد كُتِبَت سنة (٤٧٥ هـ) (الخصائص ١: ٢٢).

ومما يذكر حول المتنبي، ويتصل بالخطأ والصواب، والمتابعة والتبُّع، أن محمد الطاهر بن عاشور قد نشر كتاباً بعنوان « سرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن بسّام النحوي » وذلك سنة ١٩٧٠، فجاء في نحو ١٥٠ صفحة. وكان المرحوم ابن عاشور قد وهم في نسبة هذا الكتاب إلى ابن بسّام النحوي. فصحّح له هذا الوهم الدكتور محمد رضوان الداية في مقال له نشره في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٧٠ ج ٤ / ١٩٩٥ ص ٦١١ - ٦٢٢) منتهياً إلى أن هذا الكتاب المنسوب إلى ابن بسّام ما هو إلا الجزء الرابع من كتاب آخر عنوانه ((جواهر الأدب وذخائر الشعراء والكتاب)) لمؤلفه أبي بكر محمد بن عبد الملك النحوي الشنتريني الأندلسي المعروف بابن السراج (٥٥٠ / ١١٥٥). وقد جاء الوهم للشيخ محمد الطاهر بن عاشور من أنّ أحد أهل العلم أو شداته أو أحد النساخ، ممن حظّه قليل من المعرفة، قد فصل الجزء الرابع من كتاب ((جواهر الأدب)) وجعله كتاباً قائماً برأسه، وعزاه إلى ابن بسّام النحوي، وهو لابن السراج النحوي الأندلسي.

ومن المعروف أن المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس قد حظي في زماننا ببلوغرافيا ممتازة وعظيمة، فنشر عنه كوركيس عواد وميخائيل عواد كتاباً كاملاً بعنوان: ((رائد الدراسة عن المتنبي)). وذلك في بغداد سنة ١٩٧٩.

وإذا تركنا ما تقدّم، وانتقلنا إلى باب الأمالي، وجدنا من أهم أشكال هذا الجنس التأليفي عند العرب « أمالي أبي علي القالي » المتوفى سنة (٩٦٦/٣٥٦) وقد وصلت إلينا وطبعت. وأمالي القالي من أمتع الكتب في بابها، وهي مجموعة دروس أملاها أبو علي على طلابه في الأندلس. وقد تتبع أبو عبيد البكري (٤٨٧ / ١٠٩٤) هذا الكتاب في مؤلف له دعاه « اللآلي في شرح كتاب الأمالي »، كما ألف البكري ذاته كتاباً آخر سمّاه ((التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه))، وقد نشر الأمالي واللاّلي والتنبيه جميعها العلامة المرحوم عبد العزيز الميمني الراجكوتي في القاهرة.

ولم يتبع البكري القالي فقط، بل تتبّع أبا عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤ / ٨٣٨) صاحب كتاب الأمثال، في كتاب سمّاه « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » قال في فاتحته: ((أما بعد فإني تصفّحتُ كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام، فرأيتُه قد أغفل

تفسير كثير من الأمثال، فجاء بها مهملة، وأعرض عن ذكر كثير من أخبارها، فأوردها مرسله، فذكرت من تلك المعاني ما أشكل، ووصلت من تلك الأخبار بأمثالها ما فصل، ويئت ما أهمل، ونهت على ما ربما أجمل، إلى آيات كثيرة غير منسوبة فنسبتها، وأمثال جمّة غير مذكورة ذكرتها، وألفاظ عدّة من الغريب فسرتها (انظر فصل المقال، تحقيق إحسان عباس وعبد المجيد عابدين ص ١٣).

وإذا ودّعنا أبواب الأدب، وانتقلنا إلى التاريخ، وجدنا كتاب الطبري «تاريخ الأمم والملوك» وهو كتاب محوري في علم التاريخ، ويقع في عشرة مجلدات بطبعة محمد أبو الفضل إبراهيم، وجدناه يلقي هو الآخر عناية فائقة، فقد اختصره جماعة، وحذفوا أسانيده، ومن هؤلاء: محمد بن سليمان الهاشمي، وأبو الحسن الشمشاطي المعلم من أهل الموصل، والسليل ابن أحمد... الخ. وذيل على تاريخ الطبري أبو الحسن محمد بن عبد الملك الهمداني (٥٢١ / ١١٢٧) بكتاب سماه: «الذيل على تاريخ الطبري» وطبع هذا الذيل في بيروت سنة ١٩٥٨-١٩٦٢ تحت عنوان «تكملة تاريخ الطبري». وكذلك ذيل عليه أبو غالب عبد الواحد بن مسعود الشيباني (٥٩٧ / ١٢٠٠) ومنه شذرات التقطها إحسان عباس من كتاب «بغية الطلب» لابن العديم، ونشرها في كتاب «شذرات من كتب مفقودة في التاريخ والأدب ص ص ١٥١-١٥٩».

ولما ظهر الكتاب المعجزة تاريخ مدينة دمشق الذي يقع في إحدى تجزئاته في ثمانين مجلدة، والذي صنّفه ابن عساكر (٥٧١ / ١١٧٥) نهض ابن منظور المصري بعملية اختصاره فحذف أسانيده والروايات المتشابهة فيه، وألف «مختصر تاريخ مدينة دمشق» الذي صدر بتحقيق مجموعة من الباحثين عن دار الفكر بدمشق في (٢٩) جزءاً في السنوات الأخيرة. وكذلك اختصره ابن بدران في العديد من المجلدات.

وحفلت كتب التراجم، وهي باب آخر عريض من أبواب مكتبتنا العربية، بذيول كثيرة، فبعد أن ألف ابن خلكان كتاب «وفيات الأعيان» جاء بعده الصفدي فألف: «الوافي بالوفيات» وأحبّ ابن شاکر الكشي أن يستدرك ما فات ابن خلكان من تراجم فألف كتاباً سماه: «فوات الوفيات» وقد حقّق هذا الكتاب الدكتور إحسان عباس، الذي قال إنّ

مأضافه الكتبي على ما عند ابن خلكان قد يصل إلى ستمائة ترجمة. وفي إعادة طبع فوات الوفيات استدراك وإضافة لما نشره من هذا الكتاب المرحوم محمد محي الدين عبد الحميد، ففي حين كان في طبعة عبد الحميد جزأين صار في طبعة إحسان عباس خمسة أجزاء. هذا، علماً بأن الدكتور عباس قد عاد إلى نسخة بخط المؤلف كانت محفوظة في مكتبة أحمد الثالث - (طوبقوسراي). ولدى المقارنة وجد أن الطبعة الأولى للكتاب قد أخذت بعشرات التراجم. وكانت بعض تراجمها موجزة حُذفت الكثير منها.. الخ.

وعندما ظهر كتاب طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى، قام ابن رجب الحنبلي بصنع ذيل له سماه: ذيل على طبقات الحنابلة. وقد حقق هذا الكتاب (هنري لاروست وسامي الدهان) ونشره ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق عام ١٩٥١. ومن ضمن منشورات هذا المعهد كتاب آخر يتعلق بالكتاب الأسبق هنا، وهو «تالي كتاب وفيات الأعيان» للصفاعي، فضل الله بن أبي فخر، وقد حققته (جاكلين سوبله) ونشرته في المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٧٤.

وعندما أصدر المرحوم خير الدين الزركلي في عصرنا الحاضر كتابه الضخم القيم «الأعلام» تعقبه المرحوم أحمد عبيد بكتاب له آخر يتصل به سماه «الإعلام بما أخذت به الأعلام» استدرك عليه تراجم كثيرة لم يوردها الزركلي في معجمه العظيم المشار إليه.

.....

.....

.....

وهذه الإشارة الأخيرة تقودنا إلى شيء من المتابعة والتتبع في عصرنا الحاضر، فبعد أن أشرنا إلى لُمع من أضواء هذا المذهب التألّفي القديم، ولم نستقصه، واستقصاؤه عزيز، ننتقل إلى عصرنا الحالي لنشير إلى اتصال هذا التيار التصنيفي القديم بما يشبهه في زماننا. ففي زماننا قلما تخلو دورية عربية مَعنية بالتراث من بحث فيه متابعة أو تتبع أو تدقيق أو استدراك على ما نشر من قبل. وقد وقعت أخيراً على مقالة للدكتور رمضان عبد التّواب نشرها في مجلة معهد المخطوطات العربية (مج ٣٤ ج ١ و ٢ / يناير يوليو ١٩٩٠) عنوانها «من تجرّبي في تحقيق نسبة الكتاب وتوثيق عنوانه». وفي هذه المقالة يُصحّح عبد التّواب نسبة كتاب اسمه «أغلاطي» فقد نُسب إلى صفّي الدين الحلّي (٧٤٩ / ١٣٤٨) وهو من

مخطوطات الأسكوريال. ولكنه لدى التدقيق تبين أنه للصفدي وليس للحلي. واستدل عبد التواب على هذه النسبة بشهادة البغدادي في كتابه « هدية العارفين » وبنصوص وردت في المخطوط ذاته تؤكد نسبه للصفدي بدليل أنَّ المؤلف نفسه يذكر فيه كتاباً له معروفاً بعنوانه « نفوذ السهم فيما وقع للجوهري من الوهم » كما يستدل على ذلك بوجود إجازة بخط الصفدي لرواية الكتاب.

وكذلك يصحح رمضان عبد التواب خطأً (لأوغست هفتر) وقع فيه عندما حقق مصنفًا بعنوان « ثلاثة كتب من الاضداد » - (بيروت ١٩١٣) فقد نسب من بين هذه الكتب الثلاثة واحداً إلى الأصمعي، والصواب أنه لابن السكيت. وكان سبب هذا الخطأ هو أنَّ الكتاب يبدأ بالقول « قال الأصمعي ». وحلُّ هذا الإشكال في أن نفهم أنَّ ابن السكيت يبدأ كتابه بالرواية عن الأصمعي. وهذا مما تحدث نظائر له كثيرة بسبب ضياع ورقة العنوان من المخطوط. وعلى الرغم من أن للأصمعي كتاباً في الأضداد، إلا أنَّ هذا الكتاب ليس له كما زعم (هفتر)، لأن الشيوخ الذين ينقل عنهم، هم شيوخ ابن السكيت وليسوا شيوخ الأصمعي، وخاصة أنَّ الأثر منهم. ثم أن بعض الشيوخ الواردين في هذا الكتاب هم مخصصون للأصمعي، ولم ينقل عنهم شيئاً، أمثال ابن الاعرابي وأبي عبيدة.

و يُصحِّح رمضان عبد التواب عنوان كتاب نشره بجمع اللغة العربية بدمشق وهو كتاب « الإبدال والمعاقبة والنظائر » للزجاجي (٣٣٧ / ٩٤٨) وقد حققه عز الدين التنوخي ونشره سنة ١٩٦٢، وحقيقة أمره أنه فصلٌ من كتاب آخر للزجاجي اسمه « الأمالي الكبرى»، بدليل أن عبد القادر البغدادي مؤلف شرح شواهد الشافية قد نقل نصوصاً من ذلك الكتاب المطبوع وعزاها إلى « الأمالي الكبرى ». فالكتاب اذن ليس « الإبدال والمعاقبة والنظائر » بل جزء من « الأمالي الكبرى ».

و كذلك يصوّب (التواب) فهرس المستشرق (ديرنبورج) لمكتبة دير الأسكوريال بأسبانيا، فقد نسب فيه (ديرنبورج) كتاباً اسمه « النوادر في العربية » لأبي هلال العسكري. ولدى التدقيق تبين أن هذا الكتاب هو « زاد الرفاق » للأبيوردى الشاعر المعروف المتوفى عام (٥٠٧ / ١١١٣). وقصة ذلك أن المؤلف كان أحد تلاميذ عبد القادر

الجرجاني، وينقل عنه في كتابه المذكور.... ولما فُتِّش « التواب » عن تلامذة الجرجاني وجد بينهم الأبيوردي، وعندما فُتِّش عن مؤلفات الأبيوردي وجد (كارل بروكلمان) ينسب إليه كتاباً اسمه « زاد الرفاق »، وكان التواب يعرف أن من هذا الكتاب نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية، فلما قابل بين المخطوطتين « النوادير العربية » و « زاد الرفاق » و القابضة إحداهما، وهي الأولى، في دير الأسكوريال، والثانية وهي « زاد الرفاق » في مصر، استنتج أن الأولى ليست سوى نسخة ثانية عن الثانية، وكان بها خَرْمٌ يصل إلى حوالي (١٩٠) ورقة. وكان اكتشافه لهذه الحقيقة بعد ربع قرن بقيت فيه مخطوطة الأسكوريال تحت اسم مزيف ومعزوة لمؤلف مزور. وكان مبعث غلط (ديرنبورج) هو هامش ورد في أعلى ظهر الورقة الأولى يقول صاحبه (حسن عبد الله) فظن أن الحسن هو أبو هلال العسكري مؤلف كتاب « الأرائل » و « كتاب الصناعتين » والحقيقة هو أن حسن عبد الله كان أحد مالكي النسخة الموجودة في دير الأسكوريال وليس مؤلفها. وقد كتب عن هذه المخطوطة الشيخ حمد الجاسر مقالين اثنين في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٦٣: ج ١، و ج ٣ لعام ١٩٨٨).

وكذلك نشر حاتم الضامن في مجلة المورد (مج ١٥ ع ٢) مقالاً حول كتاب الأشباه والنظائر المنسوب للثعالبي الذي حققه محمد المصري ونشره في بيروت، عن نسخة مخطوطة له في استنبول تعود إلى القرن الثاني عشر الهجري، أثبت فيه حاتم الضامن أن هذا الكتاب ليس للثعالبي، بل هو اختصار لكتاب ابن الجوزي (٥٩٧ / ١٢٠٠) الموسوم بـ «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر».

وكذلك أثبت الضامن أن ما طبع في الاسكندرية سنة ١٩٧٩ بعنوان « منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر » بتحقيق محمد السيد الصفطاوي و فؤاد عبد المنعم أحمد هو ذاته كتاب ابن الجوزي « الأشباه والنواظر » الذي طبعه محمد المصري ! و سبب هذا الغلط هو ما جاء في صفحة العنوان و مقدمة الكتاب المقحمة عليه وكلاهما خطأ و تضليل. و من التصحيحات التي يجدر التنبيه عليها ما اكتشفه الباحث (جبرائيل جبّور) من زيف بعض النصوص الواردة في كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه، فقد دُسَّ في هذا

الكتاب نصوص لم يدرجها فيه، أصلاً، ابن عبد ربه بل أضافها إليه نَسَاح الكتاب أو قارئه أو مالكوه.. وانظلي الأمر على ناشري «العقد الفريد» فأوردوا النصوص الدخيلة على أنها أصيلة، ولم يلاحظوا الخطأ والخلل فيها، رغم أنَّ الأمر لا يحتاج إلى عناء كبير، فأنت إذا قرأت «العقد الفريد» ترى أنه قد ترجم في كتاب اليتيمة الثانية (ج ٣ ص ٥٩ - ٦٠ طبعة العريان و ج ٥ ص ١٢٩ - ١٣١ طبعة أحمد أمين) لأربعة خلفاء من بني العباس، هم: الراضي والمتقي والمستكفي والمطيع، وكلهم توفي بعد وفاة ابن عبد ربه أي بعد سنة (٣٢٨ / ٩٣٩)، و يلاحظ في ترجمة (المطيع) أنه قد خلع نفسه سنة (٣٦٣ / ٩٧٣) أي بعد موت ابن عبد ربه بـ (٣٥) عاماً، فكيف يكون ذلك؟

وكذلك لاحظ الأستاذ جبور أنَّ أخبار (بني العباس) في الجزء الثالث من العقد (طبعة العريان) والخامس طبعة (أمين) لم يدونها ابن عبد ربه، بل دُسِّبَتْ في الكتاب دسًّا (انظر مصطلح التاريخ لأسد رستم ص ص ٢٢ - ٢٤). ومن الأدلة على أن «العقد» قد خالطه تحريف وتغيير وزيادات أن ترتيب «العقد الفريد» حسب رواية ياقوت الحموي في معجم الادباء، يختلف عما هو عليه في طبعاته المعاصرة.

وإذا تجاوزنا تصحيح العناوين المغلوطة، ونسبة المؤلفات إلى مصنفين لم يصنفوها، ومحاولات رصد الأغلاط والزيادات في الأصول المخطوطة، وانتقلنا إلى الأخطاء التي يقع فيها المحققون، فإننا نجد أمامنا الكثير من أوهام الباحثين المعاصرين التي لاقت مَنْ كَشَفَ عَنْهَا وصوبها من الباحثين الأخر... وقد كانت الأوهام والأغلاط والتحريفات والتصحيحات قديمة في كتب التراث، حتى إن مؤلفين قداماء تصدَّوا لهذه الظاهرة وفندوها وبسطوا غوامضها، وشرحوها. وكان من بين تلك الكتب التي ضربت في هذا الاتجاه «إصلاح المنطق» لابن السكيت، وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكري، والتنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصفهاني، ودرة الغواص للحريري، وتقويم اللسان لابن الجوزي، وتقويم اللسان للصقلي، ولحن العوام للزيدي، وتصحيح التصحيف وتحريير التحريف للصفدي.

و رثمة كتب عقدت فصولاً هامة تعقّب فيها مؤلّفوها من سبقهم من العلماء، وأمّثل
لهذه الفصول بفصل جاء في كتاب الخصائص لابن جنيّ عنوانه: (سقطات العلماء) -
الخصائص ٣: ٢٨٢ فما بعدها) وفيه ذكر ابن جنيّ أخطاء للأصمعي ولأبي زيد الأنصاري
ولثعلب أحمد بن يحيى وغيرهم. ومن تلك السقطات أنّ الأصمعي صحّف قول الخطيب:

وغررتني وزعمت أنّك لا بين في الصيف تامر

فأنشده (... لاتي بالضيف تامر) أي تأمر بانزاله وإكرامه. ويعلق ابن جنيّ على
ذلك بقوله: (وتبعد هذه الحكاية في نفسي لفضل الأصمعي و علوه غير أنني رأيت أصحابنا
على القديم يسندونها إليه ويحملونها عليه).

و قال ابن جنيّ: (ومن هذه « يريد السقطات » ما يُحكى عن خلف أنه قال:
أخذتُ على المفضل الضبي في مجلس واحد ثلاث سقطات، أنشد لامرئ القيس:

نَمَسُ بِأَعْرَابِ الْجِبَادِ أَكْفُنَا إِذَا لَحْنُ قَمْنَا عَنِ ضِيَاءِ مُضَهَّبِ

فقلتُ له: عافاك الله إنما هي نَمَشُ، أي نَمَسَحُ، وفيها سُمِّي منديل العَمَر مَشُوشًا.
وأنشد للمخبل السعدي:

وَإِذَا أَلْمَ خِيَالُهَا طَرَقَتْ عِني فمَاءُ شَرُونِهَا سَجَمٌ

فقلتُ: عافاك الله إنما هي طُرِفَتْ . وأنشد للأعشى :

سَاعَةٌ أَكْبَرُ النَّهَارِ كَمَا شَدُّ مُجِيلِ لَبُونَةٍ إِغْتَامَا

فقلتُ: عافاك الله إنما هو مُجِيل، بالخاء المعجمة، وهو الذي رأى خال
السحابة، فأشفق فيها على بَهْمِهِ فشَدَّهَا) - (الخصائص ٣: ٢٨٧).

وكذلك يشير ابن جني إلى مبحث المبرد محمد بن يزيد المعنون بمسائل الغلط في كتابه سيويته. ولكنه يرى سيويته من أكثره، ويشير إلى اعتذار المبرد عن كتابه هذا، لأنه عمله في أوان الشيبية والحدائث. (الخصائص ٣: ٢٨٧).
وفي موضع آخر نجد الأصمعي يصحح تصحيحاً للمفضل الضبي الذي أنشد بيت
أوس بن حجر على هذا النحو:

و ذاتِ هلمِ عارِ نواشِرُها تُصنِمتُ بالماءِ تُولبُا جَدَعَا

فقال الأصمعي: هذا تصحيف، لا يُوصَف التولب بالإجذاع، وإنما هو (جدعا) بالجيم وهو السيء الغداء. قال: فجعل المفضل يُشعَب فقلت له: تكلم كلام النمل وأصيب، لو نفعحت في شُبور يهودي ما نفعك شيئاً (الخصائص ٣: ٣٠٦).

وكذلك كان الصاغاني يصحح الكثير من الروايات ويحررها، ومن ذلك على سبيل المثال أنه روى قول الجوهري في «الصحاح»: الشَتَيْت: التفرَّق. قال رؤبة يصف إبلاً:

جِـاءتِ مِعْـاً وأطرقنتِ شـيتينا
وهي تـير السـاطع السـختينا

ثم تعقبه فقال: و ليس لرؤبة على هذا الروي شيء، وإنما هي من الأصمعيات والانتشاد مداخل، والرواية:

جِـاءتِ مِعْـاً وأطرقنتِ شـيتينا
وتركنتِ راعيةَها مَسْـبوتنا
قد كاد لنا نيام أن يموتنا
وهي تـير سـاطعاً سـختينا

(انظر التكملة والذيل والصلة ١: ٣٢٠).

والأمثلة في معجم الصاغاني « التكملة والذليل والصلة » على تصويب روايات الشعر وتصحيح نسبة الأشعار إلى أصحابها، أو بالعكس، كثيرة جداً جداً. كان ما سبق أمثلة على أخطاء القدماء في قراءة الشعر وروايته وشرحه. أما أخطاء المحدثين، ونحن منهم، في قراءة المخطوطات والتعليق عليها فهو كثير أيضاً، بل كثير جداً... ولا تكاد دورية عربية تعنى بالتراث تخلو من تصحيحات وتصويبات وتبع ومتابعة لما ينشر من مخطوطات تراثية، سواء كانت هذه الدوريات تصدر في دمشق أو القاهرة أو بغداد أو الأردن أو السعودية أو غيرها.

وكثيرة هي الأمثلة على تصحيحات المحدثين بعضهم لبعض، فقد صحح في الخمسينيات مصطفى جواد من العراق بعض أوهام وقع فيها أستاذنا الدكتور شكري فيصل عندما نشر جزأين من كتاب « خريدة القصر وخريدة العصر » للعماد الأصفهاني، فقد رصد له في الجزء الأول (٥٥) خمسة وخمسين موضعاً، كانت تحتاج منه إلى مراجعة، ورصد له (٣٩) تسعة وثلاثين موضعاً في الجزء الثاني تستدعي التليق من جديد... الخ.

وكتب محمد بهجة الأثري نقداً حول الجزء الأول من كتاب الخريدة الذي نذكر تحقيقه هنا وقع في (٩٠) صفحة نشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي، وهو المكان الذي نشر فيه أيضاً مصطفى جواد ملاحظاته المشار إليها وقد جمعت مقالات مصطفى جواد في كتاب له بعد موته، مع أبحاث له أخرى وصدرت في بغداد في جزأين (انظر كتاب: في التراث العربي، لمصطفى جواد - ج٢ بغداد ١٩٧٩) .

ومن أمثلة هذه التصحيحات التي صنعها مصطفى جواد، ما جاء في ص ١٠٣ من الجزء الأول من الخريدة، وهو قول العماد: (وقد أثبت منها ما عقدت عليه خنصر الاختيار، وثبت عليه عنان الانتقاد) والصواب، في نظر جواد، « عنان الانتقار » لا « الانتقاد » لأن « الانتقار » يشاكل « الاختيار » التي ذكرت في العبارة الأولى. وهو في المعنى، الاختصاص والاختيار، يقول طرفه بن العبد:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا نرى الآدبَ فيما يتقَرُّ

ومعنى (ينتقر): يختار. فالجفلى هي الدعوة العامة، والنقرى هي الدعوة الخاصة. (نظر مصطفى جواد: في التراث العربي بغداد ١٩٧٩ ج٢ ص ٣٠٢).
ومن تعقباته أيضاً ما ساقه حول بيت ابن الرغيلة، الوارد في الخريدة (ص ٣٢٢)
على هذا النحو:

فمن يناوتك في هذا الأنام وفي يمينك الماضيان: السيفُ والقلمُ

إذ قال: إن جزم (يناوتك)، بوصفه ضرورة شعرية لا داعي له. والشاعر فيما يرى هو، سهل الهمة فصارت (يناويك)، وهي الصواب ولا ضرورة معها (في التراث العربي ص ٣٠٥). وساق مصطفى جواد قول الشاعر في الخريدة (ص ٤٦٦):

وحقّ نصف اسمه الأخير لقد كنت له قديماً كأوليه

ثم قال: والشطر الثاني مكسور بتقديم " له " وتأخير " قديماً " والصواب: " كنت قديماً له كأوله ". بتقديم " قديماً ". (في التراث العربي ص ٣٠٨).
ومن ملاحظاته على الجزء الثاني ما جاء في صفحة ١٩ من الخريدة من قول للشاعر أبي محمد - محمد بن عبد الله المعري:

لا سيّما إن حسّنتُ شيبيةً في عينها حالة إفلاس

إذ قال جواد:

وحالة الإفلاس لا تُحسّنُ الشيب في عين الكاعب المذكورة في الشعر، فالظاهر أن (حسّنت) تصحيف (خيبت) أو حسّأت) من الخيبة والخسوء. (في التراث العربي ص ٣٣٠).

وتمة تصحيحات تتناول تراجم الأعلام الواردة في الخريدة (ج ٢) ومن أمثلة ذلك ما جاء في (ص ٤٠١) من الخريدة حول ترجمة بهاء الدين أسعد بن يحيى السنجاري، إذ أوصل المحقق شكري فيصل سنة وفاته إلى (٦١٩)، ولم يجد مصدراً لسنة وفاته، مع أنه على طرف الثمام، فقد قال ابن خلّكان في وفيات الأعيان (١: ٧٤) حوله: "وتوفي في أوائل سنة اثنتين وعشرين وستمئة بسنجار" وقال ابن العديم في بغية الطلب عنه: "قال لي علي بن ادريس الحمصي الشاعر: توفي البهاء السنجاري في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وستمئة". ثم قرأ مصطفى جواد في تاريخ علي بن أنجب البغدادي، المعروف بابن الساعي: "بلغني أن أسعد بن يحيى السنجاري هذا توفي في المحرم من سنة أربع وعشرين وستمئة". (في التراث العربي ص ٣٤١).

وراجع أيضاً مصطفى جواد في كتابه «في التراث العربي» عدداً من المطبوعات التراثية التي ظهرت في زمانه أمثال: أخبار البحري للصولي، تحقيق صالح الاشر، طبع بجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٧٨ / ١٩٥٨ م، وديوان ابن أبي حُصَيْنَة، تحقيق محمد أسعد طلس، طبع بالمجمع بدمشق ١٣٧٥ / ١٩٥٦ م. وكتابه تعريف القدماء بأبي العلاء، وهو السفر الأول من آثار أبي العلاء المعري، وجمعه وحققه لجنة من رجال وزارة المعارف بمصر بإشراف طه حسين، وطبع بالقاهرة سنة ١٣٦٣ / ١٩٤٤ م. وديوان ابن الساعاتي تحقيق أنيس المقدسي، بيروت ١٩٣٨ م... الخ.

وفي سورية تتبع الدكتور شاکر الفحّام أوهام الدكتور حسين نصّار في طبعته لديوان ابن الرومي الذي نشره في ستة أجزاء بالقاهرة (١٩٧٣ - ١٩٨١) وذلك في بحث له نشره في مجلة بجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٦٠ ع ١٤ لعام ١٩٨٥ ص ١٢٤ - ١٥٢). ومما جاء في بحث الدكتور الفحّام: أنّ الدكتور نصّار ظن أن مثقالاً غلام ابن الرومي قد صنع ديوان ابن الرومي، وكذلك ابن الحاجب غلام ابن الرومي. وهذا غير صحيح، وهو يدل على عدم تدبر لعبارة ابن النديم في «الفهرست» التي تعني غير ما فهمه منها الدكتور حسين نصّار، إذ تعني أن لكل منهما ديواناً، ولكن الدكتور نصّار وهم في أن كلاً منهما صنع ديوان ابن الرومي ١ والانزلاق الأكبر عند الدكتور نصّار كان في اعتقاده أنّ ابن أبي

فمن أيضاً قد صنع ديوان ابن الرومي ا وابن أبي فنن توفي قبل ابن الرومي. وهذا يقطع بأنه لم يكن من رواة ديوان ابن الرومي. ويصح هذا القول على خالد الكاتب المتوفى بين سنتي ٢٦٢ و ٢٦٩ الذي توهم الدكتور نصّار أيضاً أنه من رواة ديوان ابن الرومي. ثم يعدّد الدكتور فتحّام رواة شعر ابن الرومي الحقيقيين وناقلي أخباره فيجدهم سبعة رجال ليس بينهم من ذكروا أنفأ، وذلك بالاعتماد على تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي. وعندما لا يحسن د. نصّار ترجمة (أبي الطيب ورّاق ابن عبدوس) الذي جمع ديوان ابن الرومي، يقول د. فتحّام عنه: إنه معروف مشهور. وفي المكتبة الظاهرية بدمشق نسخة بخطه للجزء الأول من ديوان الفرزدق، وقد كتب هو مقدمة لها ونشرها، كما هي، ضمن مطبوعات الجمع، وأشار إلى أن المصادر التي ذكرت ابن عبدوس وترجمت له كثيرة، منها الفهرست لابن النديم، ومعجم الأدباء لياقوت، وإنباه الرواة للقفطي، ومفتاح السعادة لطاش طبرى زادة، وكتب أخرى كثيرة. وعندما يعتقد د. نصّار أن المراد ببيت الرومي:

إِسْتَقْبَلِ الْمَهْرَجَانَ بِالْفَرْحِ فَقَدْ مَضَتْ عَنْكَ دَوْلَةُ الْفَرْحِ

هو أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى مؤلف كتاب الوزراء والكتاب، يصحح د. فتحّام ذلك قائلاً: ان المراد هو أبو عبد الله عمر بن محمد بن عبدوس. وشتان بين الرجلين... إلخ.

ومن المعروف للمهتمين بالتراث أن الدكتور الفحّام قد أصدر كتاباً كاملاً في تصحيح ديوان بشار سمّاه « نظرات في ديوان بشار »، وقد صدر بدمشق عن مجمع اللغة العربية.

ونظر العلامة المرحوم أحمد راتب النفاخ في تحقيق الدكتور مازن المبارك لكتاب اللامات، للزجاجي، الذي طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق عام (١٣٨٩/١٩٦٩) عن نسخة وحيدة له مخطوطة، فوجد فيه كثيراً من الأخطاء والأوهام، فنشر مقالاً له حول ذلك في مجلة

العرب (السنة الخامسة - الجزء الأول رجب ١٣٩٠ - أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ص ص ١٩٦ - ٢٠١) بعنوان: نظرات في كتاب اللامات. ومما جاء فيه على سبيل المثال لا الحصر، أن الأستاذ النفاخ بعد أن درس نسب المخطوطة وملابساتها أخذ على الدكتور قوله في النسخة: " هي نسخة كاملة، واضحة، لم تعبها وحدتها ولم تقعدنا عن تحقيقها " فعلق قائلاً بعد تفصيل وصف المخطوطة: " وما كانت هذه سبيله فمن حطال الرأي أن يرفع إلى مرتبة الأصول التي لا تعبها وحدتها " وذلك لأنَّ النسخة مؤرّفة نالها من عبث النساخ عنتٌ شديدة فصحّف غير قليل من ألفاظها تصحيفاً منكراً وسقط في مواضع كثيرة منها ألفاظ وعبارات أحلّ سقوطها بمعاني الكلام... ولم ينتبه المحقق الدكتور المبارك إلى كثير من هذه المواضع ومن أمثلة ذلك :

١ - أن الناشر المحقق لم ينتبه إلى تصحيف ورد في الأصل المطبوع (ص ٤ برقم ١٨) وهو كما يلي: " لام تدخل بين الفعل المستقبل لازمة في القسم ولا يجوز حذفها ". صوابها " تدخل في الفعل " وكان لدى المحقق مرجّحات لهذه القراءة لو عاد إلى كتاب الغيث المسجّم ١/١٣٢، وإلى كلام المؤلف نفسه في عنوان الباب الذي عقد لهذه اللام (ص ١١٣) من الكتاب المطبوع.

٢ - جاء في ص ٢٢ في باب لام التعريف ما نصّه: " وقد تدخل لضرب بالشبه من التعريف... " فعلق الأستاذ النفاخ على ذلك بقوله: " وليس للعبارة على هذه الصورة معنى يُعقل إنما هو من صنع الناسخ ".

٣ - ومن أشكال التصحيف التي غفل عنها المحقق أنه قرأ كلمة (الأسماء) (الأشياء) وهو خطأ بيّن فاضح، فقد وردت العبارة التالية هكذا: " لأنّ التنكير يخفف الأشياء ويمكنها... " فقال الأستاذ النفاخ: " والصواب الذي لا يقوم المعنى إلاّ به: (الأسماء).

٤ - ومن أمثلة أخطاء الضبط التي وقعت في المطبوع، أن المبارك ضبط (ضربت) في

بيت الأسود بن يعفر التالي بالفتح:

ومن البليّة لا أبا لك أنفي ضَرَبْتَ عَلِيَّ الْأَرْضُ بِالْأَسْدَادِ

والصواب ضم الضاد في (ضربت).
ومنها أيضاً أنه ضبط بيت امرئ القيس التالي كما يلي:

لِيَوْمِ بَدَاتِ الطَّلْحِ عِنْدَ مُحَجَّرٍ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ لِيَالِ عَلِيٍّ وَقَرِّ

فعلّق الأستاذ النفاخ بقوله: " فإنه ما كان يجدر بالناشر أن يضبط الرءاء من (وقر) بالكسر وقد رأى في الديوان أن القصيدة مُقَيِّدة الروي - (الديوان ص ١٠٩)، والحق أن رواية البيت في الديوان هي كما يلي: « لِيَالِ بَدَاتِ... عَلَى أُقْرِ ». هذا وقد بلغت استدراقات النفاخ وتصويباته لهذه الطبعة ما يقرب من ثلث الكتاب. وقد تداركها الدكتور المبارك في طبعته الثانية للكتاب التي صدرت عن دار الفكر بدمشق سنة ١٤٠٥ / ١٩٨٥ م.

ويقع الباحث في كتاب الدكتور رمضان عبد التواب (مناهج تحقيق التراث بين القدامى والحديثين) الصادر في القاهرة عام ١٤٠٦ / ١٩٨٦ على ثماني مقالات ديجت في مراجعة كتب تراثية محققة، وفي تصحيحها وتصويبها، وهي تدور حول: كتاب الزهر للسيوطي، بتحقيق محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البحراوي، وحول لحن العوام لأبي بكر الزبيدي، بتحقيق الدكتور عبد العزيز مطر، ورسائل في اللغة بتحقيق إبراهيم السامرائي، وهي أربع رسائل الأولى « خلق الإنسان » لأبي اسحق الزجاج، والثانية « القول في ألفاظ الشمول والعموم والفصل بينها » لأبي علي المرزوقي، والثالثة: " ما يذكر ويؤنث من الإنسان واللباس " لأبي موسى الحامض، والرابعة: مقتطفات من كتاب المسائل والأجوبة، لابن السيد البطليوسي. والمقال الرابع هو حول كتاب نور القبس من المقتبس للمرزباني، تحقيق المستشرق الألماني (رودلف زولهنايم)، والمقال الخامس كتاب العين، بل الجزء الأول منه، بتحقيق عبد الله الدرويش. والسادس حول رسائل في اللغة والنحو، وهي ثلاث رسائل تضم كتاب تمام فصيح الكلام لابن فارس، وكتاب الحدود في النحو للرماني، وكتاب منازل الحروف للرماني كذلك، وقد حققها الدكتوران مصطفى

جواد ويوسف يعقوب مسكوني. والمقال السابع كان حول شعر عمرو بن أمهر الباهلي، بتحقيق حسين عطوان (طبع بجمع اللغة العربية بدمشق). والثامن والأخير كان حول كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة، للقزاز القيرواني، بطبعته اللتين كانتا: الأولى بتحقيق المنجي الكعبي، وصدرت بتونس ١٩٧١، والثانية بتحقيق محمد زغلول سلام ومحمد مصطفى هدارة، صدرت في القاهرة .

ومن الأمثلة على ما تقدم، ما سجله الدكتور عبد التواب حول كتاب الزهر للسيوطي في طبعته المذكورة سابقاً، ويتلخص فيما يلي:

- الإخلال بواجب العودة إلى جميع مخطوطات الكتاب قبل نشره وهي كثيرة.
- الوقوع في بدعة إضافة نصوص إلى أصل الكتاب لم يسجلها فيه السيوطي.
- عدم ضبط العبارات المنقولة عن « الغريب المصنف ». وإحدى مخطوطات « الغريب المصنف » موجودة بين أيديهم.

- الخطأ في ضبط بعض العبارات فيه.
 - الرجوع إلى مصادر ثانوية، في تصحيح بعض العبارات.
 - إقرار التحريف وتخطئة المصادر الصحيحة.
 - الأخطاء المطبعية.
 - الخلل الواسع الكثير في الفهارس المصنوعة في ختام هذه الطبعة.
- والخلاصة أن هذا باب من العلم لا تنفع فيه عجرفة أو جاهلية، أو (أنا) مُتَمَكِّنة حمقاء، لأنَّ أحداً يكاد لا يعرى منه. وقد صدق القول القائل: " وفوق كل ذي علم عليم ". وينبغي لنا أن نحتاط فنقول: إنَّ ما سبقت الإشارة إليه لا يسوِّغ لنا أن نعطي شأن المتابعة على شأن المبادرة، ولا أن نرفع أمر التعقب على أمر المبادرة في العمل والاجتهاد. وقد حمل قول الشاعر القديم " كفى المرء نبلاً أن تُعدَّ معاييه ". ومن المسلم به أن للمجتهد الأول أجرين: واحداً إذا عمل وأخطأ، وثانياً: إذا عمل وأصاب.

بيد أن هذا الظاهرة التي وقفنا عندها بإيجاز، ولم نستوفها، تبقى ظاهرة صحية
وسليمة وُجدت في مصنفات أسلافنا، ولا بد لنا من أن نستلهمها في أعمالنا المعاصرة، على
أن لا نبخس الناس أشياءهم، وألاً تتعنت عند سماع كلمة الحق وصوت الصواب.
والذي يبدو لي أخيراً أننا، بوصفنا أفراداً، كما لا نملك الحقيقة وحدنا في الفكر
والاعتقاد، كذلك لا نملك الصواب وحدنا في العمل والاجتهاد. فلا مناص إذاً من التحلي
بروح الورع والتواضع، والتحمل في قول الحق، والإذعان للصواب، والإيمان بمبدأ التعاون
الصادق في القول والفعل، للوصول إلى الشأو المرجى والغاية المنشودة.



مسرد الكتب التي قام عليها كتاب أو اشْتَدْرِكُ عليها أو تُعَقَّبَت أو صُحِّحَت مما أشير إليه هنا:

- ١ - القرآن الكريم (تآليف حوله).
- ٢ - الكتاب، لسيبويه (متابعات وتصحيحات).
- ٣ - إصلاح المنطق، لابن السكيت (متابعات وتعقبات).
- ٤ - معجم العين، للخليل أحمد الفراهيدي (متابعات وتعقبات).
- ٥ - الصحاح، لُجوهري (متابعات وتصحيحات).
- ٦ - القاموس المحيط، للفيروز أبادي (متابعات وتعقبات).
- ٧ - المعلقات (شروح).
- ٨ - المفضليات (شروح).
- ٩ - ديوان المتنبي (شروح).
- ١٠ - سرقات المتنبي ومُشْكِل معانيه المنسوب خطأ إلى ابن بسام النحوي (تصحيح نسبة الكتاب).
- ١١ - الأملالي، للقالبي (متابعات وتعقبات).
- ١٢ - تاريخ الطبري (متابعات).
- ١٣ - تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر (متابعات واختصارات).
- ١٤ - وفيات الأعيان، لابن خلكان (متابعات).
- ١٥ - طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى (متابعات وذيول).
- ١٦ - كتاب أغلاطي، المنسوب خطأ إلى صفي الدين الحلبي (تصحيح النسبة).
- ١٧ - الأضداد، المنسوب خطأ إلى الأصمعي (تصحيح النسبة).
- ١٨ - الإبدال والمعاقبة والنظائر، للزجاجي (تصحيح العنوان).
- ١٩ - النوادر في العربية، المنسوب إلى أبي هلال العسكري (تصحيح العنوان والمؤلف).

- ٢٠ - الأشباه والنظائر، المنسوب إلى الثعالبي خطأ (تصحيح نسبته إلى ابن
الحريري).
- ٢١ - منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر، المنسوب إلى الثعالبي.
- ٢٢ - العقد الفريد لابن عبد ربه (تصحيحات وتعقبات لأخبار دُست فيه).
- ٢٣ - تصحيحات مختلفة لروايات للشعر مغلوبة، وقع فيها الأصمعي، وأبو زيد،
وثعلب وآخرون من خلال كتاب الخصائص، والتكملة والذيل والصلة للصغاني.
- ٢٤ - كتاب خريدة القصر وجريدة العصر (تحقيق شكري فيصل) (ملاحظات
وتعقبات).
- ٢٥ - أخبار البحري، للصولي (ملاحظات وتعقبات).
- ٢٦ - ديوان ابن أبي حصينة (ملاحظات وتعقبات).
- ٢٧ - تعريف القدماء بأبي العلاء (ملاحظات وتعقبات).
- ٢٨ - ديوان ابن الساعاتي (ملاحظات وتعقبات).
- ٢٩ - ديوان ابن الرومي تحقيق حسين نصار (ملاحظات وتعقبات).
- ٣٠ - اللآمات، للزجاجي، تحقيق مازن المبارك (ملاحظات وتعقبات).
- ٣١ - المزهر، للسيوطي.
- ٣٢ - لحن العوام، للزبيدي.
- ٣٣ - أربع رسائل في خلق الإنسان، للزجاج، والمرزوقي، وأبي موسى الحامض،
وابن السيد البطلوسي (ملاحظات وتصويبات).
- ٣٤ - كتاب العين (الجزء الأول).
- ٣٥ - رسائل في اللغة والنحو، وهي ثلاث: كتاب تمام فصيح الكلام، لابن فارس،
والحدود في النحو ومنازل الحروف وكتناهما للرماني (ملاحظات وتصويبات).
- ٣٦ - شعر عمرو بن أحمr الباهلي، طبع بجمع اللغة العربية بدمشق (ملاحظات
وتصويبات).
- ٣٧ - ما يجوز للشاعر في الضرورة، للقزاز القيرواني (ملاحظات وتصويبات).

التصنيف بالشعر في التراث العربي

نقصد بالتصنيف بالشعر عند العرب نَظْمَ الكتاب أو المصنّف شعراً، سواء كان هذا الكتاب لغوياً أو نحوياً، أو صرفياً، أو عروضياً، أو بلاغياً، أو أدبياً قصصياً، أو فقهياً، أو زراعياً، أو ملاحياً، أو فلكياً، أو رياضياً، أو كيميائياً، أو طبيّاً، أو تاريخياً....
والحقيقة أننا سنُعين فيما يلي من هذا الدراسة آثاراً شعرية تتصل بكل علم من العلوم السابقة. وربما نذكر نَفْأً من الأشعار التي كانت قوام كل مؤلّف أو مصنّف، للتدليل والتمثيل.

وقد كان العرب، وما زالوا، أُمَّةَ الشعر، والشعر كان، منذ الجاهلية، ينال على كل لسان أو يكاد ! وكانت العرب تعلي شأن الشاعر أيما إعلاء، فقبائلهم حين ينبغ فيها شاعر " تأتي القبائل لتهنئتها، وتصنع الأظعمة، وتجمع النساء ليلعين في المزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم، وتخليدٌ لمآثرهم، وإشادة بذكورهم " (العمدة ١ : ٦٥).

إن الروح الشعرية الطاغية قد ضربت جذورها في أعماق النفس العربية، ثم سرت في دماء العرب عامة، فألت بالشعر إلى أن يحتلّ مكانةً سامية في النفوس والعقول معاً، حتى إن بعض المصنّفين والعاملين في ميدان التأليف والبحث لم يتردد في التباهي بموهبته الشعرية، فسخرها للتأليف والتصنيف، وراح ينظم بعض معارفه شعراً، وخاصة تلك التي برع فيها وتعمّقها وأخصاها، وذلك تغلياً لرونق النظم وظله الخفيف، على جفاف النثر وظله الثقيل، ورغبة في تسهيل حفظ ما يُرى نفع في حفظه، فرواية الشعر المضطرب الوزن، تذكر القارئ أو السامع، بأن خللاً فيه قد وقع، فيتدارك ما اختل، ويتذكر ما سقط، ويصحح ما جاء فاسداً... فتأتي المعلومة صحيحة وكاملة ومضبوطة.

والأمثلة على ما تقدم كثيرة، بل وكثيرة جداً. ففي ميدان اللغة، وهو ميدان صال فيه العرب وجالوا، واستأثر بالجزم من جهودهم الفكرية، نقع على منظومة في " غريب اللغة وشرحه " لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (٣٢٨هـ) عنوانها " قصيدة في مشكل اللغة " نشرها الأستاذ عز الدين البلوي النجار في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٦٤ ، ج ٤ ، عام ١٩٨٩ م) ، وقد افتتح أبو بكر الأنباري قصيدته بقوله:

يا مُدْعِي عِلْمِ الْغَرِيبِ وَالْقَرِيضِ وَالْمَثَلِ
نَمَّقْنِي جَوَابِي: مَا الْقَزِيحُ وَالشَّقِيحُ وَالْأَلُّ

ويجيب الأنباري نفسه عن سؤاله شارحاً: " قال أبو عبيدة: القريض: هو القصيدة من الشعر خاصة دون الرجز. والقزيع فيه قولان. قال أبو بكر: القزيع: المليح. تقول العرب: مليح قزيع. وقال آخرون: القزيع: العجيب. قال أبو بكر: والشَّقِيح: القبيح، يقال قبيح شقِيح. والألل: قال أبو عمرو: البرق ". ثم يضيف الأنباري في قصيدته:

وَمَا الْعِمَارُ وَالْقِمَارُ وَالْحَبَارُ وَالسُّفْلُ ؟

ويعضي شارحاً بعده الكلمات التي ساقها في البيت، معتمداً في ذلك على أئمة اللغة، كصنيعه في البيتين السابقين.

ولم تكن قصيدة أبي محمد بن القاسم الأنباري فريدة في بابها، فقد ذكر ابن النديم في « الفهرست » تحت عنوان: (القصائد التي قيلت في الغريب): " قصيدة الشرقي بن القطامي " و " قصيدة موسى بن حرنيد " و " قصيدة يحيى بن نجيم " و " قصيدة الأبراري " و " قصيدة شبل بن عزرة " و " قصيدة أحمد الأنباري " (الفهرست ص ١٩٦).

وفي كُتُب فهارس المخطوطات نطالع إشارات إلى مخطوطات شرحت قصائد في اللغة، مثل: " شرح مثلث قطرب " (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) لجهول، ومثل شرح منظومة

ثعلب المسمى " الموطأ في اللغة " وقد نهض به عبد الوهاب بن الحسن بن بركات المهلي
(٦٨٥ هـ) وأولها بعد البسمة:

يَا مُؤَلِّعاً بِالْفُضْبِ وَالْمَجْرُ وَالْتَجَنِّبِ
حَيْثُكَ قَدْ بَرَّحَ بِي فِي جِدِّهِ وَاللَّعْبِ

(انظر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، علوم اللغة العربية ص ٩٧ ، ٩٨).
وذكرت كتب التراث أيضاً أن لابن مالك النحوي الطائي (٦٧٢ هـ) أرجوزة في
ثلاثة آلاف بيت بعنوان (الإعلام بمثلث الكلام). وفيها ذكر الألفاظ التي لكل منها ثلاثة
معان باختلاف حركاتها (انظر مقال رزوق فرج رزوق: "الشعراء التعليميون والمنظومات
التعليمية" في مجلة المورد العراقية مج ١٩ ، ع ١ ، ص ٢١٦).

وفي ميدان النحو الذي حظي هو الآخر بحفاوة بالغة من ذوي الهم العلمي عند
العرب، نطالع لجمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الأندلسي، وهو من أعظم نحاة
القرن السابع شهرة، وقد ذكرناه من قبل، نطالع قواعد النحو العربي وقد نُظمت في ألف
بيت. وعرف هذا العمل فيما بعد بـ " ألفية ابن مالك ". وكانت هذه الألفية خلاصة نحوية
مركزة ظفرت بشرح أكثر من أربعين عالماً. وفي هذه الألفية يقول ابن مالك في باب الكلام
وما يتألف منه مثلاً:

كلامنا لفظٌ مفيدٌ فاستقمَّ واسمٌ وفعلٌ ثم حرف الكلم

ونقرأ له في باب (المبتدأ والخبر) قوله:

مبتدأٌ زيدٌ، وعاذرٌ خيرٌ إن قلتُ: زيدٌ عاذرٌ من اغتذِرَ

وكذلك نراه يجمع (إنَّ) وأخواتها وعملها، الذي يخالف عمل (كان) وأخواتها،

في قوله:

لأن إن لیت لکن لعل کأن، عکس ما ل (کان) مِن عمل

ومن الكتب النحوية المهمة التي نُظمت شعراً " الآجرومية " وهي مقدمة في النحو ألفها أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود بن آجروم الصنهاجي (٧٢٣هـ). وكان فقيهاً ونحوياً ولغوياً ومقرئاً وشاعراً. ولم يكن من أهل (فاس) في وقته أعلم منه في النحو. وقد نظم " الآجرومية " ميمون الفخار، والعربي الفاسي، ومحمد نوي. واسم كتاب النوري هذا " النفحة المسكية في نظم الآجرومية "، وشرف الدين يحيى بن موسى العمريطي (٩٨٩هـ) الذي سُمِّي كتابه " الدرّة البهية في نظم الآجرومية "، وهو مطبوع ضمن مجموعة من المتون بما في ذلك الآجرومية ذاتها، بعناية أحمد سعيد علي، بالقاهرة عام ١٩٤٩ م.

ونظم " الآجرومية " أيضاً عبد الله بن الحاج الشنقيطي (١٢٠٩هـ). وللشنقيطي هذا مؤلفات عدة، أغلبها منظوم، منها مثلاً: نَظْمُ كتاب مختصر الخليل، ونظم الخزرجية في العروض، ونظم رسالة ابن أبي زيد القيرواني. ومن أمثلة نظم الشنقيطي للآجرومية قوله:

فبال غَيْثُ رَبِّهِ مُحَمَّدٌ	الله في كلِّ الأمور أحمدٌ
مُصَلِّياً على الرسولِ المتقى	وآله وصحبه ذوي النقى
والعهد والقصد بلدا المنظوم	تسهيل منشور ابن آجروم

وفي باب الاعراب يقول:

الاعراب تعبيرٌ أو آخرِ الكَلِمِ	تقديرًا أو لفظاً فلذا الحد اغتصم
وذلك التعبيرُ لا يضطرب	عوامل تدخل للاعراب
أقسامه أربعة تُؤمُّ	رفع ونصبٌ ثم خفضٌ جزمٌ
فالأولان دون رَيْبٍ وقعا	في الاسم والفعل المضارع معا
فالاسم قد خُصَّصَ بالجرِّ كما	قد خُصَّصَ الفعلُ بالجزمِ فاعلما

(انظر مقال الأستاذ خليفة بديري: نظم متن الآجرومية، في مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس العدد ٦ ص ٢٦٢ فما بعدها).

وكذلك نظم السيوطي (٩١١هـ) ألفية في النحو سماها (الفريدة) - وهي مطبوعة. ولها شرح بعنوان " المطالع السعيدة في شرح الفريدة ".

وإذا تركنا النحو، وانتقلنا إلى علم الصرف، وهو علم يهتم ببنية الكلمة العربية وبأوزانها ومجردها ومزيدها، وإبدالها وإعلالها، وجامدها ومشتقها، وقعنا على أمثلة كثيرة من نظم (الصرف)، منها مثلاً " قصيدة أبنية الأفعال " التي نظمها ابن مالك صاحب الألفية النحوية المشار إليها سابقاً. وهذه القصيدة التي تسمى أيضاً بلامية الأفعال، شرحها ابن الناظم ذاته، واسمها بدر الدين محمد بن محمد (٦٨٦هـ). وقد جاءت القصيدة على البحر البسيط، وتقع في (١١٤) بيتاً. ونشر شرح الابن عليها الدكتور ناصر حسين علي بدمشق عام ١٩٩٢ بعنوان " زبدة الأقوال في شرح قصيدة أبنية الأفعال ".

وإذا طالعنا كتاب (فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق - علوم اللغة العربية) ننع على منظومة صرفية أخرى بعنوان " التصريف في التصريف " نظمها عبد الرحمن بن عيسى العمري المرشدي المكي (١٠٣٧هـ) وأولها:

أفضل ما إليه تصريفُ إهممُ بحسنِ حمدِ اللهِ وقابِ التعممِ

وتقع هذه المخطوطة في (١٢) ورقة ورقمها ١٠٨٥٩ (انظر فهرس مخطوطات الظاهرية - علوم اللغة العربية ص ٤٥٧).

وقد ألف ناصيف اليازجي اللبناني المعاصر كتاباً سماه " الجمانة في شرح الخزانة ". وهذا الكتاب هو أرجوزة في علم الصرف أسماها (الخزانة)، ثم علق عليها شرحاً لها سماه " الجمانة ". وطبع هذا الكتاب في بيروت سنة ١٨٧٢ م. يقول ناصيف اليازجي في فاتحة كتابه مثلاً:

أقول بعد حمدِ ربِّ محسنٍ لا علمَ لي إلا الذي علمني

قد اصطنعتُ هذه الخزانة
جعلتها في الصرف مثل القطب
حاويةً من شرحها الجمانه
فقلتُ والله الكريم حسي

ثم قال:

الصرفُ عِلْمٌ بِأَصُولِ تَعْرِفُ
والأحرفُ التي ابْتَنَى مِنْهَا الْكَلِمُ
بِهَا مَبَانِي كَلِمٍ تُصَرِّفُ
إِلَى صَحِيحٍ وَعَلِيْلٍ تَنْقَسِمُ
وَأَحْرَفِ الْعِلَّةِ وَأَوْ أَلْفِ
وَالْيَاءِ وَالْبَاءِ بِصَحَّةٍ وَصِرْفِ
وَتَشْرِكِ الْهَمْزَةِ حَرْفِ الْعَلَّةِ
فَلْتَكُ بَيْنَ بَيْنٍ فِي الْخَلَّةِ

وفي مجال علوم اللغة العربية الأخرى كالبلاغة وفروعها، كعلم المعاني، والبيان، والبديع، يمكن للمرء أن يشير إلى جهود ابن الشحنة (٨١٥هـ) واسمه أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد بن أيوب الحلبي الذي ألف منظومة في علم المعاني والبيان البديع، وقد شرح هذه المنظومة محمد بن تقي الدين أبو بكر الحموي الدمشقي المحبي (١٠١٠هـ). ومن هذا الشرح نسخة مخطوطة تقع في (٦٨) ورقة في دار الكتب الظاهرية (انظر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية - علوم اللغة ص ٣١٩ - ٣٢٠).

وكذلك ألف السيوطي (٩١١هـ) قصيدة أسماها " عقود الجمال " وهي في عِلْمِ المعاني والبيان، وقد شرحها بنفسه. ومن هذا الشرح نسخة بين مخطوطات الظاهرية (انظر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية - علوم اللغة ص ٣١٦).

كما يمكن المرء أن يشير في مجال البديع وحده إلى منظومة للشيخ الامام زين الدين يحيى بن معطي المغربي الزواوي (٦٢٨هـ) جمع فيها شواهد البديع من أشعار الميرزين من الشعراء، وذلك بأن حدّد نوع البديع، ثم أعطى الشاهد عليه، وأولها بعد البسملة:

يقول ابنُ معطٍ قُلْتُ لَا مُتَعَايَا مَقَالَةٌ مِنْ يَرْجُو الرُّضَى وَالْتَعَايَا

ومن هذه المنظومة نسخة في دار الكتب الظاهرية تقع في ٩ ورقات، ضمن مجموع عدد أوراقه ٢٧ ورقة (انظر الفهرس المذكور سابقاً ص ٢٠٨).
وفي مجال العروض مرّ بنا ذكر نظم الشنقيطي للخزرجية في العروض قبل قليل. ونطالع في فهارس المخطوطات آثاراً أخرى في هذا الفن، منها منظومة في العروض لمحمد بن الحسن الحسيني الشافعي الهروي (٦٧٦هـ) وأولها بعد البسملة:

أحمدُ مَنْ صَلَّى على مُحَمَّدٍ وآله مجومٌ كلُّ مُهْتَدٍ

وهي من مخطوطات الظاهرية، وقد كتبها ناظمها نفسه. وتقع في أربع ورقات - (انظر فهرس مخطوطات الظاهرية - علوم اللغة ص ٤٤٠).
وأشار صاحب " معجم المؤلفين " إلى أن إبراهيم بن عبد الله بن جهمان اليميني الزبيدي (١٠٨٣هـ) قد ألف مقطوعة في العروض سماها (آية الحائر) - (انظر معجم المؤلفين ١ : ٥). وبين مخطوطات الظاهرية مخطوطة بعنوان " هالة العروض " وهي أرجوزة نظمها محمد صالح بن أحمد بن سعيد المنير الدمشقي (١٣٢١هـ). قدّم بها لعلم العروض وتناول فيها الزحافات والعلل والأبحر والدوائر العروضية، وختمها بالقاب الأبيات، أمّ نظمها في (الآستانة) في شعبان سنة ١٢٩٩ هـ وأولها بعد البسملة:

يقول صالح بن أحمد السري القدوة المشهورُ بالنير

وهي نسخة بخط ناظمها، وتقع في (٨) ورقات (انظر فهرس علوم اللغة المذكور ص ٤٤٢).

وفي ميدان الأدب القصصي جرّب (أبان بن حميد اللاحقي)، وهو شاعر إسلامي من أهل البصرة، جرّب قدرته على النظم في صياغة كتاب كليلة ودمنة شعراً. وقد استغرق نظمها لهذا الكتاب ثلاثة أشهر. وبلغت أشعاره (١٤) ألف بيت، وقدمه إلى يحيى بن خالد الريمكي، فكافأه هذا بعشرة آلاف دينار.

ويُجد في كتاب (الأوراق) للصولي (٣٣٥ هـ) من هذا النظم ما يربو على (٨٠) بيتاً. وأول ذلك النظم قول أبان اللاحقي:

هذا كتاب أدبٍ ومحنة وهو الذي يُدعى كليله ودمنة
فيه أحيالاتٍ وفيه رشدٌ وهو كتابٌ وضعته الهندُ

ومن نظمه مثلاً في باب الأسد والثور من كتاب كليله ودمنة:

وإنَّ مَنْ كَانَ دَنِيَّ النَّفْسِ يَرْضَى مِنَ الْأَرْفَعِ بِالْأَخْسِ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ الشَّقِيِّ الْبَائِسِ يَفْرَحُ بِالْعَظْمِ الْعَتِيقِ الْيَابِسِ
وإنَّ أَهْلَ الْفَضْلِ لَا يَرْضِيهِمْ شَيْءٌ إِذَا مَا كَانَ لَا يَرْضِيهِمْ

وذكر الصولي أيضاً أنَّ "أباناً" هو الذي عمل القصيدة (ذات الحلال)، وفيها ذكر مبتدأ الخلق وأمر الدنيا وأشياء من المنطق، وغير ذلك، وهي قصيدة مشهورة. ومن الناس من ينسبها إلى أبي العتاهية، والصحيح أنها لأبان - (انظر كتاب الأوراق للصولي، تحقيق ج. هيورت، بيروت، ط ٢ / ١٩٧٩، ص ١ و ص ٤٦ - ٤٨).

وقد نظم كليله ودمنة أيضاً ابن الهبّارية (٥٠٤ هـ) وهو الذي نظم أيضاً كتاب (الصادح والباغم). ومن ناظمي كتاب الفيلسوف الهندي، محمد الجلال، وعبد المنعم بن حسن، وعلي بن داود كاتب زبيدة - زوج الرشيد، وجمال الدين النقاش من القرن التاسع الهجري.

وفي مجال الفقه الاسلامي نظم محمد بن علي الرحبي (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) أرجوزة في أحكام الإرث الاسلامي، وعرف كتابه بمتن الرحبية نسبةً إليه. وقد شرح هذا المتن كثيرون من العلماء، منهم: أبو بكر أحمد السبتي، وجمال الدين السيوطي، وعبد القادر الفيومي، ومحمد بن صالح الغزي، ومحمد بن محمد المارديني، وشرح هذا الأخير مطبوع. وكذلك شرح الرَّحْبِيَّة محمد بن خليل بن ممليون وسمى شرحه: (تحفة الاخوان البهية على

المقدمة الرحبية). وقد حقق هذا الشرح الأستاذ السائح علي حسين، وطبعه في طرابلس بليبيا عام ١٩٩٠ م، تحت عنوان (التحفة في علم الموارث). وفي أسباب الميراث نقرأ قول الرحي (التحفة في علم الموارث ص ٨٥):

أسبابُ ميراثِ الوري ثلاثة كلُّ يقيد رئةَ الورثة
وهي نكاحٌ وولاءٌ ونسبٌ ما بعدهنَّ للموارثِ سببٌ

ويقول في موانع الإرث (التحفة ص ٨٩):

وَمَنْعَ الشَّخْصِ مِنَ المِراثِ واحِدَةً مِنْ عِلَلِ ثَلَاثِ
رِقًا وَقَتْلًا وَاخْتِلافُ دِينِ فَافْهَمْ، فَلَيْسَ الشُّكُّ كَالْيَقِينِ

ويقول في باب أصحاب الثمن (التحفة ص ١٠٢):

وَالثَّمْنُ لِلزَّوْجَةِ وَالزَّوْجَاتِ مَعَ البَنِينَ أَوْ مَعَ البَنَاتِ
أَوْ مَعَ أولادِ البَنِينَ فَاعْلَمْ وَلَا تَظُنُّ الجَمْعَ شَرْطًا فَافْهَمْ

ومن الكتب القريبة من الفقه والشرع وصلتنا كتب تعالج قضية الإمامة في الاسلام

منذ وفاة الرسول ﷺ إلى عصر كاتبها. ومن تلك الكتب كتاب بعنوان (الأرجوزة المختارة) للقاضي النعمان (٣٦٣هـ). وقد حققها إسماعيل قريان حسين، ونشرها ضمن منشورات معهد الدراسات الاسلامية في (مونتريال) بكندا. وهذه الأرجوزة تلقي ضوءاً على موقف الفرق المختلفة من قضية الإمامة، والأدلة التي قدّمتها كل فرقة، وتعد هذه الأرجوزة، التي ألّفت في أيام الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله، من أقدم النصوص الفاطمية في الإمامة، وفي مطلعها يقول الناظم مثلاً:

الحمدُ لله بديعِ ما خلَقَ عن غيرِ تمثيلٍ على شيءٍ سبقَ
بل سبقَ الأشياءَ فابتدأها خلقاً كما أراد إذ يراها

ومن كتب الفرق المنظومة شعراً " القصيدة الصورية " التي ألّفها الداعي الإسماعيلي الأجل محمد بن علي بن حسن الصوري، وحقّقها عارف تامر، ونشرها في نطاق منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق عام ١٩٥٥م. وهي كما قال ناشرها:

" أقدم المصادر عن الإسماعيلية، ومن أهم الرسائل التي تنطق بالحقائق، وتمثل العقائد أصدق تمثيل، ومن أحسن المراجع في تاريخ قصص الأنبياء وعدد الأئمة المنحدرين من الإمام علي بن أبي طالب حتى الإمام المنتصر بالله الفاطمي.. ولذلك كانت تتناقلها الدعاة ويحافظون على سرّيتها وعدم تسريبها، وليس بالغريب إذا قلت إن أكثرهم كان يحفظها غيباً بالنظر لاعتمادهم على بيانها الرائع وأصولها وفروعها، ومتانة أسلوبها وترتيبها."

ومؤلف هذه القصيدة هو محمد بن علي بن حسن، كانت مدينة (صور) مسقط رأسه، لذا نُسبَ إليها، وقد عاش رداً في طرابلس داعية للفاطميين، وقام بالرحلة في طلب العلم والحديث. وقيل إنه سمع بالكوفة من أربعمئة شيخ، وهبط القاهرة في عهد الامام المستنصر بالله الفاطمي. واستوطن بغداد سنة ٤١٨هـ، وقد توفي فيها سنة ٤٤١هـ.

والحقيقة أن هذه الأرجوزة الإسماعيلية ليست الوحيدة في تراثنا. فقد شاعت الأراجيز في العهود الفاطمية، واستعملت للدعاية وللتعبير عن الموضوعات الفلسفية والتعاليم العقائدية - (انظر ص ١٧ من القصيدة الصورية)، ولكي نعرف طريقة هذه المنظومات نسوق هنا مطلع القصيدة الصورية، وهي في باب القول بالحمد والاستفتاح (ص ٢٣)

الحمْدُ لله فِعْلُ العِللِ	ومبدعِ العقلِ القديمِ الأزَلِ
أبدَعَهُ بأمرِهِ العَظِيمِ	بلا مِثالِ كانِ في القديمِ
وصيّرَ الأشياءَ في هويتِها	مجموعَةً بأسرها في قدرِها
فهو لها أصلٌ كريمٌ يجمعُ	فمنه تبدو وإليه ترجعُ
سبحانه منْ مَلِكٍ دِيانِ	العقلِ والنفسِ له عبدانِ
جلُّ عن الإدراكِ في الضمائرِ	والوصفِ بالأعراضِ والجواهرِ

وفي مجال الفلاحة، نقرأ لسعد بن أحمد بن ليون التجيبي (٧٥٠ هـ) أرجوزة تشمل (١٣٠٠) بيت. نشرها في غرناطة، عام ١٩٧٥ (جواكينا أجوارس أبانيث).
وقد كان ابن ليون التجيبي عالماً موسوعياً له ولعٌ باختصار الكتب، وتلمذ على يديه في (المرية) من أعلام الأندلس ابن خاتمة الأنصاري، ولسان الدين بن الخطيب، وابن جعفر بن الزبير، وابن رشيد الفهري. وسمى (ابن ليون) أرجوزته " كتاب إبداء الملاحاة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة ". وقد عدد المؤلف في كتابه هذا أركان الفلاحة شعراً، فكانت حسب قوله:

وهي الأراضي والمياه والزبول والعمل الذي يياه يطول

ونراه يشير إلى الأرض وما يحفظها أو يفسدها، فيقول مرتجراً:

الفول والرمس والكسبان	تحفظ الأرض وكذا الجلبان
والدخن مضعف لها والجلجلان	وما يكرّر بها كل زمان
وورق الحمص والكرسنة	مفسدة للأرض باللوحة

ويجده يشير في موضع آخر إلى أعمار الثمار والنبات في نظره، فيقول معتمداً على أقوال (ابن بصّال) و (الطغفري)، وهما عالمان في الزراعة أيضاً:

وغمز الزيتون من عدّ السنين	ثلاثة الآلاف حين بعد حين
وفي الصنوبر عن ابن بصّال	بمئتي عام يقول استكمال
والطغفري قال: ما لا يسقط	ورقة، أعمر مما يسقط
أكثر الثمار يبلغ المائته	أو، نحوها، وقد ترسد تبقية
وكل ما في النشء منها يسرع	فعمرة أقصر لا يتسع

(انظر مقال أمين توفيق الطيبي في مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس: كتب الفلاحة الأندلسية-ارجوزة ابن ليون في الفلاحة العدد ٦ ص ٣٥٤ فما بعدها).

وفي مجال الملاحة يقع الباحث على أراجيز كثيرة، فيطالع لابن ماجد (المتوفى بعد ٩٠٤هـ) الملقب بأسد البحر الذي أرشد قائد الأسطول البرتغالي (فاسكو داغاما) في رحلته لاستكشاف طريق الهند من خلال رأس الرجاء الصالح، أرجوزة، اسمها "حاوية الاختصار في أصول علم البحار". وقد نشر هذه الأرجوزة الأستاذ إبراهيم خوري بدمشق ضمن منشورات المعهد العلمي الفرنسي. يقول ابن ماجد في تقديم أرجوزته:

يا أيُّها الطالبُ علمَ اليمِّ	إليك نظماً يا له من نظمٍ
في العلمِ والميئةِ والحسابِ	وما هو استبطن للصوابِ
إن كنت ممن جدَّ في العلومِ	وذاكر الأستاذ كلَّ يومٍ
يفنيك عن زَهْمِ لِمَجَاتِ النَّثْرِ	هذا الذي نظمته بالشعرِ

وفي ميدان الرياضيات يمكن أن نشير إلى أرجوزة (ابن الياسمين) في الجبر والحساب. وابن الياسمين هو عبد الله بن الحجاج المعروف بابن الياسمين. وهو من أهالي (فاس). وقد أفرغ علمه في هذه الأرجوزة الشهيرة، وتوفي ابن الياسمين عام (٦٠٠هـ). وقد بدأ ابن الياسمين بوضع تعريف شامل وهام لمجال علم الجبر، فقال:

على ثلاثة يدور الجبرُ المأل والأعداد ثم الجذرُ

ثم عرّف المقصود بالمأل في البيت الثاني، فقال:

فالمأل كلُّ عددٍ مربّع وجذره واحدٌ تلك الأضلع

والعدد عند (ابن الياسمين) هو الشيء، أو العدد المجهول، ومربعه هو الكمال. وفي بعض أبيات الأرجوزة يقول:

وضرب كلُّ زايدٍ وناقصٍ	في مثله زيادةً للفاحصِ
وضربُه في ضدهِ نقصانٌ	فأفهم هداك الملكُ الديانُ

وقدم الأستاذ بديع الحمصي بحثاً عن ابن الياصمين وأرجوزته هذه في الندوة العلمية الثانية لتاريخ العلوم عند العرب في نيسان عام ١٩٧٩ م. وفي الظاهرية بدمشق سبع نسخ للأرجوزة وشروحها. ويذكر الأستاذ عمود الصغيري أن في (زيد) باليمن، تحتفظ المكتبات الخاصة بعشرات النسخ من هذه الأرجوزة.

انظر (قضايا في التراث العربي - لمحمود الصغيري، دمشق ١٩٨١ م ص ١٥٥).

وفي ميدان العلوم التطبيقية كالكيمياء والطب والصيدلة حفل تراثنا العظيم بأراجيز كثيرة جداً، تناولت المعارف التي تنتمي إلى هذه العلوم. ففي مجال الكيمياء ربما كان ديوان الأمير العالم الشاعر الأموي خالد بن يزيد (٩٠ هـ) واسمه "الصنعة"، هو أقدم ما ألف شعراً في علم الكيمياء. وربما أهل هذا الديوان صاحبه لأن يوصف بأنه الشاعر التعليمي الأول في التراث العربي. وقد ذكر حاجي خليفة هذا الديوان فقال يصفه:

(فردوس الحكمة في علم الكيمياء لخالد بن يزيد بن معاوية الأمير الحكيم. منظومة

في قواف مختلفة وعدد أبياتها ألفان وثلاث مئة وخمسة عشر بيتاً أولها:

الحمدُ لله العليُّ الفردُ	الواحدُ القهارُ ربُّ الحمْدِ
يا طالباً بوريسطسَ الحكماءِ	تُخذُ منطقاً حقاً بغير خفاءِ

(كشف الظنون ١٢٥٤ - ١٢٥٥)

ويمكن أن نضيف إلى هذا الديوان ديواناً آخر لأبي الحسن علي بن موسى الأنصاري المعروف بابن أرفع رأس (٥٩٣ هـ) اسمه "شذور الذهب في صناعة الكيمياء". هو ديوان شعري مرتب على الحروف، شرحه أيدير بن علي الجلدكي وسمى الشرح "غاية السرور". وخمسه شرف الدين محمد بن موسى القديسي الكاتب (المتوفى سنة ٧١٢ هـ) تخميساً حسناً - (انظر كشف الظنون ١٠٢٧). وقد أضاف الأستاذ رزوق فرج رزوق أن عدد منظوماته في مخطوطة جامعة برستن بالولايات المتحدة ٤٣ منظومة يبلغ مجموع أبياتها ١٤٨٧ بيتاً.

وعدد منظوماته في مخطوطة كلية الآداب بجامعة بغداد ٤٢ منظومة يبلغ مجموع أبياتها ١٤٣١ بيتاً. (انظر مجلة المورد - بغداد ١٩٩٠ - مج ١٩ العدد الأول ص ٢١٣).
 ومن المعروف أيضاً أن الرازي أبا بكر محمد بن زكريا (٣١٣ / ٩٢٥ م)
 (جالينوس العرب)، وهو من أكابر الكيميائيين والأطباء العرب، نقل (كتاب الآس) لجابر
 إلى الشعر، وله قصيدة في المنطقيات، وقصيدة في العظة اليونانية (الفهرست ط تجدد - ص
 ٣٥٩). وله أيضاً أرجوزة في الطب ذكرت فيها عمدة الدوسري في كتابها (فهرس
 المخطوطات الطبية المصورة - الكويت، ١٩٨٤ ص ٢٧) أولها:

الحمد لله الذي برانا وركب العقول والأذهانا
 ومن بالسمع والأبصار يهدي لها من ذا اعتبار

وآخرها:

أما له مُغْتَبَرٌ في نفسه كيف يصيرُ جسمه في رسمه
 بعد النعيم جيفةً تهنئة ونفسه بما جنت رهينة
 حتى تؤذيه إلى دار البقا والخلد إما في نعيم أو شقا

وقد نُسخَت هذه الأرجوزة عام ١٠٥٤هـ، وتقع في ٨ ورقات، وهي في (مكتبة
 جستر بيتي - ٥٢٤٤ مجموع) .

ومن المعروف أن للرازي أيضاً كتباً كثيرة منها - عدا الحاوي، والمنصوري، والطب
 الروحاني - كتاب " بُرء الساعة " وقد حوّل هذا الكتاب إلى أرجوزة محمد بن إبراهيم بن
 يوسف الحنبلي (٩٧١هـ) وأعطاه عنوان " الدرر الساطعة في الأدوية القاطعة ". وهي في
 ١٣٥ بيتاً، وذكر ذلك عمر رضا كحالة في كتابه: (معجم المؤلفين ٨: ٢٢٣) .

أما ابن سينا الشيخ الرئيس (٤٢٨هـ) - (أبقراط العرب) وشيخ أطبائهم - فقد
 ألف كتاب " القانون في الطب " الذي ظل مرجعاً أساسياً لطلبة الطب في الشرق والغرب

حتى أواخر القرن الماضي، ابن سينا هذا ارتأى أن يلخص المعلومات الطبية التي وعها وخبرها وتمرس بها في أرجوزة شعرية تسهياً لحفظها، ولينتفع بها تلامذته في كل مكان وزمان. لذا أنشأ "أرجوزة في الطب" تقع في ما يزيد على ١٣٠٠ بيت.

وقد أثرت تلك الأرجوزة كثيراً في تدريس الطب في المشرق العربي وفي المغرب والأندلس. وكانت عمدة أساتذة الطب لسنين طويلة، وشُرحت كثيراً وعُلّق عليها، وعرضت واستدرك عليها. ومن استدرك عليها هارون بن اسحق المعروف بابن عزرون، وذلك في أرجوزته في الحميات والأورام، فقد ذكر ابن عزرون أن ابن رشد لاحظ تقصير أرجوزة ابن سينا في ذكر الحميات والأورام؛ فحفزته تلك الملاحظة على نظم أرجوزة في هذا الباب... وأكمل محمد بن قاسم بن محمد الفاسي (١١٢٠هـ) الأرجوزة السينوية بأرجوزة سماها "الدرة المكنوزة في تذييل الأرجوزة". وما قاله ابن سينا في أرجوزته:

بدأت باسم الله في النظم الحسن أذكر ما جرّبته طول الزمن

وفي موضع آخر يقول ابن سينا:

الطّبُ حفظُ صحّةِ برءِ مرضٍ	من سببٍ في بدنٍ عنه عرضٍ
فِسْمَةُ الأولى لعلمٍ وعملٍ	والعلمُ في ثلاثةٍ قد اكتمل
سبعُ طبيعاتٍ من الأمورِ	وسنةٌ وكلُّها ضروري
ثم ثلاثُ سَطُوتٍ في الكتبِ	من مرضٍ وعرضٍ وسببٍ

وقد طبعت أرجوزة ابن سينا. ومنها نسخ مخطوطة كثيرة في الظاهرية (انظر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية الطب والصيدلة ١ / ٤٥٠).

ولابن سينا أيضاً أرجوزة في التشريح (انظر فهرس مخطوطات الظاهرية- الطب والصيدلة ٢/٣٤٢). وقد شرح ابن رشد (٥٩٥ هـ) منظومة ابن سينا هذه. ومن هذا الشرح نسخة مخطوطة قي الظاهرية (فهرس الطب والصيدلة ص ٤٤١)، ومنها نسخة

مصورة عن مكتبة جستر بيتي (رقم ٣٩٩٣) في الكويت تقع في ١٣٠ ورقة - (انظر فهرس المخطوطات الطبية المصورة السابق الذكر - ص ١١٥).

وكذلك شرح هذه الأرجوزة محمد بن إسماعيل بن محمد المتطّيب (ت بعد ٩٨٨هـ). وهو شرح يقع في ١٨٠ ورقة. وعنوانه: التوفيق للطبيب الشقيق. ومنه نسخة بخط المؤلف في دار الكتب الوطنية بتونس (انظر فهرس المخطوطات الطبية المصورة في قسم التراث - الكويت ١٩٤ ص ٦٣). و (فهرس دار الكتب الوطنية تونس ٨/١) و (انظر ٩ أراجيز لابن سينا) ذكرها رزوق فرج رزوق في (مجلة المورد مج ١٩ العدد الاول لعام ١٩٩٠ ص ٢١٠-٢١١).

و نظم أبو عبد الله محمد بن أحمد الدينسري (٦٨٦ هـ) أرجوزة في نظم مقدمة المعرفة لبقراط، و أرجوزة في الدرياق الفاروقي (انظر فوات الوفيات ٢: ٤٤٠) و (هدية العارفين ٢: ١٣٦) . وكذلك نظم داود بن عمر الأنطاكي (١٠٠٨ هـ) ألفية في الطب، كما نظم القانون في الطب لابن سينا و شرحه (انظر كشف الظنون ١٣١٣) و (هدية العارفين ١: ٣٦٢). والحقيقة أن المنظومات الطبية كثيرة جداً. ولم نذكر منها إلا غيضاً من فيض . وذلك لأن الاستقصاء هنا ليس غرضنا.

وإذا تركنا الطب و انتقلنا إلى الفلك، نجد أن العرب قد أحرزوا في هذا العلم إنجازات عظيمة، وليس أدلُّ على ذلك من احتواء اللوحة التي وضعها (نيل أرمسترونغ) أول إنسان وطئت قدماه أرض القمر على اسم (البتاني) وهو عالم فلكي سوري من الرقة عاش في القرن الرابع الهجري. وذلك تقديراً لجهود هذا العالم في علم الفلك وإجلالاً لما صنعه في زمانه من زيجات فلكية صحيحة.

ومن المعروف في هذا الباب أن لأبي الحسن علي بن أبي الرجال (بعد ٤٣٢ هـ) أرجوزة في الأحكام الفلكية وهي مطبوعة - (مجلة المورد مج ١٩ ع ١ لعام ١٩٩٠ ص ٢١١)

و نطالع في (كشف الظنون ص ١٣٤٥) ذكر قصيدة في النجوم مزدوجة طويلة ألفها أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الغراوي. وكذلك ذكر د. رزوق فرج رزوق أن محمد بن

إبراهيم بن محمد الأوسي المعروف بابن رقام (٧١٥ هـ) له منظومة في العمل بالإسطرلاب - (انظر مجلة المورد مج ٢ ع ١ ص ٢١٨). ومن المعروف أن الإسطرلاب آلة فلكية. كذلك لعبد الواحد بن محمد بن محمد المشهدي (٨٣٨ هـ) منظومة في الإسطرلاب (انظر هدية العارفين ١: ٦٣٢).

وفي (كشف الظنون) أيضا إشارة إلى أن شرف الدين أحمد بن إدريس بن يحيى المارديني (٧٢٨ هـ) قد ألّف (نظم الدرر في معرفة منازل القمر) رتبته على عشرة أبواب كلها منظومة (انظر كشف الظنون ص ١٩٦٣).

وكذلك نطالع أن لرضي الدين أبي الفضل محمد بن أحمد الغزي (٩٣٥ هـ) ألفية في علم الهيئة وهو علم الفلك ذاته - (انظر مجلة المورد مج ٢٠ ع ١ لعام ١٩٩٢ بغداد ص ١٣٣).

ولفخر الدين محمد بن المصطفى بن زكريا الدروكي (٧١٣ هـ) قصيدة في النجوم (هدية العارفين ٢: ١٤٢-١٤٣).

وفي ميدان التاريخ نقع في كتاب: هدية العارفين على غير إشارة إلى منظومات في التاريخ منها مثلا أن محي الدين عبد الله بن عبد الطاهر السعدي الجذامي الروحي (٦٩٢ هـ) قد نظم سيرة السلطان الظاهر بيبرس (هدية العارفين ٢: ١٣٧). وكذلك نظم شهاب الدين محمد أمين الخولي (٦٩٣ هـ) سيرة ابن هشام (هدية العارفين ١/ ٥٨١) و (كشف الظنون ٤٩٢، ١٠١٢).

و ذكر الزركلي أن عبد الملك بن أحمد الأرمني (٧٢٢ هـ) قد نظم تاريخ مكة للأزرق على شكل أرجوزة (الأعلام ٤: ٣٠١).

و نظم صلاح الدين خليل بن أيك الصفدي (٧٦٤ هـ) أرجوزة تاريخية وشرحها، وهي بعنوان « تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك و النواب » و قد طبع هذه الأرجوزة صلاح الدين المنجد و فيها يقول الصفدي مثلاً بعد حمد الله وشكراته:

و بعدُ فالْمَقْصُودُ مِنْ ذَا الرُّجْزِ حَسَنُ الْبَيَانِ فِي كَلَامٍ مَوْجِزٍ
أَذْكَرُ فِيهِ الْخُلْفَاءُ وَالْأَمْرَاءُ عَلَى دِمَشْقٍ نَسَقًا كَمَا تَرَى

وبعد أن يشير إلى عمل ابن عساكر في هذا الباب يقول:

لكنه على الحروف رتبة فضيخ المقصود منه واشتبه
ولم يصل إلا لنور الدين وعاق ذلك وارد المنون
وقد ذكرت من أتى من بعده ليومنا فاستجلى ذر عقده

ومن الجدير بالذكر أن المؤلف نفسه قد شرح أرجوزته في كتاب حمل العنوان ذاته. وقد طبع بدمشق عام ١٩٩٢ في جزأين بتحقيق إحسان بنت سعيد خلوصي و زهير حميدان الصمصام .

ويمكن أن نضيف في هذا المجال الأرجوزة التي نظمها تاج الدين الحسن بن راشد الحلبي (نحو ٨٣٠ هـ). وعنوانها (تاريخ الملوك والخلفاء)، وأرجوزة للمؤلف ذاته وعنوانها (تاريخ القاهرة) - (الأعلام ٢: ٢٠٤). والأرجوزة التي في تاريخ المعتضد بسا لله. وهي مطبوعة وقد ألفها أبو العباس عبد الله بن محمد الناشيء المعروف بابن شرشير (٢٩٣هـ).

و نظم عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري المعروف بالديلمي (٦٩٤هـ) سيرة ابن هشام شعراً (انظر هدية العارفين ١: ٥٨١).

والحقيقة أن هذا التقليد التراثي أعني التأليف بالشعر لم يندثر، بل استمرت مياحه في مجرى الثقافة العربية تطالعا بين الفينة والأخرى، وإن قلّت بوضوح عما كانت عليه في القديم. وقد راح بعض الشعراء في أيامنا هذه يستعرضون قدراتهم على النظم في تأليف بعض الكتب. و من هؤلاء الشاعر السوري (أحمد الجندي) رحمه الله الذي ألف كتاباً بعنوان، «قصة المتنبي شعراً». وقد طبعه في بغداد عام ١٩٧٣، ثم أعاد طبعه في دمشق بدار طلاس.

و في هذا الكتاب الشعري يؤرخ أحمد الجندي بالشعر لحياة أبي الطيب المتنبي -
شاعر العربية الأكبر، وماليء الدنيا و شاغل الناس. وإذا فتحنا كتاب الجندي و جدهناه يقول
في (ص ٧ - طبعة بغداد) مثلاً :

عَبَقْرِي السَّمَاتِ عَالٍ فَرِيدٌ	مَرٌّ فِي خَاطِرِ الزَّمَانِ وَلِيدٌ
أَسْوَدُ الْعَيْنِ بَاهِرٌ مَمْدُودٌ	أَمْرٌ الْوَجْهِ كَالْمَسَاءِ جَلَالٌ
يَتَمَطَّى تِيَّازَةَ الْعَرِيْدِ	مَوْجَةٌ مِنْ رَجُولَةٍ فَوْقَ بَحْرِ
يَتَغَنَّى وَنَشْوَةَ وَقْصِيدِ	فَهَذَا الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ حَدِيثٌ

ثم يضيف في (ص ١٣) على لسان شاعرنا العظيم كاشفاً عن بعض سجاياه
وخصائصه :

ضِ نَفْسِي يَضِيقُ عَنْهَا زَمَانِي	لَا أَرَانِي أَعِيشُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ
مَلَأَ الْأَرْضَ بِالنِّى وَالْأَمَانِي	إِنِّي شَاعِرُ الْعَرَبِيَّةِ ضَوْئِي
كَبُّ فِي الْبَيْدِ مَطْرِبَاتِ الْأَغَانِي	وَبشعري سار الزمان و غنى الر

و بعد، فإننا نخلص من خلال العرض الموجز السابق إلى نتائج نصوغها على النحو

التالي:

- ١ - إنَّ التَّأْلِيفَ بالشَّعْرِ عِنْدَ الْعَرَبِ كَانَ قَدْ بَدَأَ مَعَ فَجْرِ عَهْدِهِمْ بِالتَّلْوِينِ وَ
التَّصْنِيفِ. وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى مِنْذَ الْقَرْنِ الْهَجْرِيِّ الْأَوَّلِ وَ حَتَّى أَيَّامِنَا هَذِهِ. وَمِنَ الْمَعْرُوفِ هُنَا أَنَّنَا
نَرِيدُ نَظْمَ الْمَعَارِفِ وَ الْعُلُومِ وَ لَا نَقْصِدُ إِبْدَاعَ الْمَسْرُوحِ الشَّعْرِيِّ الَّذِي يَشْكَلُ نَسَقًا فَنِيًّا أُخْرَ .
- ٢ - إنَّ بَحْرَ الرَّجْزِ لَمْ يَكُنْ الْبَحْرَ الْوَحِيدَ الَّذِي رَكِبَهُ الْمَوْلُفُونَ فِي مَوْلَفَاتِهِمُ الشَّعْرِيَّةِ،
فَهُنَاكَ بَحُورٌ أُخْرَى كَالْبَيْسِطِ، وَغَيْرِهِ مِنَ الْبَحُورِ، نَظَّمَتْ عَلَيْهَا أَلْسُونَ مِنَ الْمَعَارِفِ مَتْبَانِيَّةً .
وَ قَدْ كَانَ بَحْرُ الْخَفِيفِ مَثَلًا هُوَ بَحْرُ أَشْعَارِ الْمَرْحُومِ أَحْمَدَ الْجَنْدِيِّ الَّتِي مَثَلْنَا عَلَيْهَا قَبْلَ قَلِيلٍ.

٣ - بعض أشكال هذا النظم التعليمي، وخاصة النحو و اللغة منه، قد عقد بعض المسائل، ولم يبسطها نظراً لكثافة الشعر و اختزاله و إيجازه، مما دفع بعض الناظرين، أو من جاء بعدهم إلى شرح هذه المنظومات. و قد ضربنا أمثلة كثيرة على هذه الشروح .

٤ - إن العرض السابق على و جازته و على الرغم من أنه جاء للتمثيل و التدليل، لا للاستيفاء و الاستقصاء، يدل على أن هذا الباب واسع جداً، وأنه تناول مختلف جوانب المعرفة. و ثمة جوانب أخرى لم نعرض لنماذج لها فيما تقدم. و هذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على مواهب العرب الشعرية الغزيرة، و على أثر الشعر في نفوسهم، كما يدل على عظيم عطائهم التصنيفي، وهو عطاء يكاد المرء يزعم أن الأمة العربية لا تضاهيها فيه أية أمة على وجه هذه البسيطة .



مصادر البحث و مراجعه

- ابن الانباري، محمد بن القاسم: قصيدة في مشكل اللغة دمشق ١٩٨٩، مستل من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.
- ابن خمليون، محمد بن خليل : التحفة في علم الموارث، تحقيق السائح علي حسين - ليبيا طرابلس ١٩٩٠.
- ابن رشيقي: العمدة في صناعة الشعر و نقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٧٤ - ط ٤ .
- ابن ماجد: حاوية الاختصار في أصول علم البحار، تحقيق إبراهيم الخوري، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق .
- ابن النديم: الفهرست، تحقيق رضا تجدد، بيروت ١٩٧١ .
- البغدادي: هدية العارفين، بيروت، دار الفكر ١٩٨٢ .
- الجندي، أحمد: قصة المتنبي شعراً، بغداد ١٩٧٣ .
- حمصي، أسماء: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية - علوم اللغة العربية - دمشق ١٩٧٣ .
- خليفة، بديري: نظم متن الأجرؤمية - مقال في مجلة كلية الدعوة الإسلامية - ليبيا طرابلس - العدد السادس لعام ١٩٨٩ .
- خليفة ، حاجي : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، بيروت ، دار الفكر ١٩٨٢ .
- الخيمي، صلاح: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية - الطب و الصيدلة - دمشق ١٩٨١ .
- الدوسري، هيا محمد: فهرس المخطوطات الطبية المصورة بقسم التراث، الكويت . ١٩٨٤ .

- رزوق، فرج رزوق: الشعراء التعليميون و المنظومات التعليمية، مقال في مجلة المورد العراقية المجلد ١٩ - العدد الأول، و المجلد ٢٠ العدد الأول، بغداد ١٩٩٢ .
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، بيروت ط ٥ ، ١٩٨٠ .
- الصغيري، محمود: قضايا في التراث العربي، دمشق ١٩٨١ .
- الصفدي، خليل بن أيك: تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك، تحقيق إحسان خلوصي و زهير حميدان الصمصام، دمشق ١٩٩٢ .
- الصوري، محمد بن علي بن حسن: القصيدة الصورية، تحقيق عارف تامر، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٥٥ .
- الصولي، أبو بكر: الأوراق تحقيق ج. هيورت، بيروت ط ٢، ١٩٧٩ .
- الطيسي، أمين توفيق : كتب الفلاحة الأندلسية، مقال في مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد ٦ - طرابلس ليبيا ١٩٨٩ .
- الكتيبي، ابن شاکر: فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، بيروت .
- كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، بيروت - دار إحياء التراث العربي د.ت .
- محمد بن محمد، بدر الدين: زبدة الأقوال في شرح قصيدة الأفعال، تحقيق ناصر حسين علي، دمشق ١٩٩٢ .
- القاضي النعمان: الأرجوزة المختارة، تحقيق إسماعيل قربان حسين، مونتريال كندا .
- اليازجي، ناصيف: الجمانة في شرح الخزانة، بيروت ١٨٧٢ .



الكتاب الثاني (ضروب من كتب التراث)

١. أمثال العرب، لِلْمُفَضَّلِ الضَّبِّي (١٦٨ أو ١٧٨ / ٧٨٤ أو ٧٩٤).
٢. فحولة الشعراء، للأصمعي (٢١٦ / ٨٣١).
٣. طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجُمحي (٢٣١ / ٨٤٥).
٤. المعمرّون والوصايا، لأبي حاتم السُّجِسْتَانِي (٢٥٥ / ٨٦٨).
٥. الفاضل، للمبرّد (٢٨٥ / ٨٩٨).
٦. الورقة، لمحمّد بن داود بن الجراح (٢٩٦ / ٩٠٨).
٧. شجر الدرّ، لأبي الطيّب اللغوي (٣٥١ / ٩٦٢).

٨. معجم الشعراء، للمرزباني (٣٨٤ / ٩٩٤).
٩. الفصول الأدبية، للصاحب بن عباد (٣٨٥ / ٩٩٥).
١٠. الصداقة والصدق، لأبي حيان التوحيدي (٤١٤ / ١٠٢٣).
١١. الحدايق الغناء في أخبار النساء، للمعافري المالقي (٦٠٥ / ١٢٠٨).
١٢. معجم الأدباء، لياقوت الحموي (٦٢٦ / ١٢٢٨).
١٣. النجوم الزواهر في معرفة الأواخر، لابن اللبّودي (٨٨٩ / ١٤٨٤).



أمثال العرب

لِلْمُفَضَّلِ الضَّبِّيِّ (١٧٨ / ٧٩٤)

كانت الأمثال غُصْنًا يانعاً ومثمرًا في دوحه الثقافة العربية، في تراثنا القديم، وربما كانت محاولات التأليف في هذا المجال ترقى إلى العصر الجاهلي ؛ فقد طالعنا في ديوان الشاعر الجاهلي بشر بن أبي حازم الأسدي هذا البيت:

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرِّكْضِ الْمَعَارِ

وقيل في التعليق على هذا البيت: إن الشطر الثاني منه (مَثَلٌ) قرأه الشاعر في كتابه لبني تميم. وفي حين شكَّ بعض المستشرقين مثل (غولد تسبير) و (كاسكل) و (زولهيم) في نسبة هذا البيت إلى بشر، واستبعدوا وجود مثل تلك المجموعات الثلثية في العصر الجاهلي، وجدنا الدكتور (ناصر الدين الأسد) يردُّ حججهم تلك إلى مقولة آمنوا بها، هي (تجهيل الجاهليين). وما هي بمقولة صحيحة - (انظر مصادر الشعر الجاهلي، لناصر الدين الأسد ص ١٦٣ - ١٦٤ و ٥٥٩ - ٥٦٠).

ومهما يكن من أمر، فإن كُتِبَ الأمثال كانت معروفة تماماً إبان العصرين الراشدي والأموي، ويمُنُّ ألف فيها (عبيد بن شريه الجرهمي)، و (علاثة بن كرشم الكلابي)، و (صُحار العبدي). وكلهم رجال من القرن الأول الهجري. وقد تلا هؤلاء علماء آخر من رجال القرن الثاني، ألفوا كتباً في الأمثال، كأبي عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) ويونس بن حبيب (١٨٣) وأبي فيد مؤرِّج السدوسي (١٩٥ هـ) والمفضل الضبي هذا الذي نتحدث عنه الآن، وعن كتابه (أمثال العرب)، الذي حظي حديثاً بنشرة علمية من قبل الباحث الدكتور إحسان عباس.

والمفضل الضبيّ رجل من رجال الشعر والرواية في القرن الثاني، يُرَجِّح الدكتور عباس تاريخ ميلاده بين سنتيّ (٩٨ - ١٠٢) وهو عالم من علماء الكوفة الكبار، بها ولد ونشأ ونضح، وأتم علومه فيها على أيدي مجموعة من الشيوخ، منهم عاصم بن أبي النجود، وسماك بن حرب، والأعمش، وغيرهم... ولما جلس، بعد أن أحكم علمه، للتدريس، تخرَّج على يديه ربيبه ابن الأعرابي، والقراء، والكسائي، وأبو عمرو الشيباني، وعمر بن شبَّة، وأبو زيد الأنصاري. وقد ارتحل المفضل إلى البصرة، وكان موطن إجلال وتقدير فيها. وقال فيه ابن سلام الجهمي: « وأَعْلَمُ مَنْ وَرَدَ عَلَيْنَا مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ الْمَفْضَلُ بْنُ مُحَمَّدِ الضَّبِيِّ الْكُوفِيِّ ».

وقد شارك المفضل في ثورة محمد النفس الزكية التي شَبَّت في المدينة، ولما أرسل محمدٌ أخاه إبراهيمَ إلى البصرة ليدعو الناس إلى الثورة وجد إبراهيم في دار المفضل خير ملاذ له من بطش العباسيين. ولما أخفقت الثورة لم يلاحق العباسيون صاحبنا، بل جعلوه مُؤدِّباً لأولادهم، فقد صار، بعد أن ارتحل إلى بغداد، مريباً للمهدي بن المنصور، وكانت له علاقة بالهادي وبهارون الرشيد من بعده، إلى أن توفي في حوالي سنة (١٧١ هـ) حسبما يذكر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة، وثمة من يرى وفاته في سنة (١٦٨ هـ) أو في سنة (١٧٨) . وقد خلف لنا المفضل عدة مؤلفات، هي:

- ١ - كتاب في العروض.
- ٢ - كتاب في معاني الشعر.
- ٣ - كتاب في الألفاظ.
- ٤ - المفضليات، وهي مجموعة من عيون الشعر العربي تبلغ ١٣٠ قصيدة جاهلية وإسلامية.

- ٥ - وكتابه هذا الذي نحن بصدده (أمثال العرب) .
- و(أمثال العرب) كان طُبِعَ بمطبعة الجوائب عام ١٢٠٠ هـ . ثم طُبِعَ مرة أخرى بمصر عام ١٩٠٩ . ونهض أخيراً الدكتور إحسان عباس بطبعته الأخيرة العلمية المحققة فنشره عام ١٩٨١، وأعاد نشره مرة ثانية عام ١٩٨٢ في دار الرائد العربي ببيروت.

ويُعدُّ كتاب المفضل الضبي (أمثال العرب) أقدم صورة لدينا عن الثقل الجاهلي المقترن بالحكاية، وتكمن أهميته في كونه مصدراً لأكثر الكتب التي ألفت في بابيه، ككتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام، والفاخر للمفضل بن سلمة، والدرّة الفاخرة في الأمثال السائرة للأصبهاني، وجمهرة الأمثال للعسكري، وجمع الأمثال للميداني، والمستقصى في الأمثال للزخشي.

وميزة كتاب الضبي هذا أنه ينصبُّ في أكثره على ما كان يدور على ألسنة الناس في العصر الجاهلي من أمثال. وهي غالباً ترتبط بقصص وحكايات تكون مهمزاً للمثل، أو إطاراً له، تنتهي دائماً بعبارة على لسان بطل القصة أو خصمه. فتصير هذه العبارة مثلاً، ويعبر عن ذلك بعبارات نحو (أرسلها مثلاً) أو (فذهبت مثلاً) أو (فصار قوله مثلاً).

ومن أمثلة قصص الكتاب التي تنتهي بعبارات صارت مثلاً، ما رواه الضبي إذ قال: (زَعَمُوا أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ عَبَّادِ بْنِ ضَبِيْعَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ طَلَّقَ بَعْضَ نِسَائِهِ بَعْدَمَا أَسَنَّ وَخَرَفَ، فَخَلَفَ عَلَيْهَا مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ كَانَتْ تَظْهَرُ لَهُ مِنَ الْوَجْدِ بِهِ مَا لَمْ تَكُنْ تَظْهَرُهُ لِلْحَارِثِ بْنِ عَبَّادِ، فَلَقِيَ زَوْجَهَا الْحَارِثَ بْنَ عَبَّادِ، فَأَخْبِرَهُ بِمَنْزِلَتِهِ مِنْهَا، فَقَالَ لَهُ الْحَارِثُ: «عِشْ رَجَبًا تَرَّ عَجْبًا، فَأَرْسَلَهَا مَثَلًا» - (أمثال العرب ص ١٤٠). ومن القصص ما ورد فيه غير مثل، فقد جاء في مطلع الكتاب هذه القصة:

(زَعَمُوا أَنَّ ضَبِيْعَةَ بْنَ أَدِّ بْنِ طَلْحَةَ ... كَانَتْ لَهُ ابْنَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا سَعْدٌ، وَالْآخَرُ سَعِيدٌ، وَإِنْ إِبِلٌ ضَبِيْعَةٌ نَفَرَتْ تَحْتَ اللَّيْلِ وَهِيَ مَعَهَا. فَخَرَجَا يَطْلُبَانَهَا... فَوَجَدَهَا سَعْدٌ فَجَاءَ بِهَا. وَأَمَّا سَعِيدٌ فَذَهَبَ وَلَمْ يَرْجِعْ. فَجَعَلَ ضَبِيْعَةٌ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا رَأَى تَحْتَ اللَّيْلِ سَوَادًا مَقْبَلًا: (أَسْعَدُ أُمِّ سَعِيدِ) فَذَهَبَ قَوْلُهُ مَثَلًا. ثُمَّ أَتَى عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ لَا يَجِيءُ سَعِيدٌ، وَلَا يَعْلَمُ لَهُ خَيْرٌ. ثُمَّ أَنَّ ضَبِيْعَةَ بَعْدَ ذَلِكَ بَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ وَالْحَارِثُ بْنُ كَعْبٍ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ، وَهِيَ يَتَحَدَّثَانِ، إِذْ مَرَّ عَلَى سَرْحَةٍ بِمَكَانٍ، فَقَالَ لَهُ الْحَارِثُ أَتَرَى هَذَا الْمَكَانَ؟ فَبَاتِي لَقِيَتْ فِيهِ شَابًا هَيْئَتُهُ كَذَا وَكَذَا - فَوَصَفَ صِفَةَ سَعِيدٍ - فَقَتَلَتْهُ، وَأَخَذَتْ بُرْدًا عَلَيْهِ. وَمِنْ صِفَةِ الْبُرْدِ كَذَا وَكَذَا، فَوَصَفَ صِفَةَ الْبُرْدِ، وَسَيْفًا كَانَ عَلَيْهِ: فَقَالَ ضَبِيْعَةُ وَالسَّيْفُ؟ قَالَ هَاهُوَذَا عَلِيٌّ. قَالَ فَارْنِيهِ، فَأَرَاهُ بِرِيَّاهُ فَعَرَفَهُ ضَبِيْعَةُ ثُمَّ قَالَ: « إِنَّ الْحَدِيثَ لَذُو شَجَوْنِ ». ثُمَّ ضَرَبَهُ حَتَّى

قتله، فذهب قوله أيضاً مثلاً. فلامه الناس وقالوا قتل رجلًا في الأشهر الحرم. فقال ضبة:
«سَبَقَ السيفُ العَدْلَ» فأرسلها مثلاً - (ص ٤٧ - ٤٨).

وهكذا تسوق هذه القصة ثلاثة أمثال هي: (أسعد أم سعيد) و (ان الحديث لنور شجون) و (سبق السيف العدل). والملاحظ أن غالبية أمثال الضبي وقصصه تبدأ بكلمة (زعموا)، ثم تساق قصة يختار من بين عباراتها عبارة قصيرة موجزة، لها وقع خاص في مجرى الحوار أو الحدث، فتصير مثلاً يلور على الألسنة ويتناقله الناس جيلاً بعد جيل. وفي بعض الأحيان تأتي قصة المثل مشفوعة بالشعر الذي يرد في شطر من شطور ذلك المثل.

وقد وردت في هذا الكتاب أمثال لقبائل عربية عديدة، كقبيلة ضبة وتيم وبكر وتغلب. ومن الأمثال ما يتصل بالحروب العربية، كحرب البسوس، ومنها ما يتصل بالشعراء كامرئ القيس وطرفة والمتلمس، ومنها ما يتصل بأعلام قدماء كبار، كالزباء، وجذيمة، ولقمان، والمنذر بن ماء السماء... الخ.

فقد جاء في (ص ١٦٩) القصة التي تحكى قصة المثل «مايوم حليلة بسير»
وخلصتها: أن المنذر بن ماء السماء لما غزا الحارث بن جبلة الغساني، كان في جيشه رجل، أمه من غسان، اسمها شمر بن عمرو، فتسلل من جيش المنذر وأتى الحارث وأخبره بأنه جاءه ما لا طاقة له به. فانتدب الحارث مائة رجل من جيشه اختارهم رجلاً رجلاً بينهم ليبد بن عمرو، وأمرهم بالتوجه إلى المنذر، ليخبروه بأن الحارث يدين له ويعطيه حاجته، وأمر ابنته (حليلة) أن تطيبهم بطيب من الزعفران وغيره. فجعلت تطيبهم حتى مر بها ليبد بن عمرو فلما دنت منه قبلها، فلطمته وبكت. وأتت أباه فأخبرته، فقال: ويلك اسكتي فهو أرجاهم عندي ذكاء قلب. ومضى القوم حتى بلغوا المنذر، فقالوا ما أوصاهم به الحارث، فتباشر أهل عسكره وغفلوا بعض الغفلة، فحمل الحارث وجنده عليهم، فقتلوا المنذر وهزموا جيشه. فقيل: (ما يوم حليلة بسير)، فذهبت مثلاً. وقد قال النابغة في ذلك مادحاً الغساسنة:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفهمُ بهنَ فلولَ من قراعِ الكتابِ
تُحزَنُ منَ أزمانِ يومِ حليلةِ إلى اليومِ قد جرتَ كلُّ التجاربِ

وأخيراً، فإنّ كتاب (أمثال العرب) حوى (١٦٠) مثلاً تقريباً، سيقت في إطار
(٨٨) قصة أو خيراً. وهي أمثال تحتاج بلا ريب إلى وقفة متأنية، ودراسة مستقصية
تستخلص منها ما هو قمين بأن يفيد الدارسين للأدب القديم، والباحثين في تقاليد الجاهليين
وعاداتهم وحضارتهم.



فحولة الشعراء للأصمعي (٢١٦ / ٨٣١)

« فحولة الشعراء » للأصمعي رسالة صغيرة تقرأ في ساعة واحدة أو تكاد. وقد حَقَّق هذه الرسالة المستشرق ش. توري ونشرها سنة ١٩١١ ثم أعيدت طباعتها في بيروت سنة ١٩٧١. وقدم لها الدكتور الباحثة صلاح الدين المنجد. وقد عرّف المنجد بالمستشرق المذكور فقال عنه: إنه أستاذ في جامعة (ييل) بالولايات المتحدة. ونشر عدداً من النصوص العربية منها: فتوح مصر وأفريقية والمغرب لابن عبد الحكم، وأغلاط الضعفاء لابن بري، وفحولة الشعراء للأصمعي.

ومن الجدير بالذكر أنّ « فحولة الشعراء » قام بنشرها أيضاً محمد عبد المنعم خفاجي في القاهرة مرة ثالثة مُعرِّفاً بها وبالأصمعي وبموقع كتابه هذا في تاريخ النقد العربي القديم.

ولكن الرسالة التي بين أيدينا لا تتجاوز صفحاتها العشرين صفحة. ومن أهم ما يقال فيها: إن دلالة العنوان « فحولة الشعراء » لا تتضح من خلال التفصيلات الواردة في هذا الرسالة، أو الأجوبة التي يجيب بها الأصمعي على أسئلة تلميذه - أبي حاتم السجستاني، الذي يسأله عن شاعر أو شعراء بأعينهم، فمرةً يشترط الأصمعي أن يقول الشاعر خمس قصائد، أو أكثر، ليلحق بالفحول، كما هي الحال بالنسبة للحويدرة، وثلثة بن صعير المازني. ومرةً يتطلبُ الكثرة، وذلك واضح في جوابه عن شاعرية أوس بن غلفاء إذ قال: (لو كان قال عشرين قصيدة لحق بالفحول ولكنه قُطع به) (ص ١٥). ومرة ثانية ينسب الفحولة لشاعر ما، لأنه كان غاية في النعت، كطفيل الغنوي، الذي لُقّب بطفيل الخيل، الحُسْنِ نَعْتُهُ للخيل. ومرة ثالثة يقصر الفحولة على قصيدة بعينها، فهو يقول عن كعب بن سعد الغنوي: ليس فحلاً إلا في المرثية. ومرة رابعة ينظر في الصفة الغالبة على الرجل موضوع الحديث، فهو

يقول عن حاتم الطائي (إنه يُعَدُّ بكرم). وعن خُفاف بن ندبة، والزرقران بن بدر، وعباس بن مرداس، وبشر بن أبي خازم: « إنهم أشعر الفرسان... ». الخ .
ولكن الذي يمكن التعويل عليه أو الاستفادة منه، هو قوله في معنى الفحل : « مَنْ لَهُ مَزِيَّةٌ عَلَى غَيْرِهِ كَمَزِيَّةِ الْفَحْلِ عَلَى الْحَقَّاقِ » (ص ٩). وقد استعان على توضيح هذا المعنى
ببيت جرير:

وإِن الْبُؤْنَ إِذَا مَا لَسَزَّ فِي قَسْرِنِ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُؤْلِ الْفَنَاعِيْسِ

وقد أفسح الأصمعي في رسالته هذه المجال لآراء المتقدمين عليه من الرواة وعلماء الشعر، فهو يقول مثلاً: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: « إن قصيدة فلان الرائية أو الميمية أَلْحَقَّتْهُ بِالْفَحُولِ ! » وفي مناسبة أخرى يذكر أن خلفاً الأحمر، وهو أستاذ الأصمعي، كان لا يقدم على الأعشى أحداً، لأنه كان قد قال في كل عروض وركب كل قافية - (ص ١٢).
ويمكن للدارس أن يستنتج أن النظر في « فحولة الشعراء » كان في زمن سابق على زمن الأصمعي. وقد استمر الاهتمام في هذا المصطلح إلى أن ألف محمد بن سلام الجهمي (٢٣١هـ) كتابه الشهير طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين، وهو أقدم كتاب وصل إلينا عن الشعراء في العصرين الجاهلي والإسلامي، وهو الكتاب الثالث الذي سندرسه في هذا القسم من كتابنا.

وقد حوت الرسالة التي نحن بصددنا بعض الأحكام التي لا صلة لها بمعنى الفحولة، كقول الأصمعي « ذهب أمية بن أبي الصلت في الشعر بعامة ذُكِرَ الآخرة، وذهب عنزة بعامة ذكر الحرب، وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر النساء » (ص ١٨). وكقوله أيضاً: « لَسَ فِي الدُّنْيَا قَبِيْلَةٌ عَلَى كَثْرَتِهَا أَقْلُ شِعْرًا مِنْ بَنِي شَيْبَانَ وَكَلْبَ، وَلَيْسَ لِكَلْبَ شَاعِرٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَدِيمٌ ». (ص ١٩)

وإذا دققنا في هذا الكلام وجدناه غير صحيح، فلنكِّب أكثر من شاعر قديم ومهم، منهم مثلاً زهير بن جناب الكلبي، الذي كان رأس مجموعة من الشعراء انحدرت منه، ومثله

في ذلك مثل قَطْن بن نهشل الدارمي ، وزهير بن أبي سلمى ، وقد قال فيه أبو الفرج الأصفهاني : « ولم يوجد شاعر في الجاهلية والإسلام ولد من الشعراء أكثر مما ولد زهير » (انظر الأغاني ١٩:٢٤ ، وكتابنا : الشعراء الجاهليون الأوائل ، بيروت ١٩٩٤ ص ٣٩٢) .
وأخيراً فإن هذه الرسالة جاءت لتؤكد أن النقد القديم، وإلى زمن الأصمعي المتوفى سنة (٢١٦هـ) بقي على الغالب الأعم أحكاماً سريعة تُطلَق جُزافاً، دونما تعليل أو تحليل، أو تدقيق ، الأمر الذي لا يرتضيه الناقد المعاصر الذي يسعى جاهداً ليكون نقده أكثر قبولاً، وأقوى قدرة على الإقناع والإمتاع.



طبقات فحول الشعراء

لابن سلام الجمحي (٢٣١ / ٨٤٥)

ألف هذا الكتاب محمد بن سلام الجمحي المولود سنة ١٣٩ هـ والمتوفى سنة ٢٣١ هـ أو ٢٣٢ هـ . و(طبقات فحول الشعراء) واحد من ستة كتب صنفها هذا الاديب الناقد، منها: كتاب الفاصل في ملح الأخبار والأشعار، وبيوتات العرب، والحلاب وإجراء الخيل. وتلمذ ابن سلام على (٧٩) شيخاً، من بينهم أبوه سلام بن عبيد الله، وسيبويه، ومعاوية بن أبي عمرو بن العلاء، والأصمعي، وبشار بن برد الشاعر، وخلف الأحمر، وأبو زيد الأنصاري. كما تلمذ عليه تلامذة كثر، نذكر منهم ثعلباً، وأحمد بن حنبل، وأبا خليفة الجمحي، واسمه الفضل بن الحباب، وهو الذي روى كتاب طبقات فحول الشعراء عن خاله محمد بن سلام. وقد كان هذا الراوية أعمى، وكان مسند عصره في الحديث بالبصرة، وتوفي سنة ٣٠٥ هـ.

وطُبع هذا الكتاب للمرة الأولى سنة ١٩١٦ م بعناية المستشرق (يوسف هل) بلندن، ثم أعاد طبعه حامد عجّان الحديد بالقاهرة سنة ١٩٢٠ م. وطُبع ثالثة بتحقيق الأستاذ محمود شاكر بدار المعارف سنة ١٩٥٢ م. وطبع رابعة بعناية الأستاذ شاكر نفسه. وفي هذا الطبعة الأخيرة التي كانت سنة ١٩٧٤ تَبَرَأَ المحقق من طبعته الأولى التي أصدرها عام ١٩٥٢ كما سنرى.

محتويات الكتاب:

يجوي الكتاب مُقدِّمة نقدية حسنة، ومن بعدها أخباراً عن شعراء جاهليين وإسلاميين... فقد قسم المؤلف كتابه، عامّة، إلى طبقات حوت كلُّ طبقة أربعة شعراء. وبلغ عدد طبقات الشعراء الجاهليين عشر طبقات، ومثلهم من الإسلاميين. فكان المجموع (٨٠) ثمانين شاعراً. ولكن عدد الشعراء الذين ترجم لهم ابن سلام (١١٤) مئة وأربعة عشر

شاعراً. فمن أين أتى الشعراء الـ (٣٤) الأربعة والثلاثون الآخرون ؟ والجواب جاؤوا من خلال عناوانات أخرى اصطنعها المصنّف - ابن سلام، وهي:

١ . شعراء المراثي وعددهم أربعة، وهم: مُتمّم بن نويرة، والخنساء، وأعشى باهلة، وكعب الغنوي.

٢ . شعراء القرى العربية، وعددهم (٢٢) اثنان وعشرون شاعراً. وقد وزّعهم على أربع قرى، هي: المدينة، ومكة، والطائف، والبحرين.

٣ . شعراء يهود، وعددهم ثمانية شعراء، وهم: السمّوع، والرّبيع بن أبي الحقيق، وكعب بن الأشرف، وشريح بن عمران، وسعية بن العريض، وأبو قيس بن رفاعة، وأبو الذئال، ودرهم بن زيد.

ويجدد بالذكر أن هؤلاء قد وردوا، قبل الانتقال إلى طبقات فحول الإسلام، في كتاب ابن سلام.

مفهوم الطبقة ومسوّغاته:

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال مآله: ما هو الأساس الذي بنى عليه ابن سلام طبقات الشعراء ؟ وهل كان للطبقة مفهوم محدّد في ذهنه ؟ ثم ما هو مسوّغ هذا التقسيم المعتمد على الرقم (٤) أربعة ؟

والحقيقة أنّ مفهوم الطبقة عند ابن سلام كان غامضاً ومختلطاً. ومحاولة البحث عن أساس نقدي لتوزيعات ابن سلام لا تفضي إلى نتائج يركن إليها الباحث. وذلك لأن ابن سلام اتخذ أكثر من معيار لإحلال الشعراء منازلهم. وواضح أن ابن سلام قد نظر بعد معيار الزمن (جاهلي × إسلامي) إلى البيئّة، فصنّف (شعراء القرى العربية) ثم تحوّل إلى الانتماء الديني فقال بـ (شعراء يهود) .. ! الامر الذي أثار تساؤلات عدّة حول مفاهيمه النقدية ومنطلقاته المعيارية.

ورغم ما تقدّم، فإن الأستاذ (محمود شاكر) كان يرى أن صاحبنا ابن سلام فهم الطبقة على أنها منزلة شعرية، أو صرّب من ضروب الشعر، أو نهج من مناهجه، فشعراء الطبقة الأولى مثلاً، وهم: امرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، والأعشى،

يتشابهون في أنهم أشعر العرب، في مذهبٍ من مذاهب الشعر، أو في نهجٍ من مناهجه، أو في ضربٍ من ضروبه - (انظر مقدمة شاكر للكتاب ص ٦٨). ولكنه يمضي فيقول إن التشابه لايعني التطابق، فهم متشابهون في الزعامة والتقدم والرئاسة.

ورأى (إحصان عباس) أن أساس هذا التقسيم يقوم على معنى « الفحولة » أي التميز، فالفحل من كان له ميزة على غيره... ولكن أحكام ابن سلام كانت تختلف عن أحكام الأصمعي، فالأصمعي لم يعدد الأعشى ولاكعب بن زهير بين الفحول، في كتابه فحولة الشعراء، ومع ذلك فقد أدرجهما ابن سلام بين فحول طبقاته، فوضع الأول في الطبقة الأولى، ووضع الثاني في الطبقة الثانية، فمفهوم الفحولة متفاوت بين الأصمعي وابن سلام، وهو أوسع عند الأخير منه عند الأول (تاريخ النقد الأدبي لإحصان عباس ص ٨٠). ولكن السؤال الأهم هو: لماذا خالف ابن سلام هذا المفهوم، وانتقل ليقوم أساساً آخر غير أساس التشابه في الزعامة الشعرية لفرن من فنون القول، أو أساس الفحولة، وهو أساس البيعة (شعراء القرى) ثم بدّل هذا، فأرسي أساس الانتماء الديني (شعراء يهود) ؟ فهل كان تعدد المقاييس النقدية رائدة في هذا التقسيم ؟ أم أنه لم يدر في خلده مثل هذه الأمور البتة ؟؟

ثم هناك سؤال آخر يبرز في هذا الصدد، وهو لِمَ التوزيع الرباعي للشعراء، وهل كان تعسفاً حقاً، ولماذا قصر عدد الشعراء في كل طبقة من طبقاته العشرين على أربعة، وليس على أقل أو أكثر ؟؟

في البدء لا بد من الإشارة إلى أنّ ابن سلام لم يكن مبتدع أساس الطبقات في التأليف، فقد سبقه واصل بن عطاء (١٣١ هـ) إلى ذلك، فألف كتاباً سماه (طبقات أهل العلم). وساد في زمانه مفاهيم ومصطلحات تشبه مفاهيمه ومصطلحاته إلى حد ما، فثمة طبقات للفقهاء، وطبقات للرواة، وطبقات لأصحاب الأخبار، وطبقات للحفاظ، وطبقات ليخزان العلم... الخ، لذا فلا بأس عليه في أن يجعل الشعراء في طبقات.

أما توزيعه الشعراء على الرقم (٤) أربعة، فهذا عائد إلى خصوصية لهذا الرقم استبدت بالأذهان من قبله ومن بعده. ولا جرم في ذلك، فللرقم (٤) منزلة خاصة في

الفكرين اليوناني والعربي قديماً. وهذان الفكران تبادلا التأثير والتأثير بوضوح في أثناء الاحتكاك الثقافي فيما بينهما... ومن المعروف أن كثيراً من تفريعات العلوم وتقسيمات المعارف قد قصرت على الرقم (أربعة). فعند الاغريق، يتكوّن الكون من أربعة عناصر هي: الماء والنار والهواء والتراب، وبما أن جسم الإنسان صنوّ للكون، فهو مُكوّن من أربعة عناصر أساسية هو أيضاً، هي: الدم، والبلغم، والمِرّة الصفراء، والمِرّة السوداء، وعليه فالفصول أربعة، والجهات أربع... وأولو العزم من الرسل أربعة..! وقد انتقل تأثير هذه الظاهرة إلى الفكر الأدبي، فألف أبو هِفان المِهْزَمِي (٨٧١/٢٥٧) كتاباً كاملاً سَمّاه: (الأربعة في أخبار الشعراء) وهو كتاب ذو عنوان غامض، يتضح غموض عنوانه اذا قرأناه في ضوء خصوصية الرقم (أربعة). وإذا طالعنا شذرات منه نشرها هلال ناجي في مجلة المورد العراقية (المجلد الثامن / العدد الثالث) نرى تفريعات الاخبار والأحكام التي أقيمت على أساس هذا الرقم. ولم يكن أبو هِفان الوحيد الذي أَلّف كتاباً بهذا العنوان في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وهو القرن الذي عاش فيه ابن سلام، بل تابعه في هذا الأمر ذاته محمد بن داود بن الجراح (٩٠٨/٢٩٦) وأبو محمد - الوزير المَهْلَبِي (٩٦٣/٣٥٢) من بعده وآخرون.

لذا لا غرو أن يجعل ابن سلام شعراء طبقاته من جاهليين وإسلاميين أربعة فأربعة. ومن الملاحظ أنه ذكر في شعراء المرثي أربعة شعراء فقط، وأنه اختار من القرى العربية أربع قرى، كما قدّمنا، وأنه ذكر من الشعراء اليهود ثمانين شعراء، والرقم (ثمانية) من مضاعفات العدد (أربعة).

وفيما تقدم يكمن السرُّ وينكشف الإشكال الذي حير بعض الباحثين مِمَّنْ تصدّوا لحلّ هذه المشكلة التي لا يمكن أن تفهم إلا في ضوء المعرفة التاريخية والثقافية آنذاك... لذا ليس الأمر كما يقول د. إحسان عباس من أن التصنيف الرباعي قائم على نوع من التحكم في الرقم، بل هو على العكس تماماً تصنيف يقوم على استبداد هذا الرقم في معارف الناس وتقسيماتهم وتفرعاتهم (انظر تاريخ النقد الأدبي ص ٨١).

وثمة مشكلة أخرى أثرت في معرض نشر هذا الكتاب، فحواها: هل جاء هذا الكتاب كاملاً؟ والجواب بالنفي طبعاً، لأنّ محقق الكتاب (محمود شاكر) أضاف إلى أصل

الكتاب الذي أخرجه عنه (٢٣) ثلاثة وعشرين خيراً من كتاب (الأغاني) أخلتْ بها المخطوطة التي طبع الكتاب على أساسها. وهي من مخطوطات شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة. كما أضاف إلى أصل المخطوطة أخباراً عزيزة لابن سلام في كُتب أخرى مثل شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ومثل تاريخ دمشق لابن عساكر وغيرهما، فبلغ مجموع زيادته (٣٦) ستة وثلاثين خيراً.

وقد ألف الدكتور منير سلطان كتاباً كاملاً حول ابن سلام وكتابه هذا، ذكر فيه أنه جرد كتاب (الأغاني) بكامله فوجد (١٢٢) خيراً معزّوة لابن سلام غير موجودة في كتابه المطبوع (طبقات فحول الشعراء)، وواصل أبحاثه في بطون أمّهات الكتب القديمة فعثر بـ (٦٢) اثنين وستين خيراً آخر رواها ابن سلام، فصار لديه (١٨٤) خيراً جديداً.

ومع العلم بأن بعض هذه الأخبار يمكن أن يُعزى إلى كُتب ابن سلام المفقودة مثل كتاب (بيوتات العرب) وكتاب (الحلاب وإجراء الخيل) فإنها بعضها الآخر يمكن أن يكون جزءاً من الضائع من كتاب (طبقات فحول الشعراء) فقد ذكر أبو الفرج في أخبار (ابن ميادة) أنّ ابن سلام قد جعله في الطبقة السابعة (الأغاني ٢ : ٢٦٢) مع عُمر بن لجأ والعجيف العقيلي والعجير السلوي، وهو ما لم يرد في (الطبقات) مما يدل على أمرين: إمّا على وهم من أبي الفرج، أو على أنّ أبا الفرج كان يملك نسخة أو فنى من النسخة التي طبع عنها (كتاب الطبقات).

قيمة هذا الكتاب:

على الرغم من كل ما قيل سابقاً، فالكتاب درّة ثمينة، وهو قابل لأن يُنظر إليه من

أويتين هما:

أ - باب التراجم.

ب - باب النقد الأدبي والتاريخ الأدبي.

فمن زاوية التراجيح حوى الكتاب إشارات وأحكاماً على سير (١١٤) شاعراً من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين. ومن الملاحظ أيضاً أنّ ثمة إشارات عَرَضِيَّة لشعراء أُخر مرَّ ذكرهم في صلب الكتاب غير مقصودين لنواتهم.

ومن زاوية النقد الأدبي، فإنَّ مقدِّمة ابن سلام لكتابه هذا حوتُ حصيلَةَ نقدِيَّة طَيِّبة لآراء من سبقَ هذا المصنّف، كما حوتُ أحكاماً خاصَّة كان هو يطلقها. وقد أثار ابن سلام في مقدمته مجموعة كبيرة من القضايا النقدية، وقضايا الأدب، منها مثلاً:

١ - إشارته إلى قضية نُحل الشعر الجاهلي، فهو يقول: « وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجّة في عريته، ولا أدب يُستفاد، ولا معنى يستخرج... وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء » - (المقدمة ص ٤).

ومن المعروف أن طه حسين قد اعتمد على أقوال ابن سلام هذه، وما شاكلها، في نظريته في الشعر الجاهلي، التي أنكّر فيها أن يكون هذا الشعر قد قيل في الجاهلية، وزعم أنه في معظمه منحول على أصحابه في الإسلام. وقد أثار كتاب طه حسين (في الشعر الجاهلي) الصادر في القاهرة عام ١٩٢٦ ضجّة كبيرة في زمانه، وحظي بردود واسعة عليه لسنا هنا في معرض التفصيل فيها.

٢ - وكذلك أعلى ابن سلام من شأن الناقد الخبير، وعدَّ الشعر صناعة وثقافة لا يعرفها إلاّ أهل العلم بها. وراح ينقل عن خلف الأحمر تشبيه الناقد بالصرّاف الذي يميز أصيل الدراهم من زيوفها (المقدمة ص ٧).

٣ - وأثار ابن سلام أيضاً قضية بدايات الشعر العربي، فذكر أنّ أول من قصّد القصائد وذكر الوقائع مهلهلّ بن ربيعة التغلبي، وذكر أيضاً أنّ تقصيد القصيد وتطويل الشعر كانا على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف (المقدمة ٢٦).

كما عرض لقضايا تتصل بأقديمة اللغة العربية، وأولية علم النحو، وتنقل الشعر بين القبائل، وأخلاق الشعراء، وغير ذلك، مما كان موضع خلاف وجدل بين الباحثين المعاصرين الذين لهم آراء مُباينة لآراء ابن سلام ومنهجه.

ومات سنة (٤٠ هـ). وكذلك فعل بالشاعر الكُميت بن زيد، وهو إسلامي، وقد أدرجه مع الجاهليين.

٤ - شابَ بعضَ أحكامِ المصنّف التعسّفُ والبناء على عدم الاستقصاء والشمول، فهو مثلاً يقول (١: ٦٧): « ولم يقرّ من الطبقة الأولى ولا من أشباههم إلاّ النابغة الـذياني في بيتين هما:

١ - أمنُ آلِ مَيّةٍ رانحٌ أمُّ مُغْتَلِبِي عجلانِ ذا زادٍ وغَيْرِ مُزَوِّدٍ
٢ - زعمَ البوارخُ أنّ رحلتنا غداً وبداك خَيْرَنا الغرابُ الأسودُ»

وهذا حُكْمٌ غيرُ صحيحٍ البتّة، فقد أقوى كثيرون جداً من فحول الجاهلية. وقال أبو عمرو بن العلاء في هذا المجال: « فحلان من الشعراء يقويان هما: النابغة وبشر بن أبي خازم» - (الموشح ٨٠) - وكذلك وقع الإقواء في شعر امرئ القيس الكندي (انظر ديوانه ص ٨٢، ١١٦، ٣٥٣)، وأقوى الأعشى والحارث بن حلّزة، ودريد بن الصمة، وعامر بن الطفيل، وخُفاف بن نُدْبَة، وعُرْوَة بن الورد، وسلامة بن جندل، وشعراء من هذيل كثيرون... (انظر كتابنا بشر بن أبي خازم الأسدي ص ٣٣٢ - ٣٣٣).

ولكن رغم ما تقدم، يبقى كتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام مصدراً مهمّاً من مصادر التراجم القديمة ومصادر النصوص الشعرية. يصعب على الباحث في التراث العربي أن يتجاوزَه أو يفضّ الطرفِ دونه. ولكن إجلالنا لعلمائنا لا يعني أنه يجب أن نسلّم لهم بكل ما جاؤوا به من آراء، أو أحكام، أو أقوال... ولا شكّ لدينا في أنّ بحثاً أطول ونظراً أمهل في هذا الكتاب سيقودان إلى أكثر مما نَبّهنا عليه أو أشرنا إليه هاهنا.



المُعَمَّرُونَ وَالْوَصَايَا

للسجستاني (٢٥٥ / ٨٦٨)

جَمَعَ هذا الكتاب أديب من أدباء العربية في القرن الثالث الهجري، هو أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني المتوفى سنة (٢٥٥هـ). والكتاب مجموعة من أخبار وأشعار المُعَمَّرِينَ الَّذِينَ عاشوا في الجاهلية وصدر الإسلام. وتكشف الأشعار التي انطوى عليها هذا الكتاب عن أغراض من أغراض الشعر القديم كانت غير معروفة، فالمعمرون، في نصوصهم المختارة لهم، يصورون لنا مشاعرهم، وهم على أعتاب الأبدية، فهم يندبون أيامهم الغابرة، ويكفون شبابهم الهارب، وفتوتهم الضائعة.

وقد صدر هذا الكتاب في القاهرة عام ١٩٦١ مُحَقَّقًا من قبل (عبد المنعم عامر). وهو لا ينطوي على أخبار المعمرين وقطوف من إبداعهم الشعري فحسب، بل أيضاً على وصاياهم لبنيتهم قبل الموت، فعنوانه الكامل هو (المعمرون والوصايا).

والكتاب رواه تلميذ أبي حاتم (أبو روق الهزاني) وربما كان هذا التلميذ تصرّف قليلاً فيما سمعه عن أستاذه السجستاني فقد يزيد أو ينقص أو يؤكد رواية أبي حاتم بروايات أخرى سمعها من غيره.

ويرى ناشر الكتاب « أنَّ القارئ لِسِيَرِ المعمرين وأخبارهم وأشعارهم التي وردت في كتاب المعمرين ليدرك أنَّ الشعر في غالبه يرجع إلى قبائل جنوب بلاد الجزيرة العربية - (الحميريين)، لفظاً ومعنى ونظماً، وأنَّه يعود إلى عصر الجاهلية حقيقة. وليس بعيد أن يكون بعض هذا الشعر منظوماً في العصر العباسي، وقد نُسِبَ إلى العصر الجاهلي زيفاً وُثِّقَتَانَا من خلف الأحمر، أو محمد بن سلام كما يذهب بعض النقاد للشعر الجاهلي، اعتماداً على المقاييس النقدية التي تمتاز بها العصور الأدبية. ولكنَّ هذا التشكيك بعيد الاحتمال» (صفحة ج و ط).

والذي يبدو لنا أنّ شكّا عريضاً يحوم حول هذه الأشعار المسروقة في كتاب (المعمرون)، ولسنا نوافق المحقق على توثيق هذا الشعر، أو بالأصح لا نوافق على توثيق جميع هذا الشعر، ذلك أننا لا نجد لبعضه أيّ ذِكرٍ في كتب التراث الأخرى، كما أننا نلاحظ سهولة تعابيره وبساطة بنيته الفنية، ونلاحظ بُعدَ منهج القصائد الواردة فيه عن المنهج الشائع والمعروف في كثير جداً من القصائد التي تنتمي حقاً إلى الشعر الجاهلي.

ومع ذلك فإنّ الشكّ في أشعار الكتاب لا يمنعنا من تعرف منهج هذا الكتاب ومضمونه، فهو يذكر اسم المَعمر ونَسبَهُ، ويشير إلى بعض أخباره، ويسوق بعض أشعاره، ويذكر دوماً الروايات التي تحدّثت عن عمره. وقد كانت العرب لا تجعل الرجل مُعمرّاً حتى يبلغ من العمر مائة وعشرين سنة. والمعمرون الذين روى أبو حاتم أخبارهم بلغوا في روايته أعماراً تراوح بين عشرين ومائة سنة، ومائتين أو أكثر من مائتين.

ولكن ما ذكره أبو حاتم عن أعمار هؤلاء لا يمثل واقع العدد بقدر ما يمثل طول الأبد.

وقد كان التاريخ عند الجاهليين غائماً مهملاً، فهم يؤرخون بأحداث وقعت لهم أو بأزمة أصابتهم، أو بعامل يكون عليهم، أو بوقعة حربية فاصلة، أو بخروجهم من بلد إلى آخر... الخ.

ومن أمثلة ذلك قول الربيع بن ضبع الفزاري:

ها أنذا آمل الخلودَ وقد أدرك عقلي ومولدي حُجراً
أبا امرئ القيس هل سمعت به هيهات هيهات طالَ ذا عُمرَا

فأرّخ عُمرَهُ بزمان حُجْرٍ بن عمرو الكندي والدمر القيس - الشاعر الجاهلي المعروف.

وطول أعمار الأولين يثير مسألة المقارنة بيننا وبينهم، فمن الراجح أنهم كانوا أطول أعماراً، والمعمرون بينهم أطول عمراً من المعمرين بيننا، بسبب طيب المناخ وبرودة الطقس.

وقد بيّنتِ البحوث العلمية أن الإنسان قادر على أن يمينا (١٥٠) سنة، إذا عرف كيف يتحكم في أعضائه، فلا يدع التلف يدب إليه باستسلامه لانفعالاته من غضب أو حزن أو حقد أو قلق، فتثور غدده، وتصبُّ في دمه مواد كيميائية يؤدي بعضها إلى ضعف الأعضاء وعجزها عن أداء وظيفتها، ومن هنا لا نستطيع إلا أن نقر بوجود المعمّرين، جاعلين عدد السنوات التي يذكروها أبو حاتم لهم في كتابه هذا تدل على طول الأبد، وليس على دقة العدد، كما ذكرنا من قبل.

ولكن هل ذكر أبو حاتم كل المعمّرين؟ الجواب: لا، لأن هذه الإحاطة والاستقصاء لم يكونا شرطاً له في كتابه، ويبدو أنّ هدفه الأبرز كان اختيار الحكم والأمثال التي تفوّه بها المعمرون في أواخر حياتهم.

واختيارات السجستاني تفيدنا، إذا وثقنا بها، في معرفة المعاني التي تعاورها المعمرون في أشعارهم، فهم مثلاً يشبهون الشيب بالضيف المكروه، يقول بعضهم:

ضيفٌ بغيضٍ لا أرى لي عُصراً منه هربتُ فلم أجد لي مهرباً

ومن معانيهم المتداولة التعبير عن الغصّة والأسى على قوتهم التي تضارع قوة الأسود في شبابهم، وضعفهم الذي آلوا إليه، وصيرهم إليه الدهر الخزون الأعجب:

ولقد أراشي والأسود تخافني وأخافني من بعد ذلك التعلبُ
وإذا رأيتَ عجيبةً فاصبر لها والدُّهرُ قد يأتي بما هو أعجبُ

ومن الأعلام الواردة تراجمهم في هذا الكتاب: زهير بن جناب الكلبي، وعامر بن الطرب العدواني، وعمرو بن حممة الدوسي، والربيع بن ضبّع الفزاري، والأفوه الاودي وآخرون كثيرون. ولسنا هنا بصدد التفصيلات الواسعة، وحسبنا أن نقدم فكرة ما عر كتاب من كتب تراثنا الغني الخالد ألف في القرن الثالث الهجري.



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

الفاضل

للمبرّد (٢٨٥ / ١٩٨)

المُبرّد عَلَمٌ بارزٌ جداً من أعلام تراثنا العربي الباذخ، وهو من مواليد البصرة في السنة ٢١٠ هـ، وقد اعتمد على مؤلفاته الجَمّة الدارسون والمؤلفون، في القديم والحديث معاً، وكتابه « الكامل في اللغة والادب » لا يزال حتى اليوم يدرس في الجامعات، وفي أقسام اللغة العربية من كليات الآداب فيها.

واسم المُبرّد العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي البصري، وهو إمام اللغة العربية ورأس النحاة البصريين في زمانه. وقد كان، كما وصفه عارفوه، من العِلْم، وغزارة الأدب، وكثرة الحفظ، وحسن الإشارة، وفصاحة اللسان، وبراعة البيان، وملوكية المجالسة، وكرم العشرة، وبلاغة المخاطبة، وجودة الخط، وصحة القريحة، وقرب الإفهام، ووضوح الشرح، وعذوبة المنطق، على ما ليس عليه أحدٌ مِنّ تقدّمه أو تأخّر عنه.

تلقى المُبرّد علمه على أيدي شيوخه الكبار، أمثال أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني والرياشي والجرمي، وأخذ العلم عنه أبو بكر الصولي ونفطويه وأبو علي الطوماري والأخفش الصغير وغيرهم وغيرهم... وكان من خصومه الألداء عَلَمٌ لغوي كبير يدعى (ثعلباً)، و ثعلب أحد زعماء مدرسة الكوفة، ومن كتبه المطبوعة: مجالس ثعلب، وقواعد الشعر، وشرح ديوان زهير بن أبي سُلمى.

ولقد عاش المُبرّد حياة حافلة بالعلم والدرس والعطاء، وكما كان لخصمه (ثعلب) مجلس للعلم، كمان للمبرّد مجلس آخر يومئذ العلماء والأدباء والشعراء، ولما مات عام (٢٨٥هـ) عبّر أحد الشعراء عن مدى الخسارة الكبيرة التي أصابت الأدب بوفاته فقال:

ذهب المبرّد وانقضت أيامه
وليدهب إن المبرّد ثقلب
بيت من الآداب أضحى نصفه
خرباً وبالي بيتها فسيخرب

فابكوا لما سَلَبَ الزمانُ ووطنوا للثغرِ أنفسكم على ما يسلبُ

ومن الجدير بالذكر أن هذا العالم العظيم استحق أن يكون موضوعاً لرسالة دكتوراه تقدم بها السيد حازم طه مجيد إلى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام ١٩٧٣ .
هذا، وقد خلف لنا المبرد اثنين وستين كتاباً أحصاها جميعاً الدكتور رزوق فرج رزوق عام ١٩٧٤ في مقال له نشره في مجلة المورد العراقية، وقد دل على المخطوط والمطبوع منها، فذكر مثلاً من كتبه المطبوعة: الكامل في اللغة والأدب، وشرح لامية العرب، ونسب عدنان وقحطان، والمقتضب، والمذكر والمؤنث، والتعازي والمراثي، وكتابه هذا الذي نتحدث عنه الآن: (الفاضل).

و(الفاضل) كتاب صغير لطيف، يقلُّ قليلاً عن مائة وسبعين صفحة، وهو كتاب أدب ولغة وشعر وحكم وأمثال وأخبار، وبعبارة أخرى، هو مُصنَّف يروِّح عن النفس، ويثقف اللسان، ويمتج التآدب، لما يجويه من مصفَى الشعر، ومنحول النثر، ورائع الخطبة، وبلغ الرسائل، وظريف الأخبار، وغريب اللغة والنوادر.

وقد عثر على هذا الكتاب المرحوم عبد العزيز الميمني في أثناء تطوافه في خزائن استانبول بتركيا، وهي ملأى بالمخطوطات العربية النفيسة، كغيرها من المدن التركية، فقام بنسخه وتحقيقه، وقدمه لدار الكتب بمصر عام ١٩٣٨ فقامت بطبعه، وقد أعيد طبعه بالتصوير مرة ثانية في الآونة الأخيرة.

أما منهج الكتاب ومادته، فقد سلك فيهما المبرد وفاق ما سلكه في منهج «الكامل» ومادته، وهو منهج كان يحكم أكثر كتب الأدب التي ألّفت في القرن الثالث الهجري، كاليان والتبيين للمحافظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة. فالمؤلف سرعان ما يثب من فكرة إلى فكرة، ومن طرفة إلى أخرى، لغرض الترويح عن القارئ، ودفع الإملال والسأم اللذين قد يصيبانه في مطالعة مثل هذه المؤلفات. وبإيجاز فإن (الفاضل) صورة مصغرة عن (الكامل).

وَبُغِيَّةُ إعطاء فكرة عن مضمون هذا الكتاب نسوق هذه الأخبار والاشعار التي حوّاها، والتي تبين منهج الميرد في تأليفه اللغوية والأدبية.
قال الميرد في فاتحة كتابه:

« حدثني أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي: روى لنا أشياخنا أنّ رسول الله ﷺ كان يستحسن الشعر وينشده من أهله، ويثيب عليه قائله، ثم يروي أنّ شاعراً أنشده مدحاً في الله ومدحاً فيه، فأتابه على مدحه لله، ولم يثبه على مدحه له ... وكان يقول: إنّ من الشعر لحكمة، وإنّ من البيان لسحراً، وكان حسان بن ثابت شاعره، ويروى أنه أنشده في كلمة له يقول فيها:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مَّيِّنَةٌ كَانَتْ بِدَاهُتُهُ تَبْيِيسُكَ بِالْحَبِيرِ

فأعجب بذلك ﷺ وأتاب حسناً ودعا له .»

ومن الطرف الرائعة التي ساقها في كتابه، والتي تحكي وفاء الحيوان وإخلاصه، هذه التي سمعها عن جابر بن سليمان الأنصاري الذي روى عنه عمه عثمان بن صفوان الأنصاري، قال: « خرجنا في جنازة علي بن الحسين رحمة الله عليهما، فتبعتنا ناقته تخطّ الأرض بزمامها، فلما صلبنا عليه ودفناه، أقبلت تحنّ وتردد، وتريد قبره، فأوسعنا لها، فجاءت حتى بركت عليه وجعلت تفحص بكركرتها وتحنّ، فوالله ما بقي أحدٌ إلاّ بكى وانتحب. وقال: وَبَلَّغْنَا أَنَّهُ حَجَّ عَلَيْهَا لِمَانِي عَشْرَةَ حِجَّةٍ أَوْ تِسْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً لَمْ يَقْرَعَهَا بَعْصًا ! » - (ص ١٠٥).

وفي فصل آخر عن الشعر والفصاحة قال الميرد: (وحدث أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي قال: رأيت أعرابياً من بني أسيد أعجبني ظرفه وروايته، فقلتُ أيهما أشعر عندك؟ فقال: بيوت الشعر أربعة: فَخْرٌ وَمَدْحٌ وَهَجَاءٌ وَنَسِيبٌ، وفي كلها غلب جرير، فالفخر قوله:

إذا غضبت عليك بنو قميم حسبت الناس كلهم غضابا

والمدح قوله:

الستم خير من ركب المطايا وأنشدى العالمين بطون راح

والهجاء قوله:

ففض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

والنسيب قوله:

إن العيون التي في طرفها مرض قتلنا ثم لم يُخَيِّن قتلنا

وقال أبو عبد الله: والنسيب عندي قوله:

ولمّا التقى الحيان ألقى القصاصا ومات الهوى لما أصيبت مقاتله

فقلت للأسدي: والله لقد أوجعكم (يعني في الهجاء)، فقال: يا أحمق أو ذاك يمنعك من أن يكون شاعراً» - (ص ١٠٩ - ١١٠).

وهنا نلاحظ روحاً موضوعية عالية تكبير الشعر، وتعليقي قيمة الجمالية على أي قيم أخرى، فالأسدي اعترف لجرير بسمو الشاعرية، رغم أنّ هجاءه في قومه كان مؤجعا! وفي فصل في الجمال قال المبرد: «يروى عن ابن كُناسة أنه قال: الجمال في الأنف، والحسن في العينين، والملاحة في الفم. وقال ابن عباس وقد سُئِلَ عن المُحدّثين وعن بني أمية فقال: نحن أصبح وأسمع وأفصح» - (ص ١١٦).

وهكذا نرى المرء يتقل بنا من خير إلى آخر، ومن طرفة إلى أخرى، فِيمْتَعِنَا وَيَسْرُوحُ
عَنَّا، ويشدُّنا إلى قراءة كتابه، ونحن على أشد ما نكون من الشوق والترقب، لما تجود به
خواطره من ألوان ومنوعات. وقد كان ذلك كله يجيء على جناح لغة جميلة وعبارة رشيقة
صقيلة.



الورقة

لمحمد بن داود بن الجراح (٢٩٦ / ٩٠٨)

يُعَدُّ هذا الكتاب من طلائع الكتب التي أُلِّفت في تراجم الشعراء - فقد ألفه أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح في القرن الثالث الهجري، فكان مع كتاب: طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، والشعر والشعراء لابن قتيبة، وطبقات الشعراء لابن المعتز، من المناهل الأولى التي اعتمد عليها من أُلِّف في الشعراء فيما بعد.

ومؤلف الكتاب هو محمد بن داود بن الجراح المتوفى في السنة (٢٩٦/٩٠٨) قال عنه ابن النديم: (لم يُرَ في زمانه أفضل منه. وكان عالماً لقي الناس وأخذ عن العلماء والفصحاء والشعراء. وكتب بخطه ما لا يُحصى كثرة).

ومن المعروف أن أباه داود بن الجراح قد ولي ديوان الزمام في عهد الخليفة المتوكل. أما داود نفسه فقد تولَّى ديوان المشرق، ثم ديوان الأشراف، فديوان الجيوش. ولما بُويغ ابن المعتز بالخلافة صار وزيراً له. وحين قُتل هذا الخليفة بعد يوم ليلة، اختفى وزيره محمد، ثم أسلم نفسه إلى أحد رجال دولة الخليفة المقتدر بالله، فأمر الخليفة بحبس، ثم قُتل في العام (٢٩٦هـ) وهي السنة التي قتل فيها ابن المعتز أيضاً.

ومن مؤلفات ابن الجراح: أخبار الوزراء، والشعر والشعراء، وكتاب الأربعة في أخبار الشعراء، وكتاب الورقة.

وكتاب الورقة هذا، كتاب لطيف يقع في (١٥٩) صفحة. وقد حققه الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج، ونشره في القاهرة في سلسلة (ذخائر العرب - رقم ٩) في سنة ١٩٥٣.

وقيل: إنَّ المؤلف سُمِّي كتابه هذا (الورقة)، لأنه كان يُترجم لكلِّ شاعر من الشعراء بورقة. ولكن الحقيقة غير ذلك، فتمَّة ترجمات يزيد على أربع صفحات، وترجمات تقل عن صفحة واحدة. ولكنه ربّما غلب الكثرة على القلّة، فمعظم التراجم لا يزيد على ورقة. تضمَّن كتاب « الورقة » ثمانين ترجمّة، وورد في بعض التراجم ذِكرُ لأكثر من شاعر، فكان عدد الشعراء ثلاثة وستين شاعراً.

والحقُّ أنَّ المؤلف ترجم لرجال لا يُعرَف عنهم أنهم شعراء بالدرجة الأولى، وإن كانوا رجال أدب ورواة شعر. فهو مثلاً يترجم لمحمد بن عبد الملك الفقعسي، وهو راوية قبيلة أسد بن خزيمه وصاحب مآثرها وأخبارها. وذكره ابن النديم على أنه مؤلف كتاب (مآثر أسد وأشعارها). فالقعسي إذن مصنّف، أكثر مما هو مبدع أو شاعر.

وحين يترجم للكسائي نجده يقول في (ص ٢٥): « علي بن حمزة، ويكنى أبا الحسن كوفي نزل بغداد، وأدب محمد بن الرشيد. وهو إمام الناس في النحو والقراءة، وأستاذ القرّاء وعلي بن المبارك الأحمر. وجمع الرشيد بينه وبين سيبويه، فخطأه الكسائي وغلّاه، فأمر الرشيد بصرف سيبويه، وأمر له بعشرة آلاف درهم، فلم يدخل البصرة استحياءً ممّا وقع عليه، ومضى إلى فارس فمات فيها. ويزعم البصريون أنه مات وله ثيف وعشرون سنة. وللکسائي أشعار حسان قليلة... ».

ولا يصحُّ أن نستنتج أنّ ابن الجراح قد اهتم فقط بالأعلام الكبار، كالکسائي، وهارون الرشيد، والأصمعي، وأبي يعقوب الخُرَمي، وعلي بن جبلة - العكوك، إذ نجده يترجم أيضاً لمغمورين أمثال أبي العذافر - ورد بن سعد، والبطين بن أمية البجلي، وخارجة بن فليح الملي، وميمون الحضري... إلخ.

وابن الجراح في تراجمه للمشاهير وللمغمورين كان يعود إلى مصادر سبقته، أو عاصرته. ومن المؤلفين الذين عاد إلى كتبهم وأكثر من النقول عنهم: دَعْبِل الخُزاعي، وهو مؤلف كتاب في تراجم الشعراء، يقول ابن الجراح في ترجمته لأبي الجهم - أحمد بن سيف الأنباري الكاتب « شاعر محسن طريف... وأنشد دعبيل لأبي جهم أحمد بن سيف في كتاب الشعراء:

أعاذلُ ليسَ البخلُ مِنِّي سَجِيَّةٌ ولكنَّ رأيتُ الفقرَ شراً سَبِيلَ

... إلخ - (ص ١٢٣).

وكذلك نقل ابن الجراح عن أبي هيفان المهزومي (٢٥٧/٨٧٠). والمرجح أنه كان ينقل عن كتابه المفقود (الأربعة في أخبار الشعراء). مما يضيفي على كتاب الورقة قيمة إضافية. ونقل ابن الجراح أيضاً عن أبي خيثمة، واسمه أحمد بن زهير (٢٩٩ / ٩١١) في مواضع كثيرة... كما أفاد من مؤلفات هارون بن المنجم (٢٨٨ / ٩٠٠). ولهذا المصنف الأخير كتابان هاما الأول اسمه: اختيار الشعراء، والثاني اسمه: البارع في أخبار الشعراء المولدين، وفيه جمع تراجم (١٦٥) شاعراً، أولهم بشار بن برد، وآخرهم محمد بن عبد الملك بن صالح. ولكن ابن الجراح لم يكن يُسمِّي دوماً الكتب التي ينقل عنها، فأفقدنا بذلك فرصة معرفة المصدر الدقيق لكل مقبوساته. ولا شك أن مؤلفات أخرى كانت من موارد كتاب الورقة، مثل كُتُب المرتدي، والجاحظ، وابن سلام، وابن قتيبة... إلخ.

يَبْدُ أنَّ كتاب الورقة هذا الذي بين أيدينا اليوم، ليس كتاب الورقة كما جَفَّ عنه مداد مؤلِّفه، بل دليل أن كتباً أخرى في تراجم الشعراء والمؤلفين نقلت نصوصاً عنه، لم يحوها هذا الكتاب المطبوع. وقد أشار إلى ذلك محقق الكتاب في مقدمته.

ولقد عثرتُ في أثناء مراجعاتي في كتب التراث على بعض تلك النصوص الساقطة من كتاب « الورقة » المطبوع، ولم أتقصَّ جميع كتب التراجم لغرض استدراكات النواقص هاهنا، وإنما كانت الرغبة في إثبات هذه الفكرة هي الأساس، وعلى سبيل المثال وجدت في كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان (٦٨١ / ١٢٨٢) ترجمة لديك الجن الحمصي، أفاد منها ابن خلكان من كتاب « الورقة »، يقول ابن خلكان: « أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب... الكلبي الملقب لديك الجن. الشاعر المشهور. وذكر ابن الجراح في كتاب « الورقة » أنه مولى لطبي، والله أعلم. أصله من أهل سلمية ومولده بمدينة

حمص...» - (وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٨٤). وقد أشار الدكتور إحسان عباس - محقق الوفيات، إلى غلو كتاب الورقة من هذا الخير.

وكذلك وجدت الصفدي (٧٦٤ / ١٣٦٢) يقول في كتابه (الوافي بالوفيات) في أثناء ترجمة إبراهيم بن العباس الصولي:

« هو أبو اسحق الصولي الأديب أحد الشعراء المشهورين والكتاب المذكورين له ديوان شعر مشهور... قال محمد بن داود بن الجراح في كتاب الورقة : أشعاره قصار، ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة، وهو أنعت الناس للزمان وأهله، غير مُدافع » - (الوافي بالوفيات ج ٦ ص ٢٤ - تحقيق س. ديدرنيغ. بيروت ١٩٨١). وقد أشار محقق الوافي إلى أن هذه الترجمة للصولي لم ترد في كتاب الورقة المطبوع. وهو على صواب في ذلك.

وكذلك عثرت في الكتاب ذاته على ترجمة أخرى لشاعر اسمه: حمدان بن الحسن الجرار، قال فيها الصفدي: إنَّ أبا عبد الله محمد بن داود بن الجراح الكاتب قد ذكره في كتاب الورقة في أخبار الشعراء المحدثين من جمعه، وذكر أنه بغدادى ماجن معتضدي - (الوافي بالوفيات ج ١٣ ص ١٦٢ - ١٦٣ تحقيق محمد الحجيري، بيروت ١٩٨٤). ولم ترد ترجمة الشاعر حمدان بن الحسن الجرار فيما طبع من كتاب الورقة - وقد لاحظ ذلك المحقق (محمد الحجيري) في حاشية له في الجزء الذي حققه من كتاب : الوافي بالوفيات.

وفي الجزء الثالث عشر من الوافي أيضاً، إشارة إلى تراجم أخرى كان محمد بن داود ابن الجراح قد ذكرها. ولكننا لا نستطيع أن نبت في أنها من كتاب الورقة، لأنَّ لابن الجراح كما قدمنا كتباً أخرى في التراجم - (انظر الوافي بالوفيات ج ١٣ ص ٢٤٧ و ص ٤٦٥). وقد كانت الترجمة الأولى لخالد بن أبان أبي الهيثم الكاتب الشاعر الذي ذكره ابن الجراح وقال فيه: « شاعر يطيل ويمدح، وله القصيدة التي في طرد النعام. ألف بيت رجز ». والترجمة الثانية لداود بن جمهور الأواني أبي علي (الكاتب). قال فيه ابن الجراح: « كاتب رسائل فصيح اللسان، كثير التنفع في رسائله، له رسائل جياد، ومن شعره...».

ولكن الصفدي أفادنا فائدة أخرى في نقوله عن ابن الجراح، إذ حدّد ووضّح اسم كتابه هذا، الذي ناقشه هنا. فقال فيه: الورقة في أخبار الشعراء المحدثين. وقد صدق

الصفدي في ذلك. فكل الشعراء والأعلام الذين تُرجم لهم في كتاب الورقة المطبوع، كانوا محدثين نسبياً، إذ لا نجد شاعراً جاهلياً أو إسلامياً أو أمويّاً.

وتوجد في كتاب (المحمدون من الشعراء) للقفطي (٦٤٨ / ١٢٤٨) (طبع بجمع اللغة العربية بدمشق ص ٣ و ٤ و ١٧٤) ترجمتان أفاد منهما القفطي من كتب ابن الجراح، ولكننا لانعرف بدقّة هل كان مصدره كتاب الورقة، أو كتباً أخرى لابن الجراح. لذا أحجمنا عن إيرادهما هنا.

ورغم ما تقدم يبقى كتاب « الورقة » مصدراً من مصادر الشعر والشعراء قبل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي. وليس في وسع الباحثين في الأدب القديم الاستغناء عنه وإن كان في وسعهم إكمال نقصه والاستدراك عليه، كما فعلنا نحن هنا على سبيل التمثيل، وليس على سبيل الاستقصاء.



شَجَرُ الدَّرِّ

لأبي الطَّيِّبِ اللُّغَوِيِّ (٣٥١ / ٩٦٢)

الكتاب الذي تتحدَّث عنه هنا من كُتُبِ فِقْهِ اللُّغَةِ القَدِيمَةِ عامَّةً، ومن كُتُبِ المِشْطَرِكِ اللفظي خاصة.

ونعني بالمِشْطَرِكِ اللفظي اشتراك الكلمة باللفظ الواحد، ودلالاتها في الوقت نفسه على معانٍ مختلفة، منها الحقيقي ومنها المجازي.

وربَّما كان أوَّل من أَلَف في هذا الجانب من اللُّغَةِ أبو عَمْرٍو المِطْرُزُ البَغْدَادِي (٣٤٥هـ) صاحب كتاب: المداخل، وهو فصول رواها عن أستاذه ثعلب، ورواها ثعلب، من قبل، عن ابن الأعرابي وغيره.

كما أَلَف فيه مُحَمَّد بن يوسف بن عبد الله السرقسطي (٥٣٨هـ) صاحب كتاب: المسلسل في غريب لغة العرب.

أما مُؤَلِّف كتاب « شجر الدرِّ في تداخل الكلام بالمعاني المختلفة » فهو أبو الطَّيِّبِ اللُّغَوِيُّ التُّوْقِيُّ في السَّنَةِ (٣٥١هـ)، وهو صاحب عدة كتب في اللُّغَةِ، نُشِرَ بعضها، والبعض الآخر لا يزال مخطوطاً. ومِمَّا نُشِرَ له: كتاب مراتب النحويين، الذي حقَّقه مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، وكتاب المثني، وكتاب الإبدال، وقد طُبِعَا بدمشق بتحقيق عز الدين التنوخحي، وكتاب الأضداد في كلام العرب، ونشره بدمشق أيضاً الدكتور عزة حسن (شَجَرُ الدَّرِّ) هذا الذي تتحدَّث عنه.

والكتاب الذي بين أيدينا - حقَّقه محمد عبد الجواد، وظهر في القاهرة، منذ زمن بعيد نسبياً - مُكوَّن من فاتحة وست شجرات. والشجرة الأولى، مثلاً، مؤلَّفة من خمسة فروع، كل فرع يبدأ بلفظ جديد، هو شرح للفظة الأولى، التي بدأت بها الشجرة، والشجرة الثانية مؤلَّفة من ١٢/ فرعاً، والثالثة من ١٠/ فروع وهكذا...

ولعلَّ خير ما نوضَّح به مضمون الكتاب أن نذكر ما قاله المؤلف فيه (ص ٥٩) وهو: « هذا كتاب مداخلة الكلام بالمعاني المختلفة سَمِّيَناه: شَجَرُ الدُّرِّ، لأنَّا تَرَجَمنا كل باب منه بشجرة، وجعلنا لها فروعاً، فكل شجرة مائة كلمة، أصلها كلمة واحدة، تتضمن من الشواهد عشرة أبيات من الشعر، وكل فرع عشر كلمات، فيها من الشواهد بيتان، إلَّا شجرة ختمنا بها الكتاب، لا فَرَعَ لها ولا شاهد فيها، عدد كلماتها خمسمائة كلمة، أصلها كلمة واحدة، وفي آخرها بيت واحد من الشعر. وإنما سَمَّينا الباب من أبواب هذا الكتاب شجرة، لاشتجار بعض كلماته ببعض، أي تداخله، وكل شيء تداخل بعضه في بعض فقد تشاجر، ومنه سَمَّيت الشجرة شجرة، لتداخل بعض فروعها في بعض...».

ولنأخذ نموذجاً من الكتاب يوضَّح طريقة المؤلف ومنهجه، فهو مثلاً في الشجرة رقم «١» يبدأ بكلمة « الصَّحْن » ثم يتدفَّق قائلاً: «الصحن: قدح النبيذ، والنبيذ الشيء المنبوذ، والمنبوذ اللقيط، واللقيط النوى، والنوى الشَّحط، والشَّحط الذبح، والذَّبْح الشَّقْ، والشَّق... الخ». وحينما يصل إلى الفرع «١» من الشجرة ذاتها يعود فيبدأ من جديد - «ص ٣٧» - «والصحن: إصلاح الشعب، والشَّعب الرفو، والرفو السكون، والسكون جمع سكن وهو النار، والنار الوشم، قال الشاعر:

المحْنُ وهنَّ أغفالٌ عليه فقد ترك الصلاةً بهنَّ نارا

والفرع الثاني أيضاً، يبدأ بكلمة (الصحن)، ويأتي أبو الطيب بمعانٍ جديدة مسلسلة له، ولمعاني معانيه (ص ٨٠)، والشيء ذاته يقال عن: الفروع ٣ و ٤ و ٥ فكل منها يبدأ بكلمة (الصحن).

وأما محور الشجرة الثانية فهو كلمة (الهلال)، والثالثة (الثور)، والرابعة (العين)، والخامسة (الرؤية)، والسادسة (التعل).

وهكذا نرى أنَّ هذا اللون من التأليف اللغوي يحاول نظم مجموعة من المفردات في سموط عجيبة تربط حباتها وشائج من المعاني اللطيفة، وبها ينتقل القارئ من لفظةٍ إلى أخرى على خيط من المعنى المشترك يجمع بينها.

ومن خلال هذه الرياضة اللغوية الممتعة يتم تحصيل أكبر ثروة لغوية ممكنة، ويقع استذكار معاني مفردات اللغة دونما سأمٍ أو ملل، وتوضَع لبنةٌ من لبنات المعجم العربي الشامل.

وأخيراً ليس لنا سوى أن نُكبر جهود لغويِّنا القدامى، وأن نشني على عبقرية أبي الطيب اللغوي، الذي كان من أبرز هؤلاء اللغويين وأعلام مكانة وقدرًا.



معجم الشعراء للمرzbاني (٣٨٤ / ٩٩٤)

مؤلف هذا المعجم هو محمد بن عمران أبو عبيد الله المرزباني المولود في بغداد سنة (٢٩٧ / ٩٠٩) والمتوفى سنة (٣٧٨ هـ) أو (٣٨٤ هـ) في رواية أخرى.

ويتمي المرزباني إلى أسرة علم وأدب خراسانية الأصل، وكلمة مرزبان تعني باللغة الفارسية: حافظ الحدّ. ومما يروى انه كان في بيته خمسون ما بين لحاف ودواج مُعدّة لأهل العلم الذين يبيتون عنده. ولقد خلف لنا المرزباني /٥٥/ خمسة وخمسين كتاباً حسب إحصاء الدكتور (رمضان عبد التواب) لها في كتابه (مناهج تحقيق التراث ص ٢٨٥-٢٨٧) يبلغ مجموع أوراقها حوالي (٤٧٠٠٠) ورقة. ولسوء الحظ لم يصل إلينا من هذه الكتب الكثيرة سوى الكتب التالية:

- ١- الموشح، وقد طبع في مصر بتحقيق علي محمد البحاري في السنة ١٩٦٥.
- ٢- أخبار السيد الحميري، وحقّقه محمد هادي الأميني، وطبع في النجف في السنة ١٩٦٥.
- ٣- أخبار شعراء الشيعة، وحقّقه محمد هادي الأميني، ونشره بالنجف في العام ١٩٦٨.
- ٤- كتاب معجم الشعراء، وهو الذي ستحدث عنه هنا.

ومعجم الشعراء هذا ثمرة من ثمرات التصنيف والتأليف في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، الذي بلغ فيه الفكر العربي والحضارة العربية شأناً كبيراً، ومستوى رفيعاً من النضج والعمق والاتساع والتشعب والتنوع. وقد كرّس المرزباني معجمه لتراجم الشعراء بعد أن سبقه الى هذا الضرب من التأليف ابن سلام الحنملي والجاحظ وعمر بن شبة

وابن قتيبة وعلي بن يحيى المنجم ومحمد بن داود بن الجراح والأصفهاني والآمدني وآخرون
كثيرون...

وتألف هذا المعجم، لحظة فرغ منه صاحبه، من (١٠٠٠) ورقة (الفهرست - طبعة
رضا تجدد ص ١٤٦). ولكن هذه الأوراق الألف لم تصل إلينا كاملة، بل وصلنا منها قطعة
تعادل خمس الكتاب، فقد بلغ مجموع تراجم الجزء المطبوع الذي بين أيدينا نحو ألف شاعر.
في حين ترجم المرزباني في كامل كتابه لنحو (٥٠٠٠) خمسة آلاف شاعر أنجبتهم العبقريّة
العربية الشعرية من الجاهلية حتى زمانه.

وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة على يد المستشرق الألماني (فريتس كرنكو) في
القاهرة عام ١٣٥٤ هـ مع كتاب المؤلف والمختلف للآمدني. وأعاد نشره ثانية المحقق
المرحوم عبد الستار فرّاج بالقاهرة عام ١٩٦٠، مستقلاً عن كتاب المؤلف والمختلف، ثم
طبع بالتصوير في دمشق، بعد أن عزّت طبعته الثانية على الباحثين والدارسين.

والمشهور من هذا الكتاب هو الجزء الثاني منه. أما الأول فلا يعرف مكانه الى اليوم.
وحتى هذا الجزء الثاني ضاعت منه صفحات شملت بعض الحروف، فحرف العين ساقط منه،
وكذلك حرف النون، وحرف الواو، عدا عن السقط في بعض الأسماء.

ويبدأ المطبوع من هذا المعجم بحرف العين، ولكنه لايسْتَمِهُ، فتمّة مئات من الشعراء
العبادلة (جمع عبد الله) سقطوا من الأصل الذي أخرج عنه الكتاب. فهو يبدأ بذكر من اسمه
(عمرو). ومع ذلك لايسْتَقْصِي كل هؤلاء الشعراء، فقد ذكر من بين من اسمه عمرو (١٩٢)
شاعراً، في حين ترجم محمد بن داود بن الجراح (٢٩٦ / ٩٠٨) في كتابه (من اسمه عمرو
من الشعراء) لـ (٢٠٦) شعراء، ويفصل بين ابن الجراح والمرزباني نحو تسعين عاماً، لاشك
أنه ظهر فيها شعراء كثر باسم (عمرو).

والحقيقة أن نشرة المرحوم فرّاج قد استدركت الكثير الكثير على ما جاء في نشرة
(كرنكو) التي سبقتها بربع قرن، وقد بلغ مجموع ما استدركه فرّاج (٢٩٨) شاعراً لم ترد
أسمائهم في ما وصل إلينا من هذا الكتاب، بل ذكرتهم مصادر أخرى نقلت عنه قبل ضياع
قسم منه، مثل كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي، والإصابة لابن حجر العسقلاني،

وعيون التواريخ لابن شاكر الكسبي، وفوات الوفيات له، والاشتقاق لابن دريد، وتهذيب تاريخ ابن عساكر، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد... الخ.

ومع ذلك فقد أصدر الدكتور إبراهيم السامرائي كتاباً بعنوان: من الضائع من معجم الشعراء للمرزباني، عام ١٩٨٤، ذكر فيه ما مجموعه (٢٦٤) شاعراً، سقطوا من مطبوعة (معجم الشعراء)، وقد رتبهم ألفبائياً، وساق الأخبار المتصلة بكل منهم، نقلاً عن المصدر الذي عاد إليه، وذكر في النهاية مصادر عمله هذا، فبلغت أحد عشر مصدراً...!

وبعد أن ظهرت أجزاء معينة من كتب تراثية أخرى قام الدكتور إحسان عباس باستدراكات أخرى على ما طبع من (معجم الشعراء) فعثر على أسماء أكثر من ثمانين شاعراً أخلت بهم المطبوعة، ونشر عمله هذا في أحد أعداد مجلة الأبحاث الصادرة عن الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٨٥.

ويمكن للمرء أن يضيف إلى كل هذه الاستدراكات أيضاً أسماء شعراء آخر ترجم لهم المرزباني، وسقطت تراجمهم من كتابه المطبوع، وعلى سبيل المثال فقد وجدتُ، دون جهد استقصائي محكم، في كتاب الإكمال، لابن ماكولا، اسم شاعر سقط من جميع تلك الاستدراكات، وهو جُدَيُّ بن تَدُول الطائي ترجم له المرزباني في معجمه، ولم يرد اسمه بين الأسماء المشار إليها في الاستدراكات السابقة (انظر الإكمال ٢: ٦٣). وكذلك وجدت في كتاب: تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر - دمشق ١٩٨٦، (ج ٣٨ ص ٢٨٢) اسم شاعر يدعى (عبد الله بن محمد بن يزداد) وهو أبو صالح الكاتب، وأصله من مرو، وكان أبوه وزيراً للمأمون، وقد ذكره المرزباني في (معجمه)، وهو ليس بين استدراكات (فراج) أو (السامرائي) أو (عباس). ووجدت أيضاً شاعراً ثالثاً لم يذكر في الاستدراكات ذاتها. ورد في (تاريخ مدينة دمشق) لابن عساكر، دمشق ١٩٩٤، (ج ٣٧ ص ٢١٣) واسمه عبد الله بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، قال ابن عساكر: «وهو ابن أبي قطيفة الشاعر كان في زمان هشام بن عبد الملك وبينه مزاحمة في الشعر ذكره أبو عبيد الله المرزباني في كتاب معجم أسماء الشعراء». ولم يرد فيما وصل إلينا من هذا الكتاب.

وندع ما سبق، لأنه ليس من همّنا هنا أن نتقّص أسماء الشعراء الآخرين الذي ترجم لهم المرزباني في معجمه وسقطوا من مطبوعه، ونبقى على ثقة بأن جهداً يرصد كتب التراجم الأخرى التي ظهرت حديثاً في ثمانينيات وتسعينيات هذا القرن، مما ألف بعد زمن المرزباني، سيؤتي أكله دون ريب، وسيستدرك صاحبه أسماء شعراء آخر، لم يقع عليها الباحثون الذين قاموا بما يشبه هذا العمل من قبل.

يبد أنه من الأهمية بمكان أن نعرّف القارئ بمنهج الكتاب وطريقة صاحبه في التأليف، فالمرزباني كان يهتم بكل شاعر يصادفه، حتى وإن لم يبق من شعره سوى بيتٍ أو بيتين، وذلك عملاً بالميل إلى الاستيعاب... ومن هنا حوى «معجم الشعراء» حوالي خمسة آلاف ترجمة لخمسة آلاف شاعر - كما قدّمنا. ولا شك في أن شعراء العربية بلغوا إلى زمن المرزباني أكثر من خمسة آلاف شاعر بكثير.

ويفتح المرزباني كتابه بذكر من اسمه (عمرو) فيذكر أولاً هذه الترجمة مثلاً: «هاشم واسمه (عمرو) بن عبد مناف - واسمه المغيرة بن قصي - واسمه زيد - بن كلاب بن مرة بن لؤي، وهاشم هو جد الرسول ﷺ، ويكنى أبا نضلة، وفيه يقول مطرود ابن كعب الخزاعي:

عمرو الذي هشمّ الثريدة لقومه
ورجال مَكَّة مستنون عِجاف

ولما قصد البيت بعض من قصده، قال هاشم في رجز له: «عُدْتُ بما عاذ به إبراهيم» (معجم الشعراء ص ٣).

وفي وسعنا أن نعدّ هذه الترجمة نموذجاً، من حيث الطول والقصر، على تراجم الكتاب بأسره، مع اختلافات يسيرة. وفي مقدورنا تفسير قصر الكلام على الشعراء برغبة المؤلف في استيفاء تراجم الشعراء الذين سبقوه - كما أوضحنا.

وإذا كان المرزباني قد بنى معجمه على أساس الترتيب المعجمي لأسماء الشعراء، فإنه لم يكن يراعي، في كثير من الأحيان، الحروف الثواني في تسلسل أسماء الشعراء المبدئين

بحرف واحد، فهو مثلاً يذكر أولاً اسم (عمرو)، وبداخله يسوق بالترتيب (عميراً)، ثم يعود في (ص ٨٨) إلى ذكر من اسمه (عثمان). وفي (ص ١٠١) يذكر مباشرة من اسمه (عباس) ثم يأتي في (ص ١٠٥). عن اسمه (عتبة)، وفي (ص ١٠٦) يورد من اسمه (عتاب). وفي (ص ١٠٩) يبيء عن اسمه (عُيينة)... وهذا مخالف للمبدأ المعجمي في ترتيب الأعلام حسب الحرف الثاني.

وقد اهتم المرزباني أيضاً بذكر زمن الشاعر أو عصره، كأن يشير إلى ارتباطه بشخصية معروفة، أو حادثة مشهورة، أو يوم من أيام العرب، أو يقول صراحةً هذا عباسي، أو إسلامي، أو مخضرم، أو جاهلي... الخ. وهنا لابد من التوقف عند هذه النقطة، فنعت المرزباني لبعض الشعراء بأنهم جاهليون مثلاً، لا يصح الركون إليه، وربما انطوى على بعض التحوُّز، أو الخطأ أحياناً، ففي (ص ٣٠٩) مثلاً نعت المرزباني الشاعر (مغلس بن لقيط بن حبيب بن خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان الأسدي) بأنه جاهلي، ومغلس هذا، كما يتبين من نسبه، هو ابن حفيد خالد بن نضلة الذي يروى أنه كان رئيس قبيلة أسد في (يوم النصار). وقد تبين لنا في بحثنا أن (يوم النصار) وقع على الأرجح بين سنتي (٥٨٣ - ٥٨٤م) (انظر كتابنا بشر بن أبي خازم الأسدي، بيروت ١٩٩١ ص ٦٤) وبالتالي فإن ابن حفيد خالد بن نضلة يصعب أن يكون شاعراً جاهلياً، وهو بالتأكيد شاعر مخضرم، إن لم يكن شاعراً إسلامياً.

ومن هنا نجد أن التسليم بجميع أحكام المرزباني، فيما يتصل بأزمان الشعراء، أو في نسبة الشعر إليهم، لا يستقيم، فهي أحكام - كغيرها من الأحكام الأدبية التي نعثر عليها في بعض كتب التراث - تحتاج إلى تمحيص وتحقيق وتوثيق.

وأخيراً نستطيع القول - رغم ما سبق - إن كتاب معجم الشعراء هذا كتابٌ ثمينٌ وقيّمٌ لأنه نقل لنا أخبار شعراء لا نجد لهم ذكراً في غيره من كتب التراث، كما حوى نصوصاً تفرد بروايتها لكثير من أعلام العرب في ميدان القريض، مما جعل الباحث في التراث العربي بحاجة ماسة إليه في بحوثه ودراساته المتصلة بالشعر والشعراء.

الفصول الأدبية

للصاحب بن عبّاد (٣٨٥ / ٩٩٥)

من بين الكتب التي أصدرتها مديرية إحياء التراث العربي في وزارة الثقافة والإرشاد القومي في سورية كتاب (الفصول الأدبية)، لمؤلفه الصاحب بن عبّاد. وقد حققه الشيخ محمد حسن آل ياسين. ومحقق هذا الكتاب يكاد يكون متخصصاً بتحقيق آثار ابن عبّاد. فقد أخرج له ما لا يقل عن أحد عشر كتاباً نذكر منها:

١ - الإقناع في العروض والقوافي.

٢ - الأمثال السائرة في شعر المتنبي.

٣ - ديوان الصاحب بن عبّاد.

٤ - الفرق بين الضاد والظاء.

٥ - الكشف عن مساوئ شعر المتنبي.

كما تولى إخراج معجم ابن عبّاد (المحيط في اللغة) وهو سبعة مجلدات، أصدر منها حتى الآن جزأين. والشيخ محمد حسن آل ياسين، من ثمّ، من الرجال الغير على التراث المخلصين في خدمته ونشر كنوزه، ومما يُذكر له في هذا المجال نشره لمجموعة من المخطوطات النادرة دعاها «نقائس المخطوطات» وهي تقع في قسمين.

أمّا ابن عباد، فقد ولد في السنة ٣٢٤ هـ أو ٣٢٦ هـ وتوفي في السنة ٣٨٥ هـ، وكانت سنواته الستون هذه حافلة بالعلم والعطاء، فقد تتلمذ على ابن العميد، الذي كان الثعالبي يعدّه وحيد عصره في الكتابة، والذي قيل فيه: «بُدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد» (يتيمة الدهر ٣: ١٨٣). كما تتلمذ على يد العلامة اللغوي الشهير أحمد بن فارس، صاحب معجم المقاييس. ومن شيوخه أبو سعيد السيرافي، وأبو بكر أحمد بن كامل بن شجرة، وأبو بكر محمد بن الحسن العطار المقرئ.

وتما يدهش ويعمق الإعجاب بابن عباد، ما رواه صاحب « يتيمة الدهر » من أن كتب ابن عباد تحتاج إلى أربعمائة بعير لنقلها... وقد روى ياقوت الحموي عنه قوله: «مُدحت بمئة ألف قصيدة شعر عربية وفارسية، وقد أنفقت أموالي على الشعراء والأدباء والزُّور والقصاص.» (معجم الأدباء ٦: ٢٦٣).

وقد كان عطاء الصاحب بن عباد العلمي جمًّا، ومن أشهر كتبه: المحيطة في اللغة، والكشف عن مساوي شعر المتنبي، وهما مطبوعان، كما ذكرنا. ومما طبع من آثاره: الإبانة عن مذهب أهل العدل، والتذكرة في الأصول الخمسة، ورسالة في الهداية والضلالة... الخ.

أما كتابه هذا « الفصول الأدبية » فهو لم يرد بين قوائم مؤلفاته، بيد أن المحقق استنتج نسبه إليه من خلال عبارة وقع عليها في (كشف الظنون)، لحاجي خليفة، ولكنه عاد وأثار الشك في هذه النسبة، لاختلاف أسلوب هذه الفصول، عمَّا هو عليه أسلوب الصاحب في كتبه الأخرى، والتمس تفسيراً لهذا الاختلاف في أن تكون هذه الفصول قد كتبت في أيام شباب الصاحب، وقبل أن يعلو كعبه في صناعة الإنشاء، وتطول باعه في الكتابة الفنية. كما استأنس بقديم تاريخ نسخ المخطوطة التي أخرج عنها هذا الكتاب المنسوب إلى الصاحب فيها، وهي مخطوطة يرجع تاريخ نسخها إلى أوائل القرن السابع الهجري.

والكتاب الذي نتحدث عنه هنا هو مجموعة من الرسائل (العبادية) التي كان يصحّ للمراء أن يجتذبها آتخذ، أو ينسج على منوالها في مخاطبة من هو فوقه، ومن هو مثله، ومن هو دونه.

والكتاب مؤلف من خمسة عشر باباً، وكل باب من هذه الأبواب مقسم إلى خمسة عشر فصلاً. وهذه الفصول تتألف من ثلاث مجموعات، كل واحدة منها خمسة فصول، يصحّ أن يخاطب فيها صاحب مرتبة من تلك المراتب الثلاث.

ويمكن لنا أن نمثل لمنهج الكتاب بالآتي: فالباب الأول في (التلطّف) وهو في خمسة عشر فصلاً، يقول ابن عباد مثلاً في واحد من الفصول الخمسة الأولى: « إن قد غاب عنه - أدام الله عزه - وجهي، وطال عليه عهدي، لما غاب عن مكارمه ثنائي، ولاعن فضله رجائي، وكيف يغيب عنه الرجاء، وينقطع عنه الثناء، وهو قريبٌ دهره في الكرم، ونسيج

وحده في بُعدِ الهمم، والذي يُستضاءُ بغيرته وتنتجعُ رياض نعمته...» (ص ٤٨). ويقول في فصل من الفصول الخمسة الثانية، وهو خطاب موجه إلى من هو مثلك: «ما اعتمدتُك ياسيدي - أطل الله بقاءك - لأمل إلا حقيقته وإن عظم، ولا ذكرتُ لك شيئاً سلف إلا عرفته وإن قدّم. وقد أسعد الله تعالى من شام برّقتك، وتوسّم فضلك... الخ» (ص ٥٢). وفي واحد من الفصول الخمسة الأخيرة من هذا الباب يقول، والكلام يصحّ أن يوجه إلى من هو دونك: «أنت - أطل الله تعالى بقاءك وأدام عزك ونعماك - في خصالك البهية وخلالك المرضية الزكية، تأتي في إسعاف الحاجات، وأداء الطلبات بما يليق بكرمك، ويليق بشيمك، لتجمع بذلك كلَّ محمّدة، وتحوز كلَّ رفعةٍ ومنقبةٍ... الخ» (ص ٥٥).

وعبارات هذه الرسائل تكشف عن أسلوب النثر الفني في كتابات القرن الرابع الهجري عامة، وعن خصائص النثر الفني في كتابات ابن عبّاد خاصة. فقد اتصف هذا النثر بكثير من التكلف والتصنع، وباهتمام شديد بالسجع والمحسنات اللفظية. وهذا ما لاحظته الدكتور عبد الوهاب عزام إذ قال: ((إن صاحب غني في رسائله بالسجع فلا ينفك عنه إلا نادراً، كما غني بطول الجمّل وتحليلتها بالبديع، وخاصة الجناسات والاقتراسات والتشبيهات والاستعارات، وإن من يقرن رسائله إلى رسائل القاضي الفاضل، وحلّته من كتاب العصور التالية، يدرك أنّ هؤلاء الكتاب إنما استنوا في رسوم كتاباتهم بالسّنن التي نراها عند صاحب... وهي سنن اقتفى الصّاحب فيها أستاذه ابن العميد. ومن المعروف أنّ ابن العميد تناول الكتابة بمن سبقوه وهي مليئة بالسجع... ولم يكتب ابن العميد بالسجع فقد أضاف إليه البديع... ثم جاء صاحب من بعده فارتفع بالكتابة الديوانية إلى الصورة التي وصفناها» (مقدمة الفصول الأدبية ص ٢٢).

ومما يُروى عن استبداد السجع بأسلوب الصّاحب أن سَجَعَة اضطرّته، وهو الوزير، إلى عزل قاضي مدينة قُم، فإنه قال يوماً: أيها القاضي بقم. ثم حاول أن يكمل السجع، فأعنته ذلك، فقال: «قد عزّلناك فقم» !

وهكذا فإنّ هذا الكتاب يُعدُّ شاهداً من شواهد انزلاق العربية، على سعة بحرهما، وغنى ألفاظها وتراكيبها، إلى مهاوي التكلف والتصنع والزخرف، وهي صفات كانت تطبع

جُلَّ آثار النثر الفني في القرن الرابع، ولم يشذ عن تلك السنة المرذولة سوى عَلم شامخ من كتاب القرن نفسه، هو أبو حيان التوحيدي، الذي كان يُعدُّ خصمَ صاحب اللُدود، والذي نجح من سطوة مدرسة ابن العميد، وكان في ترسله وبلاغته خليفة للجاحظ، ذي العبارة الدقيقة المرنة المصورة المشرقة في الوقت نفسه، وهذا ما سيتضح أكثر في دراستنا التالية عن أبي حيان وكتابه (الصداقة والصديق) .



الصدّاقة والصدّيق

لأبي حيّان التوحيدى (٤١٤ / ١٠٢٣)

يعدُّ أبو حيّان التوحيدى من أكابر كتاب عصره، وعصره هو القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى، وقد لقّبه (ياقوت الحموى) بأديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، وقال عنه (آدم متز): « ربّما كان التوحيدى أعظم كتاب النثر العربى على الإطلاق» (الحضارة العربىة فى القرن الرابع الهجرى ١ / ٣٩٤).

والتوحيدى هو عليُّ بن محمّد بن العباس، وقد اختلّف فى مسقط رأسه، فقيل: فى شيراز، وقيل بنيسابور، وقيل بواسط، وقيل ببغداد...

ومن المعروف أن هذا اللقب «التوحيدى» قد لصق بصاحبنا لأنّ أباه محمّداً كان يبيع فى بغداد نوعاً من التمر، اسمه «التوحيد»، فنسبَ الابن إلى لفظ يتصل بحرفة أبيه. وثمة من يرى أنه هو الذى نسب إلى نفسه «التوحيد»، فعرف بالتوحيدى، كما سمّى (ابن تومرت) أتباعه بالموحّدين...

وما تقدم ينفي عن هذا الأديب ما توهمه بعض المعاصرين من أنه كان معتزلياً، فمن الثابت أن أبا حيّان كان من الدُّ خصوم المعتزلة.

وقد استخلص (عبد الرزاق محى الدين) نصوصاً من مؤلفات التوحيدى تنفي عنه الانحياز إلى الاعتزال، وتثبت عكس ذلك تماماً (انظر إحسان عباس، مجلة الأبحاث الجامعة الأمريكية - بيروت ١٩٦٦ ع ١٩ ص ١٩١).

وذكر أبو حيّان فى الليلة الثامنة من ليالى كتابه «الإمتاع والمؤانسة» ما يثبت كرهه لهؤلاء الذين آمنوا بعلم الكلام، وسموا بالمعتزلة. (وانظر شوقى ضيف - عصر الدول والإمارات ص ٤٥٣).

وفي الوقت ذاته نفسى الدكتور (يوسف زيدان) أن يكون التوحيدي متصوفاً، أو شيخاً للصوفية، فسيرته لا تتسق إطلاقاً مع مبادئ التصوف وأعرافه، وأهمها الزهد والتقشف، ولئن افتقر أبو حيان وتقشف، إنَّ هذه الحال كانت فرضاً عليه لا اختياراً... وقد كانت حياته وقوفاً متتالياً على أعتاب الوزراء والكبراء، وحين يتحدث عن الصوفيين، كان ينعتهم بـ «الآخرين» أو «هذه الطائفة». وكتاب «الإشارات الإلهية» الذي قد يستشفُّ منه صوفية أبي حيان لم تثبت نسبته إليه، وقد شكك بذلك الدكتور (زيدان) في مقاله المنشور في مجلة الهلال (نوفمبر ١٩٩٥) بانياً شكه على حجج وأدلة معقولة. والحقيقة انه لو وصلت إلينا رسالاته حول الصوفية، وأخبار الصوفية، لعرفنا على نحو أدقَّ موقفه من هذا المذهب في الحياة والدين، ولكنهما فقِدتا لسوء الحظ.

حياة التوحيدي: ولد أبو حيان التوحيدي بين سنتي ٣١٠ - ٣٢٠ هـ طبقاً لرسالة له ذكرها ياقوت مؤرخة بالسنة ٤٠٠ هـ، يقول فيها التوحيدي: إنه كان آنئذٍ في عشر التسعين من عمره. وتوفي على الأرجح، نحو السنة ٤١٤ هـ.

وقد احتفل باللفية وفاته في جمهورية مصر العربية (عام ١٣١٤ هـ) وصدرت حوله وحول آثاره دراسات في أعداد خاصة، أو في محاور، لعدة دوريات عربية هامة، مثل أعداد (مجلة فصول) الثلاثة الخاصة بأبي حيان (١٩٩٥ و ١٩٩٦)، وعدد مجلة (أدب ونقد) (رقم ١٠٧) الذي ضم محوراً عنه، وعدد من مجلة الهلال (نوفمبر ١٩٩٥) وضم أربع دراسات عن التوحيدي.

نذكر ذلك وفي ذهننا كتب كاملة، سبقت هذه (الألفية)، وتناولت أبا حيان التوحيدي، فقد ألف عنه كتاباً قائماً برأسه كلُّ من: زكريا إبراهيم، وعبد الرزاق محي الدين، وأحمد الحوفي، وإحسان عباس، وإبراهيم الكيلاني، ومحمود إبراهيم، وعبد الأمير الأعسم، وعبد الواحد الشيخ، وحسن ملكاوي، وعفيف بهنسي. وعالج هؤلاء حياة الرجل وآثاره وآراءه وعطاءاته وجهوده المختلفة، كلٌّ بحسب الزاوية التي انطلق منها.

ولا غرو أن يؤلَّف عن هذا الأديب الفيلسوف كلُّ هذه الدراسات، لأنه كاتبٌ طَلعة، موسوعي المعرفة، متعدد المواهب، غزير التأليف، ضارب في كل علم من علوم عصره

بسهام، بل هو - كما يقول ياقوت: « فرَّذ الدنيا الذي لانظير له ذكاء وفطنة، وفصاحةً ومكنةً، كثير التحصيل للعلوم في كل فن، واسع الدراية والرواية». وعرف عنه أنه عربي فُحَّح، وليس فارسياً، وقد دافع عن العرب ومآثرهم دفاعاً مجيداً، في الليلة السادسة من ليالي كتابه «الإمتاع والمؤانسة»، وفي المقابلة الثامنة من «مقابساته»، وفي المسألة الرابعة والثلاثين من كتابه «الهوامل والشوامل».

ولكن هذا الرجل العصامي العظيم عاش فقيراً ومات فقيراً، ونظراً لتواضع نسبه، ونكر نجاره، احترف مهنة الوراقة (نسخ الكتب)، وهي مهنة تشبه صنيع عامل المطبعة في زماننا. وقد كره التوحيد هذه الحرفة، وسماها حرفة الشوم، لأنها تُنهب العمر والبصر، ولكنها، رغم ذلك، تتيح لصاحبها ثقافة عريضة وعميقة، كما هي الحال مع صاحبنا وصاحبها، وكما كانت الحال مع الجاحظ الذي احترفها أيضاً، ومع آخرين عاشوا في زمان أبي حيان، مثل أبي سعيد السيرافي وبيحيى بن عدي، وبعد أبي حيان، كياقوت الحموي والقفطي.

حجَّ التوحيد في السنة ٣٥٣ هـ، وتعرف بمكة مجموعة من الصوفيين، كابن الجلاء، والحرائي، ولكنه لم يكن متصوفاً، على الأرجح، كما أشرنا. وكان من قبل قد عقد أواصر صداقة في العراق مع مسكويه، وأبي سعيد السيرافي، وأبي سليمان المنطقي السجستاني، وأبي الوفاء المهندس، الذي قدمه إلى الوزير (ابن سعدان)، فألف له كتاب «الإمتاع والمؤانسة»، كما نفَّذ نصيحة لهذا الوزير بتأليف كتاب آخر هو: «الصداقة والصديق»، وهو الذي سنقف عنده بعد قليل.

ومن عاصرهم التوحيد وأقام صلوات بهم الوزيران ابن العميد والصاحب بن عباد. ولكنه غادرهما مغضباً وخائباً، وكره عشرتهما وصحبتهما، فألف في ذلك كتاباً سماه: «أخلاق الوزيرين»، وعرف أيضاً بـ «مثالب الوزيرين».

وقد نكِبَ التوحيد غير مرة، وكما أساءت إليه الخاصة، أساءت إليه العامة، فقد نهبت داره في ثورة العامة ببغداد في السنة ٣٦٣ هـ، فخرس جُلَّ ما جمعه في شبابه، وعاش بعد ذلك في فقر مدقع، فانطلقت عقيرته تشكو وتتذمر، وتعبير عن الظلم والحيف اللذين

لحقا به. وقد عرف عنه تشاؤمه العميق المقرط، وخيبات أمله المتعاقبة من الناس عامة، ومن الأصحاب خاصة، واتسمت روحه بسوداوية غريبة. وفي لحظة يأس مُطَبَّق أقدم أبو حيان على حرق كتبه في أواخر أيامه، خوفاً من أن يعث بها ويسيء إلى صاحبها من لا يعرف قدرها... ولكن النسخ التي نقلت عنها قبل الحرق هي التي وصلت إلينا، أو وصل بعضها إلينا.

هذا، وعلى الرغم من تدوين التوحيدي، وحمجه وإيمانه بالقرآن والسنة، طعن عليه في عقيدته، واتهم بالزندقة، فقد قال ابن الجوزي: «زندقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، وأبو العلاء المعري، والتوحيدي» وأضاف: إن الأخير شرهم، لأن الاثنين الأولين صرحا، أما الثالث فمجمم، ولم يصرح (انظر الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٢ - ٣٩).

أساتيدته ومؤلفاته: ذكرنا أن ثقافة أبي حيان اتصفت بالمسوعية والتنوع والعمق والشمول، فقد درس من علوم عصره: النحو واللغة والأدب والفقه والحديث والتصوف والفلسفة والمنطق والرياضيات والهندسة، لذا كثر شيوخه وتنوعوا: فقد درس النحو واللغة في بغداد علي أبي سعيد السيرافي والرماني، ودرس الأدب والمعارف العامة على القاضي أبي الفرج النهرواني، وهو فقيه وأديب وشاعر. ودرس الحديث على أبي بكر بن عبد الله الشافعي، والفقه على القاضي أبي حامد المروروزي. أما التصوف فعرف شأنه من جعفر الخالدي تلميذ الجنيد، ومن ابن سمعون، ولم يتحله. وكان أساتذته في المنطق والفلسفة أبا سليمان المنطقي، ويحيى بن عدي، والنوشجاني، ومسكويه، وتلمذ في الرياضيات والهندسة على أبي الوفاء المهندس، وهو الذي - كما ذكرنا - قدمه إلى الوزير ابن سعدان، وزير صمام الدولة البويهية، فجالسه أربعين ليلة، ثم عاد ونقل له ما دار في هذه الليالي في كتاب «الإمتاع والمؤانسة».

ولم يكن «الإمتاع والمؤانسة» كتاب أبي حيان الوحيد، فقد عدَّ (ياقوت الحموي) لأبي حيان سبعة عشر كتاباً (انظر معجم الأدباء ١٥: ٧ - ٨)، وكذلك فعل الصفدي في (الوافي بالوفيات ج ٢٢ ص ٤٠)، في حين عدَّ السيوطي من كتبه تسعة كتب، وأشار ابن

خلكان إلى خمسة، والنهجي إلى أربعة فقط. وهذه هي مؤلفاته المطبوعة حسب ترتيبها الألفبائي:

- ١ - أخلاق الوزيرين: وطبع مرتين بدمشق، الأولى بتحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني عام ١٩٦١، والثانية بتحقيق محمد بن تاويت الطنجي ١٩٦٥ (طبع المجمع العلمي).
- ٢ - الإشارات الإلهية: طبع ما وصل منه، وهو غير كامل، بتحقيق عبد الرحمن بدوي بالقاهرة سنة ١٩٥٠، ثم بالكويت ط ٢ / ١٩٨١.
- وحققته ثانية وداد القاضي ونشرته بيروت سنة ١٩٧٣. ولكن الدكتور (يوسف زيدان) في مقاله المشار لها سابقاً (مجلة الهلال) يشكك في أن يكون أبو حيان التوحيدي هو مؤلف هذا الكتاب.
- ٣ - الإمتاع والمؤانسة: وطبع بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين بالقاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٤ في ثلاثة أجزاء، ومرة ثانية في القاهرة ١٩٥٣، ثم ظهر في بيروت (بالتصوير) بمكتبة الحياة سنة ١٩٥٧.
- ٤ - البصائر والذخائر، أو (بصائر القدماء وبصائر الحكماء): وطبع بالقاهرة بعناية أحمد أمين والسيد أحمد صقر سنة ١٩٥٣، وحققه عبد الرزاق محي الدين في بغداد سنة ١٩٥٤، ونشره الدكتور إبراهيم الكيلاني بدمشق في ستة أجزاء ١٩٦٤ - ١٩٦٦.
- وحققته وداد القاضي ونشرته بتونس سنة ١٩٧٨، ثم صدر ببيروت بدار صادر سنة ١٩٨٨، بتحقيق القاضي نفسها.
- ٥ - رسائل أبي حيان: حققها الدكتور الكيلاني وطبعها بدمشق مرتين، كانت الأخيرة بدار طلاس سنة ١٩٨٥.
- ٦ - الرسالة البغدادية: حققها هايلدبرغ سنة ١٩٠٢، ثم نشرها عبود الشالجي في بيروت سنة ١٩٨٠.
- ٧ - رسالة الصداقة والصديق: نشرت أولاً في القسطنطينية بمطبعة الجوائب بعناية أحمد فارس الشدياق سنة ١٣٠١ هـ، ثم نشرها الشيخ البحراري بالقاهرة سنة ١٩٠٦، وحققها الدكتور الكيلاني ونشرها بدار الفكر بدمشق سنة ١٩٦٤، وظهرت مرة رابعة في

- القاهرة بتحقيق علي متولي صلاح سنة ١٩٧٠، ثم أعادت دار الفكر بدمشق طباعتها ثانية بتحقيق د. الكيلاني عام ١٩٩٦، وستفصل القول فيها بعد قليل.
- ٨ - المقابسات: وهي (١٠٦) مقابسات. وطبعت بالحجر في بومباي سنة (١٣٠٦) - ١٨٩٨ م)، ونشرت بعناية حسن السندي بالقاءرة عام ١٩٢٩، وحققها محمد توفيق حسن ببغداد سنة ١٩٧٠، ونشرت بطهران (مركز نشر دانشكاهي) سنة ١٩٨٧ م.
- ٩ - مناظرة بين أبي بشر متى بن يونس القنائي وأبي سعيد السيرافي: طبعت بعناية مرجليوث في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بلندن ١٩٠٥، ونشرت بعناية حسن السندي بالقاهرة عام ١٩٢٩، وهي أصلاً جزء من كتابه (الإمتاع والمؤانسة).
- ١٠ - الهوامل والشوامل: وهي (١٨٠) مسألة دارت بين أبي حيان ومسكويه، وقد حققها أحمد أمين وسيد أحمد صقر بالقاهرة سنة ١٩٥١.
- أما المؤلفات التي لم تصل إلينا، أو ربما وصلت ولم تطبع، فهي:
- ١- تقرير الجاحظ.
 - ٢- الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي، وهو سبب اتهامه بالزندقة.
 - ٣- الرد على ابن جني في شرح شعر المتنبي.
 - ٤- رسالة في أخبار الصوفية.
 - ٥- رسالة الصوفية.
 - ٦- رسالة في الحنين إلى الأوطان.
 - ٧- رياض العارفين.
 - ٨- الزلفة.
 - ٩- المحاضرات والمناظرات.

ب - رسالة الصداقة والصديق

ذكرنا من قبل أن الدكتور الكيلاني قد طبع هذه الرسالة مرتين بدمشق، وكانت طبعته الثانية لهذه الرسالة في العام ١٩٩٦، وقد كان لنا عند هذه الطبعة وقفة، وفيها نظرة، نلخص أهم ما خلصنا إليه من خلالهما فيما يلي:

سبب التأليف: فالتوحيد يذكر في البدء سبب تأليفه لهذه الرسالة فيقول: إنه ذكر أقوالاً في الصداقة والصديق أمام زيد بن رفاعة أبي الخير، وهو من جماعة إخوان الصفا، فنامه هذا إلى ابن سعدان الوزير، فسأل هذا الوزير أبا حيان التوحيدي عن حقيقة ذلك، فأجابته: نعم قد حصل. فطلب ابن سعدان أن يدونه في كتاب.

وقد حبر أبو حيان كتابه هذا خلال ثلاثين عاماً. ولما كان قد أُلّفه في أواخر حياته، فإنه يُعدُّ حصيلة خبرة طويلة بالناس، ومثمة معاناة مريرة للكاتب في زمانه، الذي ودَّعه وله من العمر تسعون عاماً تقريباً.

والحقُّ أن أبا حيان عزم على تأليف هذه الرسالة وفي نفسه حرقة وخيبة وشؤم وشك بالناس أجمعين، يقول مثلاً في هذا الصدد: «إذا أردت الحق، علمت أن الصداقة والألفة والأخوة والرعاية والمحافظة قد نُبذتُ نبذاً، ورُفضت رفضاً، ووطئت بالأقدام، ولويت دونها الشفاه...» (الصداقة والصديق ص ٥٠).

وهو لا يتردد في القول: «يجب أولاً أن نتق بأن لا صدق ولا من يشبهه بالصديق» (ص ٣٦). ويستعير دعاءً للخوارزمي يصدر به كتابه يقول فيه الخوارزمي: «اللهم نفق سوق الوفاء، فقد كسدت، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت، ولا تُعَيِّنِي حتى يبور الجهل كما بار العقل، ويموت النقص كما مات العلم» (ص ٣٠).

صفة الكتاب الأبرز: ورغم ذلك، فنحن واجدون في هذا الأثر الأدبي والإنساني أقوالاً في الصداقة والأصدقاء تجعل منه مجموعة من الاستشهادات على حالات نفسية وفكرية، وعلى مواقف اجتماعية غريبة وعجبية، تنمُّ على روح العصر، وعلى موقف الكاتب

من هذه القيمة الإنسانية الخالدة. فالكتاب، وإن دار حول فكرة واحدة وحيدة، على غير نهج بعض كتب التراث، فإنه لم يكن كتاباً علمياً فلسفياً يتصف بالتنظيم والتحام الأفكار والمعالجة المنطقية المرتكزة على منهج محدد، أو على خطة موضوعة تقود إلى نتائج محددة، بل هو مجموعة من النصوص التثريّة والشعرية استقاها الكاتب من مصادر معينة سبقته.

مصادر الكتاب: ألف أبو حيان هذا الكتاب بعد أن كان وراءه معالجات كثيرة لفكرة العلاقات الإنسانية، منها ما هو لفلاسفة اليونان كأفلاطون وأرسطو، اللذين نقلت آثارهما عن اليونانية والسريانية إلى العربية قبل التوحيد وفي زمانه، ومنها ما هو نصوص شعرية في الصداقة والإخوانيات ساقها مؤلفو كتب الحماسات والاختيارات الشعرية، كالبحتري، وأبي تمام، وصاحب مجموعة المعاني. بل إن أبا حيان كان قد سبق إلى تأليف أخرى تنتمي إلى هذا الباب، مثل كتاب: المودة في نوري القربى، لإبراهيم بن محمد (٢٨٣ هـ)، وكتاب الصديق والصداقة، لابن الخمار المولود سنة (٣٣١ هـ)، وكتاب السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية، لأبي حسن العامري المتوفى سنة (٣٨١ هـ)، وقد نقل عن الأخير مسكويه في كتابه: تهذيب الأخلاق. وكذلك ضمت كتب الأدب المتقدمة على أبي حيان نصوصاً عن الصداقة والإخوان وعلاقتهم مختلفة ومتنوعة، أمثال كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبد ربه، ففي كل من هذين السفرين باب طويل، أو (كتاب) حسب المصطلح القديم، اسمه (الإخوان). ولهذا لا يصح قول المحقق في مقدمة الكتاب بأن هذا السفر فريد في بابهِ (المقدمة ص ١٥).

شروط الصداقة: ويستطيع المرء أن يستخلص من كتاب أبي حيان هذا (الصداقة والصديق) شروط الصداقة في نظر مؤلفه، فهي عنده «كرم العهد، وبذل المال، وتقديم الوفاء، وحفظ الذمم، وإخلاص المودة، ورعاية الغيب، وتوفير الشهادة، ورفض الموجدة، وكظم الغيظ، واستعمال الحلم، وبجانبه الخلاف، واحتمال الكلّ، وبذل المعونة، وحمل الملوثة، وطلاقة الوجه، ولطف اللسان، وحسن الإstantابة، والثبات على الثقة، والصبر على الضراء، والمشاركة في البأساء» (ص ١١٧ - ١١٨).

بعض أنواع الصداقة: ونقع في هذا الكتاب على بعض تصنيفات للصداقة والأصدقاء، فالصداقة عند أرسطو ثلاثة ضروب:

١ - صداقة المنفعة. ٢ - صداقة اللذة. ٣ - صداقة الفضيلة.

والأصدقاء عند هارون الرشيد، كما يذكر أبو حيان، ثلاثة أنواع:

أ - نوعٌ كالغذاء الذي لا يمكن الاستغناء عنه.

ب - ونوعٌ كالدواء الذي يُحتاج إليه بين الفينة والفينة.

ج - ونوعٌ كالسُّمُّ الذي لا ينبغي تجريبه.

والحقيقة أنّ التوحيدى نفسه كان يلاحظ تناقضاً واضحاً كامناً في عالم الإنسان، فالإنسان بحاجة إلى صديق حقيقي، ولكنه عاجز عن إيجاده. وهذه معضلة. وهي معضلة لها علاقة بالعصر الذي عاش فيه أبو حيان، وهو عصر دسائس ومؤامرات... وقد حل التوحيدى هذه المسألة من خلال دعوته إلى الإنسان ليقبل بعيوب أخيه الإنسان، ويغفر له ذنوبه، والدليل أنه ختم كتابه بيت النابغة القائل:

ولست بمسئقٍ أخاً لا تلمه على شعبي، أيُّ الرجال المهذبُ

وقول الشاعر الآخر:

وكنتُ إذا الصديقُ نبا بأمري وأشرقني على حنقٍ بريقي
غفرتُ ذنوبه وكظمتُ غيظي مخافةً أن أعيشَ بلا صديق

وقول الثالث وهو آخر ما استشهد به من الشعر:

ومن لم يطب نفساً ويستبقِ صاحباً ويفسرُ لأهل الودِ يصرِمُ ويصرِمُ

حول النص المحقق: هذا بخصوص الكتاب ومضمونه، أما بخصوص النص المحقق، فلنا وقفة أخرى حوله وحول مقدمته. فقد ذكر المحقق في مقدمته أن نص أبي حيان نصٌ فريد في

تراثنا العربي، وقد تقدم في حديثنا عن مصادر أبي حيان أن هذا الحكم غير دقيق، لأن كتاباً أخرى في الصداقة والصدق قد ألفت قبل أبي حيان، وكذلك يمكن أن نضيف كتاباً آخر ألفت في هذا الباب، وصاحبه معاصر لأبي حيان لم يزل مخطوطاً، وهو كتاب: الأُنس والعرس، للأبي، المتوفى سنة ٤٢١ هـ. وهو مجموعة من الأشعار والأقوال المثورة في الصداقة والصدق، وقد بوبت في (٣٣) باباً، والنسخة الوحيدة في العالم له توجد في المكتبة الوطنية بباريس، وقد ذكرها فواد سزكين في كتابه تاريخ التراث العربي (مج ٢ ج ١ ص ١٢٤). إذا نصُّ أبي حيان هذا ليس فريداً، وقول المحقق إنه فريد مردودٌ، لأنه مسبوق ومتبوع بآثار مشابهة كما ذكرنا.

وئمة ملاحظات على النص المطبوع يمكن أن نوجزها بالنقاط التالية:

- ١ - مجيء أبيات مُختلّة الوزن في الكتاب المطبوع.
 - ٢ - أخطاء في الشكل والضبط.
 - ٣ - تحريفات لم ينبّه عليها المحقق.
 - ٤ - أبيات لم تُعزَّ إلى أصحابها أو تُخرج من دواوينهم، رغم طبع الدواوين في الفترة الواقعة بين طبعي هذا الكتاب الدمشقيين، وهي فترة امتدت (٣٢) عاماً. وسنضرب مثلاً واحداً على الأقل على كل من هذه الملاحظات:
- ١ - الخلل العروضي: جاء في (ص ١٠٣ ط ٢) هذا البيت وقد وزع شطره على النحو التالي:

يحصي الذنوبَ عليك أيّامَ الصداقةِ للعداوة

والصواب أن يرسم كما يلي، وهو من مجزوء الكامل:

يحصي الذنوبَ عليك أيّامَ الصداقةِ للعداوة

وانظر أيضاً خلافاً عروضياً في الأبيات الفاتية (ص ٤٠ و ٤١).

٢ - الخطأ في الضبط: جاء في (ص ٣٩) هذا الخير: « أخيرنا أبو سعيد السيرافي، قال: أخيرنا ابن دريد قال: قال أبو حاتم السجستاني: إذا مات لي صديق سقط مني عضواً» والصواب: (عضو)، لأنه فاعل (سقط)، ولا وجه لِنَصْبِهِ. وكذلك ورد في (ص ٣٧) هذا البيت، بهذه الصورة:

أيا ربَّ كلِّ الناسِ أبناءُ علَّةٍ أما تَعَثَّرُ الدنيا لنا بصديقي

والصواب: « أيا ربُّ، كُـلُّ الناسِ أبناءُ علَّةٍ ».

٣ - التحريف: جاء (في ص ٢١٦) هذا البيت لشريح بن الأحرص:

تَبَّعَ ابنَ عَمِّ الصَّدِيقِ حَيْثُ لَقِيْتَهُ فإنَّ ابنَ عَمِّ السَّوءِ أوْغَرَ جَانِبَهُ

والصواب (أوعر) بالعين لا بالغين.

وكذلك جاء في ص (٣٧ - ٣٨) قول أبي حيان: « واسترسال الكلام في هذا لنمط شفاء للصدر وتخفيف من البرحاء، وأنجياب الحرقه... ولا بأس بإمرار كل ما لاءمه ودخل في حوزته، وإن كان آخره لا يدرك، وغايته لا تملك». وفي الحاشية ذكر المحقق أنه في (ج ق - بإيراد) بدلاً من (بإمرار)، والحقيقة أن ما جاء في (ج ق) هو الصواب بعينه، لأن (إيراد ما يلاحم) أنسب وأكثر اتساقاً مع ما (يدخل في الحوزة)، فالعنى يرشحه ويتطلبه.

٤ - نقص التخريج، وعدم العزو: ثمة أبيات كثيرة وردت في المطبوع لطرفة بن العبد، ولعبد الله بن معاوية، ولأبي نواس، وللمتملمس الضبعي، وللطبيع بن إلياس، لم يخرجها المحقق من دواوين هؤلاء الشعراء الذين طبعت دواوينهم بعد الطبعة الأولى من (الصدائقة والصديق)، وبعضها لا يوجد في دواوينهم، فبيت طرفة بن العبد:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً على المرء من وقَّع الحسام المهتدِ

لم ينسبه المحقق إلى طرفة، ولم يخرج منه ديوانه، وهو كذلك ينسب إلى عدي بن زيد العبادي، والبيت في ديواني الشعارين.

وكذلك وردت أربعة أبيات لعبد الله بن معاوية (ص ١٤٨) لم يخرجها المحقق من شعر هذا الرجل الذي طبعه عبد الحميد الرازي ببغداد، وهي في شعره (ص ٨١)، والأبيات الأربعة تقول:

- | | |
|-----------------------------------|---------------------------------|
| ١- تبني لك العنّ ما في نفس صاحها | بِنَ الشّناءةِ أو ودّ إذا كانا |
| ٢- إنّ البهيمض له عينٌ يصدُّ بها | لايستطيعُ لما في الصدرِ كتماننا |
| ٣- وعينٌ ذي الودّ ما تنفكُ مقبلةً | تري لها محجراً بشّناً وإنسانا |
| ٤- والعينُ تنطقُ والأفواه صامتةً | حتى ترى من ضميرِ القلبِ تبياننا |

وجاء في (ص ١٣٧) من المطبوع ثلاثة أبيات لم تعز لقاتل، وقائلها هو عبد الجبار بن سعيد المساحقي. وثمة أبيات في (ص ٩٥) لمطيع بن إياس، وهي ليست في ديوانه المطبوع بتحقيق (غوستاف فون غرونباوم) (انظر كتابه شعراء عباسيون). ويقال الشيء ذاته، أو ما يشبهه بخصوص أبيات أخرى للمتلمس الضبّعي، وغيره من الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين.

وفيما عدا ذلك، فإن النص جاء صحيحاً مضبوطاً مخدوماً إلى حد بعيد. ويبدو أن العودة في إخراج هذا السُّفر التّراثي إلى مخطوط له وحيد، جَلَبَةُ الدكتور الكيلاني من (تركية)، هي السبب في بعض هذه الملاحظات اليسيرة التي لا تطعن بقيمة كتاب: الصداقة والصديق، الصادر عام ١٩٩٦.

وعلى الرغم من أن شخصية أبي حيان التوحيدي في هذا الكتاب كادت تتوارى خلف نصوص الآخرين وأقوالهم وأشعارهم، فإننا نملك القول: إن الاختيار هو جزء من الحكم، وهو دالٌّ على فكر صاحبه وعقله، بيد أنه من الصعوبة بمكان تلمّس مزايا أسلوب التوحيدي وفنه الكتابي من خلال هذا الكتاب، لذا لا نرى بأساً في أن ننشئ فقرة أخيرة حول فنّ التوحيدي الكتابي ومنزله في ميدان النثر الفعني في تاريخ الأدب العربي القديم.

فَنُّ التَّوْحِيدِي النَّثْرِيِّ وَمَنْزِلَتُهُ:

كان أبو حيان في ميدان النثر الفني طائراً غرَّد في غير سربه، فالتثر الفني في القرن الرابع الهجري أثقلته قيود التصنع والتكلف والسجع والتزويق، وكَبَلته تكاليف الازدواج والجرى وراء الألفاظ المنمقة والعبارة المصنعة، فلم يجر على رسله. وكان الكتاب آتقن يُؤلون الشكل اهتماماً أكثر من المضمون، واللفظ عناية أكثر من المعنى. وقد بلغ هذا النهج الكتابي أوجسه، وأشد صور تعقيداته، على أيدي الوزيرين اللذين كرههما أبو حيان، أعني: صاحب بن عباد، وابن العميد، ومَنْ لَفَّ لَفْهُمَا... ولم يكد أحدٌ ينجو منه. إلا أن أبا حيان الكاتب الأصيل لم يكن لينصاع إلى سطوة هذا التقليد الكتابي المتكلف، بل كان معجباً بأسلوب الجاحظ الذي جاء متحرراً من هذه القيود والكوابل، منطلقاً إلى التعبير عن الفكرة بأيسر السبل، وأقرب الموارد. لذا أولى التوحيدى المعنى جلَّ اهتمامه، على غزارة من معجم لفظي، وثرء من مخزون لغوي، واستطاع أن يعبر عن أدق المعاني، وألطف الأفكار ببيان ناصع مرسل، وبلفظ حرٍّ ومعنى حرٍّ، وها هو ذا يقول في صناعة الكتابة: «ومن استشار الرأي الصحيح في هذه الصناعة الشريفة، علم أنه إلى سلاسة الطبع أحوج منه إلى مغالبة اللفظ، وأنه متى فاتته اللفظ الحر لم يظفر بالمعنى الحر، لأنه متى نظم معنى حرّاً ولفظاً عبداً، أو معنى عبداً ولفظاً حرّاً، فقد جمع بين متنافرين بالجواهر متناقضين بالعنصر». وكذلك وجدناه يدعو إلى ما يسمى «بالسهل الممتنع» في الكتابة، فيقول في الليلة الخامسة والعشرين من ليالي «الإمتاع والمؤانسة»:

«وفي الجملة أحسن الكلام ما رُقَّ لفظه، ولطف معناه، وتلألاً رونقه، وقامت صورته بين نظم كأنه نثر، ونثر كأنه نظم، يطمع مشهوده بالسمع، ويمتنع مقصوده على الطبع، حتى إذ رامه مريغ حلق، وإذا حلق أسف، يبعد على المحاول بعنف، ويقرب على المتناول بلطف».

وفي دعوة أبي حيان هذه، وفي ممارساته العملية لفن الكتابة المتحررة والمنطلقة والسلسة والسهلة، وفي تحرره من قيود السجع والتزويق، تكمن أهمية نشره وأدبه، مما حدا بآدم متر ليقول - كما قدمنا: «ربما كان التوحيدى أعظم كتاب النثر العربي على الإطلاق».



الحدائق الغناء في أخبار النساء للمعافري المالقي (٦٠٥ / ١٢٠٨)

ألّف هذا الكتاب أبو الحسن علي بن محمد المعافري المالقي المتوفى سنة (٦٠٥هـ)، وحققته الدكتورة عائدة الطيبي، ونشرته الدار العربية للكتاب في ليبيا وتونس عام ١٩٧٨.

والكتاب الذي وقعت عليه المحققة كان مُغفّل العنوان، فاختارت له عنوان: "الحدائق الغناء في أخبار النساء". وكانت قد عنثت على مخطوطته في مكتبة (تشستريبي) في (دبلن) بايرلندا. ولكن هذا المخطوط كان بمنتهى النفاسة، لأنه كتب بخط يد المؤلف، كما تذكر المحققة في مقدمتها (ص ١٠). وهو من هذه الناحية يشبه المخطوط الذي عثر عليه (كراتشكوفسكي) المستشرق الليتواني بخط مؤلّفه، وهو كتاب: المنازل والديار، لأسامة بن منقذ، والعجيب أيضاً أن كلا المخطوطين كان بلا عنوان.

وموضوع هذا الكتاب هو أخبار النساء في صدر الإسلام. وقد عرض المؤلف في أربعة أجزاء من كتابه إلى أحاديث أخرى عن حوارَيّ المسيح، وحواء، وروى قصة بلقيس وسليمان، وأيوب وزوجته... ولكن المحققة الدكتورة (الطيبي) لم تشأ إلا تقديم سبعة أجزاء من المخطوط، هي الأجزاء من ثلاثة إلى تسعة، وهي تتصل بأخبار النساء إبان الإسلام، كما قدمنا.

وقد حوى الكتاب المطبوع كلاماً على ست وثلاثين امرأة، منهن: ميسون الكلبية، وعائشة بن طلحة، وأم سلمة، ونوار جارية الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وأم سعيد، وهي أمة شاعرة، وعريب المأمونية، وعزة صاحبة (كثير)، وفاطمة بنت الحسين بن علي، وليلى الأخيلية... الخ.

ومن الواضح أن لا رابطة بين هذه النسوة سوى الشهرة، فمن بينهن المرأة المشهورة
بذكائها كميسون، والمرأة المحذنة الفطنة صاحبة المآثر كعائشة بنت طلحة، والمرأة الشاعرة
كليلي الأخيلية.

والمهم في هذا الأثر التراثي هو أنه يكشف لنا صورة مشرقة وبهية للمرأة في صدر
الإسلام، فهي معتدة بنفسها، وفيه لزوجها، فطنة، ذكية. كما نلمس من خلال حكاياته أن
قسماً من المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة كان متوافراً آنذاك، فأم أبان مثلاً تعلن عن
الأسباب التي جعلتها تختار طلحة بن عبيد الله، فتقول: إنها اختارته زوجاً لأنها عرفت فيه
صفات يعينها، فهو كريم بشوش، إذا أحسنت عملاً شكرها وإذا أذنبت غفر لها... وتتجلى
روح المساواة في قول أبي الدرداء لزوجته: « إذا غضبتِ أرضيتكِ، وإذا غضبتُ فأرضيني،
فإن لم تفعلني ذلك، فما أسرع ما نفرق » (ص ٤٧).

ومن الظواهر التي تتجلى لنا في أخبار نسوة هذا الكتاب الحرية والاستقلال في
الشخصية، فنحن نقرأ أن عائشة بنت طلحة لم تكن تخجّب عن الرجال؛ بل كانت تجلس
وتأذن، كما يأذن الرجال (انظر ص ٦١).

وفي هذا المؤلف ما هو لطيف ومسلّ، ففيه خير يفيد أن (عزة) حبيبة (كثير) أرادت
مرة أن تعلم مكانتها عند كثير، فتنكرت، ومرت به متعرضةً، فانتبه، وقام وتبعها وكلمها،
فقال له: أين حبك (عزة)؟ فقال: أنا الفداء لك لو أن (عزة) أمة لي، لو هبّتها لك! فقالت:
ويحك، لا تفعل فقد بلغني أنها لك في صدق المودة ومحض المحبة والهوى، على حسب الذي
كنت تبدي لها من ذلك وأكثر، وبعد فأين قولك:

إذا وصلتنا خلة كسي تزيّلنا أيّنا، وقلنا: الحاجية أول

فقال (كثير): بأبي أنت وأمي، أقصري عن ذكرها، واسمعي ما أقول، ثم قال:

هل وصلّ عزة إلا وصلّ غانية في وصلّ غانية من وصلها بدّل

قالت: فهل لك في المجالسة؟ فقال لها: وكيف لي بذلك؟ فقالت له: فكيف بما قلت في (عزة) وسيرته لها؟ فقال: أقلبه فيتحوّل إليك، ويصير لك. قال: فسفرت عن وجهها عند ذلك وقالت: أغدراً ونكاثاً يا فاسق؟ قال: فُبِهتَ وأبلس ولم ينطق، وتحير وخجل... ولما عرفت أمره، قالت: قاتل الله (جميلاً) حيث يقول:

لما الله من لا ينفخ الودُ عسدةً ومن خبله، إن مدّ، غير متيسر

وهكذا، فنحن إزاء إثر لطيف ممتع حوى من الأخبار والقصص التاريخية والأدبية ما لم نشر إليه إلا إشارات مختصرة، ويبقى في العودة إليه فائدة وغناء.



معجم الأدباء

لياقوت الحموي (٦٢٦ / ١٢٢٨)

مؤلف هذا الكتاب هو أبو عبد الله - شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، الرومي الجنسية، والحموي الولاء، والبغدادي الدار. ولد سنة (٥٧٤ أو ٥٧٥ / ١١٧٩ أو ١١٨٠) وتوفي سنة (٦٢٦ / ١٢٢٨) وكان قد أُسر من بلاده، وهو صغير، فاشترته تاجر من بغداد يعرف بـ (عسكر بن ابراهيم الحموي) وأدخله الكتاب ليتعلم القراءة والكتابة، وليساعد مولاه عسكر في بعض أعماله التجارية. فشددا ياقوت علماً حسناً أولاً، وشغله (عسكر) بأسفار للتجارة، ثم أعتقه سنة (٥٩٦ / ١١٩٩)، وكان له من العمر واحد وعشرون عاماً. فراح ياقوت يعمل بالوراقة، أي نسخ الكتب وبيعها، وهذه مهنة سبقه إليها أعلام كبار في تراثنا، كالجاحظ، وأبي حيان التوحيد، وهي صنعة تعلم الكثير النافع، وتكون لدى صاحبها ثقافة عريضة واسعة... وهي من أهم مكونات شخصية ياقوت، يضاف إليها مكوّن آخر هو الرحلات التي كان صاحبنا يقوم بها، فقد رحل إلى دمشق، وحلب، والموصل، ومرو، وخراسان، وخورزم، والإسكندرية، والتقى علماء وناظر أدباء وأصحاب مذاهب ونحل، فغزرت معارفه، وأتسع علمه.

وفي دمشق مثلاً حصلت جفوة بين ياقوت وأحد مناظريه النافذين... فخاف وولى هارباً إلى حلب، وكان ذلك في السنة (٦١٣ / ١٢١٦). ومن حلب انتقل إلى إربل، وخراسان، ومرو. وكان في (مرو) أتت مكنبة عامرة وحافلة بالكتب المتنوعة، فأفاد منها ياقوت إفادة جلية، وإعجابه بها راح يصفها في رسالة وجهها إلى معاصره (القفطي)، فقال إنه «وجد بها من كتب العلوم والآداب، وصحائف أولي الأفهام والألباب ما شغله عن الأهل والوطن، وأذهله عن كل خلٍ صفيٍّ وسكن، فظفر بضالته المنشودة، وبغية نفسه المفقودة، فأقبل عليها إقبال النهم الحريص، وقابلها بمقام لا مزعع عنها ولا محيص، فجعل

يرتفع في حدائقها، ويستمتع بحسن خلقها وخلاتها... الخ» (وفيات الأعيان، لابن خلكان ج ٦ ص ١٢٧ فما بعدها).

إن تاريخ هذه الرسالة كان في العام (٦١٧ / ١٢٢٠). وبعد هذا التاريخ وقع في (خراسان) أهوال وحروب، فقد قدم التتار، وأحدثوا الويل والدمار، في هذه المدينة وما حولها، كمرو وغيرها، ففر ياقوت هارباً بنفسه، ولحق بالموصل، وانتقل بعد ذلك إلى حلب، وأقام بظاھرھا في خان من خاناتھا، إلى أن توفي فيها سنة (٦٢٦ / ١٢٢٨)، مخلفاً وراءه تراثاً تأليفياً ضخماً. فقد صنف ياقوت عشرة مؤلفات، عدا كتابه الهام الذي ستحدث عنه (معجم الأدباء)، وهذه المصنفات هي:

- ١ - معجم البلدان ٢ - أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء ٣ - معجم الشعراء ٤ -
 - المشرك وضعاً والمختلف صقماً ٥ - المبدأ والمآل ٦ - مجموع كلام أبي علي الفارسي ٧ -
 - عنوان كتاب الأغاني ٨ - أخبار المتنبّي ٩ - الدول ١٠ - المقتضب في جمهرة النسب.
- ونظم ياقوت أشعاراً حسنة نثرها في ثنايا كتبه ورسائله. ولم ينشر من كتبه المذكورة هذه سوى ثلاثة كتب هي: ١ - معجم الأدباء. ٢ - معجم البلدان. ٣ - المشرك وضعاً والمختلف صقماً. وسنقف نحن الآن عند كتابه الهام (معجم الأدباء).

معجم الأدباء: كتابٌ في التراجم. وهو ثمرة من ثمرات القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، ويسمى أيضاً «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» أو «إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء».

وفي هذا المعجم توسع ياقوت، فترجم للشعراء واللغويين والنحويين والمؤرخين والقراء والخطاطين والرواة، وخاصة من عرف منهم بأنّ له تصنيفاً أو تأليفاً. وكما توسّع ياقوت في ضروب الأعلام واختصاصاتهم، توسع في توزيعهم الجغرافي، فقد جمع في (معجمه) أعلاماً من كل أرجاء المحيط العربي، من بغداديين وشاميين ومصريين وحجازيين وخراسانيين ومغاربة... الخ. ولهذا بلغ مجموع تراجمه في طبعة (دار المأمون) حوالي (١٠٦٥) ترجمة.

ويمتاز معجم الأدباء بحسن تبويبه، ويسر الإفادة منه، فقد رتبته صاحبه حسب حروف المعجم مما سهّل العودة إليه. وكذلك تخفف من الأسانيد على عكس عادة ابن

عساكر في كتابه (تاريخ مدينة دمشق)، مهتماً بالمادة العلمية التاريخية الموضوعية، فكان هدفه صغر الحجم مع عظم النفع. ورغم ذلك فإن ياقوت كان أميناً على ما ينقل، وكان يذكر في كثير من الأحيان مصادره، فيقول مثلاً: وذكر ابن بسام في (الذخيرة)، والمرزباني في (معجمه) يعني (معجم الشعراء)، والثعالبي في (الدرة اليتيمة) يعني (يتيمة الدهر)... الخ. وكانت تراجم ياقوت متفاوتة، فمنها ما يمتدُّ صفحات عديدة، كترجمته للصاحب بن عباد، وأبي العلاء المعري، وأبي سعيد السيرافي، وأسامة بن منقذ، ومنها ما هو قصير جداً، لا يتجاوز أسطرًا معدودات.

ويتصف ياقوت في أبحاثه بالتواضع العلمي، الذي إن فارق العالم أصيبت مقاتله، فقد صدر كتابه هذا بقول للعماد الصفهاني - صاحب كتاب (خريدة القصر) - نصه: «إنني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر. وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

ويضيف ياقوت في كتابه هذا (ج ١ ص ٥٦ - ٥٧ ط الرفاعي) ما نصه: «وأنا فقد اعترفتُ بقصورى فيما اعتمدت عن الغاية، وتقصيري عن الانتهاء إلى النهاية، فأسأل الناظر فيه ألا يعتمد العنت، ولا يقصد قصد من إذا رأى حسناً ستره، وعبياً أظهره، ولتأمله بعين الإنصاف لا الانحراف، فمن طلب عبياً وجدَّ وجدَّ، ومن افتقد زكلاً أخيه بعين الرضا فقدَ فقدَ...» ويقول: «فالرء غير معصوم، والنسيان في الإنسان غير معدوم، وإن عجز عن الاعتذار عنا والتصويب، فقد علم أن كل مجتهد مصيب، فإننا، وإن أخطأنا في مواضع يسيرة، فقد أصبنا في مواطن كثيرة...».

والحق أننا إذا نظرنا بعين الإنصاف إلى هذا المعجم العظيم، وجب علينا رفع التحية لمؤلفه العالم التحرير، والمصنف الكبير (ياقوت)، لما بذله من جهد، وما اتصف به من أمانة وتواضع.

طبعت معجم الأدباء: طبع هذا الكتاب أكثر من مرة. طبع في حدود علمي، خمس مرات: طبعه أولاً المستشرق (مرجليوث) في السنة ١٩٢٥، في سبعة أجزاء. وطبع ثانية

بإشراف (أحمد الرفاعي) بدار المأمون بمصر سنة ١٩٣٦. وجاءت هذه الطبعة في عشرين جزءاً، وامتازت بالفهارس والزيادات التي أضافها الرفاعي على طبعة (مرجليوث). وبعدئذٍ صار هذا الكتاب القيم يظهر في بيروت، فنشرته دار إحياء التراث العربي بالتصوير، كما نشرته أيضاً دار الكتب العلمية، وكلها نشرات ناقصة. وكان آخر طبعاته وأفضلها وأكملها، نسبياً، طبعة الدكتور (إحسان عباس) التي ظهرت في بيروت بدار الغرب الإسلامي، في السنة ١٩٩٣. وتقع هذه الطبعة في سبعة أجزاء.

وتتبع قيمة هذه الطبعة من أن الدكتور (عباس) قد عاد إلى مخطوطة عُمانية عنونها: « بغية الألباء من معجم الأدباء » كان قد صنعها لنفسه (أحمد بن علي بن عبد السلام التكريتي)، وتقع في (٢٣٨) ورقة، فوجد (عباس) في هذه المخطوطة زيادات على طبعة (مرجليوث) بمقدار (١٦٠) ترجمة.

وقد أفاد إحسان عباس أيضاً مما كتبه (مصطفى جواد) من استدراقات على طبعة (مرجليوث)، وكان عدد التراجم التي استدركها (جواد) (٤٦) ترجمة، فضمه إلى المخطوطة العُمانية التي أشرنا إليها من قبل، والتي قدمها له الشيخ (محمد الجالس)، فصار لديه حوالي (٢٠٠) ترجمة جديدة، علاوة على ما عرفه الناس من قبل من تراجم وردت في (معجم الأدباء).

وكان الدكتور عباس أيضاً قد عاد إلى ما كتبه الأديب الفلسطيني (إسعاف النشاشيبي) في مجلة الرسالة المصرية من تصويبات واستدراقات على طبعة الرفاعي لمعجم الأدباء، كما عاد (عباس) إلى مخطوطة (كوبريللي) بتزكية للمعجم المذكور، وهي تقع في (٢١٩) ورقة، فصحح من خلالها الكثير من التحريفات والتصحيحات التي حفلت بها الطبعات السابقة، فجاءت طبعته، كما ذكرنا، أفضل طبعة لهذا المصنف العظيم، حتى الآن.

ورغم كل ما تقدم، فالذي يبدو أن هذا (المعجم) لم يصل إلينا على الصورة التي جفَّ فيها عنه مداد مؤلفه، فهو لا يوجد كاملاً بين أيدي الناس الآن، ولهذا أعلن الدكتور (إحسان عباس) في مقدمته للكتاب: « هناك عشرات التراجم التي لاتزال مفقودة من معجم الأدباء » (انظر المقدمة ج ١ ص (و)).

مصادر ياقوت في معجمه:

ذكر ياقوت في مقدمة كتابه بعض من سبقه في التأليف في الباب الذي طرقة هو، وأفاد منه، فهو يعد أن يشير إلى غرامه بالأدب، ونهمه بالعلم، وشغفه بأخبار العظماء والعلماء، يقول: إن ما قدمه السابقون «لم يكن عن صبح الكفاية سافراً» لذا أراد هو أن يدلي بدلوه، وكان قد سبقه إلى ذلك:

١- أبو بكر محمد بن عبد الملك التاريخي، وهو في نظر ياقوت «أول من أعار الأدباء طرفه، وسود في تبييض أخبارهم صحفه». ولكن كتابه صغير الحجم، قليل التراجم، بيد أنه عشنو بالنوادر.

٢- وأبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه.

٣- وأبو عبيد الله محمد بن عمر المرزباني، وكتابه حافل ويقع في (١٩) مجلداً، وقد نقل ياقوت أكثر فوائده إلى كتابه هذا.

٤- وأبو سعيد السيرافي، وله كتاب صغير في نحة البصرة، نقل أكثر فوائده.

٥- وأبو بكر الإشبيلي الزبيدي، وكتابه أكثر تلك الكتب فوائد، ونقل عنه ياقوت أيضاً.

٦- والقاضي أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر المغربي.

٧- وعلي بن فضال المجاشعي، واسم كتابه: «شجرة الذهب في أخبار أهل الأدب».

٨- والكمال عبد الرحمن بن محمد الأنباري، واسم كتابه: «نزهة الألباء في أخبار الأدباء».

وثمة مصادر أخرى كثيرة نقل عنها (ياقوت) مثل: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ویتيمة الدهر للثعالبي، ودمية القصر للباخرزي، وأخبار الوزراء لهلل بن الحسن، والأغاني للأصفهاني، ونشوار المحاضرة للتونخي، ومحاضرات العلماء لأبي حيان التوحيد، وغيرها وغيرها...

ويضاف إلى ذلك كله ترجمات ياقوت لمعاصريه، ولمن لقيهم في أسفاره الكثيرة في أرجاء الإمبراطورية العربية، وها هو ذا يقول في هذا الصدد: «أما من لقيته، أو لقيت من

لقيه، فأورد لك من أخباره وحقائق أموره ما لا أترك لك بعده تشوقاً إلى شيء من خبره» (معجم الأدباء ج ١ ص ٤٩ ط الرفاعي).

وما أن استوى (معجم الأدباء) خلقاً سوياً، حتى صار مصدراً هاماً من مصادر كتب التراجم والرجال، نقل عنه من جاء بعد ياقوت، ممن طرقتوا باب التأليف في الأعلام والتراجم. وفي وسعنا أن نذكر من الكتب التي اعتمدت على كتاب (معجم الأدباء) أو أفادت منه علماء أو خبراً أو شيئاً ما: وفيات الأعيان لابن خلكان، والمسالك والممالك لابن فضل الله العمري، والوافي بالوفيات للصفدي، وفوات الوفيات لابن شاكر الكشي، وسير أعلام النبلاء للذهبي، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، وبغية الوعاة للسيوطي، والأعلام للزركلي، وغيرها وغيرها...

قيمة هذا الكتاب:

إن قيمة كتاب (معجم الأدباء)، لياقوت الحموي، لا تتبع من كونه حوى ما يربو على (١٢٥٠) ألف وممتين وخمسين ترجمة لأعلام سبقوا (ياقوت) أو عاصروه، وعملوا في التأليف والتصنيف فحسب، بل تتبع أيضاً من احتواء هذا الكتاب على نصوص هامة من كتب ضائعة، ومن إشارات مختصرة لأسماء كتب كثيرة مفقودة. وقد أفاد من الميزة الأولى، أعني النصوص المقبوسة من الكتب الضائعة، باحثون كثرة: فقد أفاد من (معجم الأدباء) المحامي (عبود الشالجي) الذي حقق كتاب نشوار المحاضرة للتتويحي، كما أفاد منه (مبخائيل عواد) في استدرآكاته وإضافاته على كتاب (أخبار الوزراء والكتاب) لمحمد بن عبدوس الجهشيار، وأفاد منه أيضاً الكثيرون من جامعي دواوين الشعر القديم، وناشري الكتب التي وصلت إلينا ناقصة... وفي وسعنا التأكيد أن هذا المعجم مكنزٌ عظيم ومنجم ثمين للباحثين في التراث العربي ومصنّفات أعلامه، وللمجتهدين لإكمال صور ناقصة، قد تتصل بعلم من الأعلام، أو أثر من الآثار، وذلك لأن ما كان بين يدي ياقوت، في القرن السابع الهجري، لم يصل إلينا كاملاً، لسوء حفظ العلم والعلماء. وهذه حقيقة لا تقتصر على صاحبنا ومعجمه فقط، بل تشمل الكثير من المؤلفات العربية القديمة، التي تحفل بها مكتبتنا التراثية الضخمة العظيمة. وقد عايننا هذه الظاهرة ودرسناها في القسم الأول من هذا الكتاب.

كتاب النجوم الزواهر في معرفة الأواخر

لابن اللبودي (٨٩٦ / ١٤٨٤)

صدر كتاب «النجوم الزواهر في معرفة الأواخر» لابن اللبودي (٨٩٦هـ) عن مجمع اللغة العربية بدمشق في العام ١٩٩٥، ف جاء في ٢٨٨ صفحة، وحوى من الفهارس / ١٧ / فهرساً، بينها فهرس بالأواخر، وفهرس بالأوائل. حقق الكتاب الأستاذان مأمون الصاغرجي، ومحمد أديب الجادر. ومن المعروف أن عِلْمَ الأواخر، مثله مثل علم الأوائل، جزء من علم التاريخ والمعارف العامة. وقد ألّف العرب قديماً وحديثاً في هذين الفنين، ورصدتُ في مقدمتي لكتاب «الأوائل» لأبي بكر تقي الدين بن زيد الجراعي الحنبلي، الذي حققته وطبعته سنة ١٩٨٨، عشرين كتاباً أُلِّفتْ في الأوائل، أما التّأليف في الأواخر، فقد تأخر، وكان قليلاً نسبياً... وأشار محققا الكتاب إلى خمسة علماء صنّفوا كتباً في الأواخر، هم: أبو جعفر القمي (٣٨١ هـ)، وعبد القادر محمد بن أبي الحسن الصعبي (القرن الثامن الهجري)، وابن الشحنة (٨١٥ هـ)، وابن طولون (٩٥٣ هـ)، وعلاء الدين دده السكتواري (١٠٠٧ هـ).

ويضاف إلى كتب هؤلاء كتاب ابن اللبودي (٨٩٦ هـ) «النجوم الزواهر في معرفة الأواخر» الذي سنقف عنده الآن، بعد أن نتعرف إلى مؤلّفه بإيجاز. فابن اللبودي هو أحمد بن خليل بن أحمد شهاب الدين الدمشقي الصالحي الشافعي. وقد عُرف بابن اللبودي، وابن عرعر، وابن البطائني. ولكنه بالأول أشهر. وقد ولد هذا المصنّف في سفح جبل قاسيون بدمشق سنة (٨٣٤ هـ). وكانت أسرته أسرة علم، فجدهُ لأمه كان محدثاً، ووالده غرس الدين كان عالماً أيضاً، وصهره وختنه إبراهيم بن محمد كان فقيهاً ومحدثاً. أما هو فقد نشأ بصالحية دمشق، حيث كانت تقوم مدارس علم معروفة، كالمدرسة العمرية والمدرسة ضيائية، وهما مدرستان نشطتا حركة العلم والتأليف بقوة. وقد حفظ ابن اللبودي القرآن، قرأ بعض المتون، وشدا قسطاً وافراً من المعارف المتنوعة في صباه، فتعلم الفقه على ابن

قاضي شهبة، والعربية على أبي العباس أحمد بن محمد الموصلي، والحديث على الشيخ الخيضي، وسمع من شيخات كثيرات مثل الشيخة فاطمة بنت خليل الحرساني الدمشقية، وست القضاة بنت القاضي عماد الدين العمري المقدسية، وأسماء بنت عبد الله بن الحسن المهراني، وسارة بنت محمد أم عبد الله... الخ.

وكان ابن اللبودي، إلى علومه تلك، مفرماً بالشعر يحفظه وينظمه، وكتابه هذا يشهد له بذلك... ولكن شعره كان - ك شعر علماء عصره في الغالب - شعراً تعليمياً، يتخذ من بحر الرجز مطيئةً له، ومن ذلك، على سبيل المثال، أرجوزته في كتاب الرسول عليه السلام، وفيها يقول (ص ١٤٢ - ١٤٣):

- | | |
|--|------------------------------|
| ١ - كَأَبٍ خَيْرٍ خَلَقَ اللَّهُ خُلُقَهُمْ فاعلمنَّ | سعدٌ وثابتٌ بن قيسٍ فافهمنَّ |
| ٢ - كذا أبو بكرٍ هو الصديقُ | عثمان مع علي، الفاروقُ |
| ٣ - بريدةٌ حديفةٌ حويطبُ | زيدٌ وحاطبُ بن عمرو فاكبوا |
| ٤ - وطلحةٌ مع الزبيرِ أرقمُ | كذا المغيرةُ بنُ شعبة اعلموا |
| ٥ - ابنُ الوليدِ خالِدٌ وجهمُ | ثم حصينُ بنُ عميرٍ ثموا |

ويعضبي فيعدُّ منهم / ٤٢ / اثنين وأربعين كتاباً.

ولم يكن تصنيف ابن اللبودي ليقصر على كتاب واحد، بل ألف اثني عشر كتاباً، نذكر منها على سبيل المثال: كتاب التاريخ، وبداه من سنة ٨٣٤ هـ، وكتاب الروض البسام فيمن ولي قضاء الشام، وهي أرجوزة في قضاة دمشق مع شرحها، والإشعار بمحاسن الأشعار، وإخبار الأخيار بما وجد على القبور من الأشعار... الخ.

أما كتابه هذا «الأواخر» فقد أشار في مقدمته إلى سبب تأليفه له، فقال: «أما بعد، فإن العلماء - رحمهم الله تعالى - قلُّ أن تركوا منهجاً ما سلكوه أو باباً ما دخلوه، أو فناً لطيفاً ما ابتكروه، وأبرزوه بالتأليف ودونوه، ومن جملة مبتكراتهم اللطيفة أن وضعوا كتباً في معرفة الأوائل... وكنت قصدت أن أتطفل عليهم، وأجمع في هذا الفن البديع الغريب كتاباً يجمع البعيد منها والقريب، فوجدت جماعة من أبناء العصر وضعوا في ذلك كتباً عديدة

كاملة مفيدة، فرجعت عن القصد المذكور واستمررت على ذلك عدة شهور، إلى أن حاك في صدري أن أضادهم وأبتكر كتاباً في معرفة الأواخر، ذا فوائد كالجواهر، فاستخرت الله، وجمعت من المهيع المشار إليه، ما تيسر لي الإطلاع عليه، وضممته فوائد غريبة، وفرائد عجيبة...».

والحقيقة أن ابن اللبودي قد جمع في كتابه هذا من الأواخر (٢٣٠) مادة. وكان يلجأ أحياناً، لإتمام الفائدة، إلى ما يقابلها من الأوائل، فبلغت عدة أوائله / ١٠٠ / مادة.

وقد بدأ بالرسول (ﷺ) فأورد ترجمة مختصرة له ذاكراً لنسبه وأسماءه وكناهه ونشأته وصباه وشماله وأواخر أفعاله... ثم ذكر الصحابة، وأواخرهم موتاً في بلاد الإسلام، وانتقل إلى أواخر القراء السبعة، فأواخر الكتب، وأواخر الخلفاء الأمويين والعبديين والغساسنة... فأواخر الكلمات التي حفظت عن العلماء والخلفاء، وأواخر قصائد الشعراء، وأواخر خطب الخلفاء، وأواخر المصنفات والأحاديث، وأواخر من روى عن فلان، فساق أربعين حديثاً متصلة الإسناد إلى الرسول ﷺ. وحوى الكتاب / ١٦ / فائدة ومجموعة من الغرائب، كان يذكرها ابن اللبودي في مناسباتها...

ومن أمثلة حديثه عن آخر ما تكلم به الخلفاء قوله في أبي بكر الصديق (ص ١٠٠): «آخر ما سُمِعَ من أبي بكر الصديق رضي الله عنه: تَوَفَّيَ مسلماً وألحقني بالصالحين، قاله الواقدي، وكانت وفاة أبي بكر رضي الله عنه ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان ليالٍ من جمادى الآخرة، سنة ثمان عشرة من الهجرة». وينتقل بعدها إلى أوائل أبي بكر فيقول: «وهو أول من توفي من الأصحاب العشرة، وأول من أسلم، وأول من جمع القرآن، وأول من سُمِّيَ مصحف القرآن مصحفاً، وأول من سُمِّيَ خليفة... الخ».

هذا، وقد بلغت مصادر ابن اللبودي في كتابه هذا ما يقرب من سبعين مصدراً، منها ما هو تاريخي، وما هو أدبي، وما هو (بيلوغرافي)، وما هو ديني فقهي... فقد عاد على سبيل المثال إلى كتاب مروج الذهب للمسعودي، وأدب الدنيا والدين للماوردي، والتاريخ الكبير، والتجريد في معرفة الصحابة، وكلاهما للنهبي، والفائق، والكشاف، وكلاهما

للزخشي، والأرائل للعسكري، وفضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام، والدياج-
للختلي، والمفتاح، ومرآة الزمان، وكلاهما لابن الجوزي، ونزهة الناظر إلى معرفة الأواخر
لأمين الدين عبد القادر ابن محمد... الخ.

ويبقى السؤال المائل في الأذهان : ما الجديد الذي قدمه هذا الكتاب؟ وفي الإجابة
نقول: إنَّ نَشْرَ أي كتاب تراثي يُعَدُّ خدمة لفكر هذه الأمة وثقافتها ومكبتها المعاصرة
المطبوعة. واستقر في البحث العلمي أنه لا يعني كتاب عن كتاب. وعلى الرغم من أن كتاب
علاء الدين دده السكوتاري «محاضرة الأرائل ومسامرة الأواخر» قد طبع بمصر سنة ١٣١١
هـ، فإن كتاب ابن اللبودي هذا يعد إضافة طيبة إلى فرع من فروع المكتبة العربية، يشكو من
ندرة المصنّفات فيه .

ومن المسائل التي استوقفتني في حواشي المحققين أن ابن اللبودي ذكر في «أواخره»
كتاباً جديداً لابن الجوزي عنوانه «المفتاح» (ص ١٢٥). وكتاب المفتاح لم يرد ضمن كتاب
عبد الحميد الحلوجي: «مؤلفات ابن الجوزي»، وقد بلغت حوالي (٤٠٠) كتاب، وهذه -
دون ريب - إضافة للمعرفة التراثية لا تنكر.

ولمة حاشية ثانية تؤكد أن كتاب «مرآة الزمان» لابن الجوزي، المطبوع في
(شيكاغو) سنة ١٩٠٧، غير كامل، إذ إن ابن اللبودي ينقل عنه ترجمة لأمية بن عبد
العزیز بن أبي الصلت الأندلسي مع أبيات له في كتابه: الحديقة، ولدى عودة المحققين لكتاب
(مرآة لزمان) لم يجدا ما نقله ابن اللبودي عنه، مما يدل على نقص في طبعة الكتاب المشار
إليها سابقاً.

وهناك حاشية ثالثة أيضاً في (ص ٨٥) جاءت تعليماً على قول ابن اللبودي: « آخر
آية أنزلت في الإنجيل: الملك لله الحق المبين، رواه أبو القاسم الختلي في كتابه الدياج عن
جعفر بن محمد ». والمحققان لم يجدا هذا القول المسند إلى الختلي في كتابه «الدياج» الذي
حققه ونشره الأستاذ ابراهيم صالح، فقالا: «ولعله من الجزء الثاني المفقود». وفي هذا فائدة
أخرى، مألها: أن الجزء المفقود من «الدياج» كان لا يزال بأيدي الناس حتى زمن الختلي،
أي القرن التاسع للهجرة.

وهناك ظاهرة أخرى، لا يصح للباحث المدقق أن يمر بها مرور الكرام، وهي مستمدة من قصة حياة ابن اللبودي العلمية التي وقفنا عندها في مطلع هذا البحث، فقد مرَّ بنا أنَّ ابن اللبودي تتلمذ على شيخات كثيرات في زمانه. وهذا أمر يدلُّ على أن المرأة المسلمة في دمشق، في القرن التاسع الهجري، وربما قبله، كانت عالمة ومعلِّمة في الوقت نفسه، وأن الحواجز أو القيود الاجتماعية لم تكن تمنع اختلاط الرجال بالنساء آنسب... وأن تكون المرأة معلِّمة للرجال، فهذا مؤشر على مكانة رفيعة كانت تتمتع بها. ومن هنا فلا يسوغ لباحث في علم الاجتماع يتناول أحوال ذلك الزمان، أن يقفز عن هذه الظاهرة العلمية الاجتماعية اللافتة للانتباه، خاصة إذا قيست بأحوال المرأة العربية في بيعات أخرى، وفي أزمان أخرى... وكل ما سبق يدل على أننا إزاء كتاب قيم جدير بالقراءة، قدّم جديداً للمكتبة العربية المعاصرة، التي هي بأمر الحاجة اليوم إلى نشر كنوز تراثنا الدفين في ثنايا مخطوطات لا يعرفها إلا القليلون.



الكتاب الثالث (دراسات وكتب مُتَّصِلَةٌ بالتراث)

- ١ - أقدم المخطوطات العربية في العالم، لكوركيس عواد.
- ٢ - تاريخ التراث العربي، (المجلد الثاني)، لفؤاد سزكين.
- ٣ - قصائد جاهلية نادرة من منتهى الطلب، ليحيى الجبوري.
- ٤ - أشعار العامرين الجاهليين، لعبد الكريم يعقوب.
- ٥ - شاعرية المتنبي في نقد القرن الرابع للهجرة، لمحي الدين صبحي.
- ٦ - فن الشعر لأرسطو وأثره في البلاغة والنقد العربيين، دراسة لشكري عياد.
- ٧ - ملامح يونانية في الأدب العربي، لإحسان عباس.
- ٨ - أعلام الفكر في دمشق، لإحسان خلوصي.
- ٩ - حلب في كتب البلدانيين العرب، إعداد د. شوقي شعث وفالح بكور .

أقدم المخطوطات العربية في العالم

لكور كيس عواد

تراث العرب المخطوط عظيم وباذخ وباعث للإعجاب والإكبار، وما نُشر فيه ما زال قليلاً وزهيداً، إذ يقدر العارفون عدد المخطوطات العربية المبعثرة في أصقاع الدنيا بنحو أربعة ملايين مخطوط، ربما كانت تركية والهند أهم قطرين استقرت فيهما تلك المخطوطات. وليس أدلّ على ذلك من احتواء مكتبة السلمانية فقط، في تركيا، على مئة وواحد وثمانين ألف مخطوط عربي، ومن كون فهرس مكتبة باتنة بالهند قد بلغ (١١٠) مئة وعشرة مجلدات، نصيب المخطوطات العربية فيها غير قليل البتة .

ومن المسلم به أن الإهتمام بعالم المخطوطات العربية شيء محمود ومطلوب، ومحاولات التعرف على هذا الإرث العظيم وتسجيله قديمة جداً، وقد كان محمد بن إسحق النديم (٣٨٥ / ٩٩٥) من أكبر البيلوغرافيين العرب، وجسّد في كتابه (الفهرست) أول المساعي لحصر عناوات الكتب التي ألفت قبل وفاته، أو في زمانه... ولكن ابن النديم، على عظم محاولته، فاته الكثير الكثير، فهو لم يدون في (الفهرست) سوى (٨٣٦٠) عنواناً تقريباً (الفهرست تحقيق شعبان خليفة ووليد محمد العوزة، القاهرة، ١٩٩١ ص ٣٩). ومن المعروف أن مؤلفات أخرى، في الفترة التي حاول أن يؤرخ للتأليف فيها، قد فاته ذكرها، وخاصة حين كان صانعوه هذه المؤلفات المغفلة يقطنون في أقاصي الإمبراطورية العربية آنئذ، كالمغرب والأندلس واليمن، وعلى الرغم من أن بغداد - حيث عاش ابن النديم - كانت عاصمة الخلافة، ونقطة التقاء للثقافات العربية، فإن الأمصار الأخرى كانت تنتج من المعارف كما لا يستهان به البتة.

وقد أُلّف هذا الكتاب الذي نعرض له ها هنا، وهو (أقدم المخطوطات العربية في العالم) أكبر بيلوغرافي عربي معاصر، وهو الأستاذ المرحوم كور كيس عواد، وطبعه في بغداد

عام ١٩٨٢. وكوركيس عواد هذا هو مؤلف (مصادر التراث العسكري عند العرب) ويقع في ثلاثة مجلدات، وطبعه في بغداد سنة ١٩٨١، وقد ذكر فيه / ٩٥٠٠ / مصدر عسكري عربي. وهو صاحب "فهرس فهارس المخطوطات العربية" الذي أخرجه معهد المخطوطات العربية بالكويت سنة ١٩٨٤ ويقع في جزأين. وكتاب "فهارس المؤلفين العراقيين" ويقع في ثلاثة مجلدات، وكتاب "رائد الدراسة عن المتنسي". بالإضافة إلى تحقيقه مجموعة من كتب التراث الهامة مثل كتاب "الديارات" للشابشتي، و"تاريخ واسط" لباحل، و"الوزراء" للصابي... الخ.

أما كتابه هذا "أقدم المخطوطات العربية في العالم" فقد حوى إشارات إلى /٧١٧/ مخطوطة، منها ما هو كامل، ومنها ما هو ناقص. وكلها ترجع إلى القرون الخمسة الأولى للإسلام. وتقع في مكتبات العالم المختلفة، الأمر الذي يرتب على محاولة حصرها جهداً إضافياً.

وقد ضمَّ هذا المصنَّف مباحث تمهيدية تضمنت توطئة، ثم أشهر خزائن الكتب في الأزمنة الغابرة، فشرحاً لسبيل البحث، فانتقالاً، بعدئذ، إلى تصنيف المخطوطات القديمة المختارة إلى المجموعات التالية:

أ - المصاحف الشريفة.

ب - الكتاب المقدس.

ج - أوراق البردي.

د - كتب التراث العربي القديم.

وعرض كوركيس عواد في مباحثه التمهيدية لمجموعة من المكتبات القديمة التي تناقلت أخبارها كتب التراث والتي جمعها أصحابها قبل القرن السادس الهجري، فذكر نقلاً عن "الفهرست" خيراً عن خزانة ابن أبي بعرة، وكانت بمدينة (الحديثة)، وكانت على جلود فلجان (حمر وحشية) وقراطيس مصرية وورق صيني وتهامي وجلود آدم. وأشار (عواد) إلى خزانة أبي عمرو بن العلاء (١٥٤/٧٧٠) وكانت دفاتره ملء بيته إلى السقف، وإلى خزانة الواقدي (٢٠٧/٨٢٢) وكانت عشرين ومئة حمل، وكان له غلامان يكتبان الليل والنهار.

وإلى خزانة الأصمعي (٨٣١/٢١٦)، ومحمد بن عبد الملك الزييات (٨٤٧/٢٣٣)، وإسحق ابن ابراهيم الموصلي، والفتح بن خاقان، وهي التي وصفها ابن النديم بقوله: "جليلة القدر لم ير أعظم منها كثرة". كما ذكر خزائن كتب لكل من علي بن يحيى المنجم (٨٨٨/٢٧٥) وأبي بكر الصولي (٩٤٦/٣٣٥). وذكر دار العلم التي أنشأها أبو نصر سابور في محلة الكرخ (٩٩١/٣٨١)، وكان بها عشرة آلاف وأربعمئة مجلد، منها ١٠٠ مصحف بخط بني مقله. وذكر خزانة الصاحب بن عباد (٩٩٥/٣٨٥)، وضمت (٢٠٦) آلاف مجلد استغنى الصاحب عن أكثرها بكتاب الأغاني للأصبهاني. ثم وقف عند خزانة الخليفة الفاطمي العزيز بالله، وقد وصفها المقرئ فقال: إنها كانت تحوي ألف وستمئة ألف كتاب، وكان فيها نحو (٣٠) نسخة من كتاب "العين" للفراهيدي، منها واحدة بخط الفراهيدي نفسه، وفيها ٢٠ نسخة من كتاب التاريخ للطبري، منها واحدة بخط الطبري نفسه، بالإضافة إلى نسخ عديدة من جمهرة اللغة (لابن دريد)، وغيرها من الكتب التراثية الهامة المؤلفة قبل القرن الخامس للهجرة.

وحاول (كور كيس عواد) أن يستقصي فهارس المخطوطات العربية، وهو ابن مجدها، فكان مما رجع إليه منها:

- ١ - فهارس المكتبة العربية في الخافقين ليوستف أسعد داغر، بيروت ١٩٤٧.
 - ٢ - قائمة ببلوغرافية بفهارس المخطوطات العربية والشرقية المحفوظة بدار الكتب والمكتبات الملحقة بها، القاهرة ١٩٥٩.
 - ٣ - المخطوطات العربية في العالم - ببلوغرافية الفهارس، لهويسمان، لندن ١٩٦٧.
 - ٤ - وعاد إلى ما نشره هو حول فهارس المخطوطات في العراق والمخطوطات العربية خارج الوطن العربي (مجلة المورد ٥ (١٩٧٦) ع ١ ص ١٧١ - ٢٤٦).
- هذا، وكان همُّ المؤلف في كتابه هذا الإشارة إلى المخطوطات التي أرُخحت بسنة بعينها، أو تضمنت إشارة إلى تاريخ واضح أو مضمّر يثبت أنها نسخت قبل القرن السادس الهجري، كالتملك، والقراءة على عالم، والإجازة... الخ.

ولم يحفل (عواد) بالنقوش الحجرية أو المسكوكات على التحف المعدنية أو الخشب أو السلاح أو المنسوجات أو المباني الأثرية أو شواهد القبور، لأنه علّمها، جميعاً، خارج نطاق بحثه هذا.

وقد أشرنا إلى أنه صنف المخطوطات العربية القديمة جداً إلى أربع مجموعات هي:

أ - المصاحف

ب - الكتاب المقدس

ج - أوراق البردي

د - كتب التراث العربي القديم.

وفي باب (المصاحف) ذكر أن ما وصل إلينا منها بعضه كامل، وبعضه غير كامل، وأغلبه مكتوب بالخط الكوفي أو القريب منه، ومنها ما هو على رقّ الغزال. وذكر من بينها نسخة في مكتبة أمانة خزينة الملحقة بطوب قبو سراي في استنبول - الرقم (١) - وهي بخط كوفي كتب عليها: « إن هذا المصحف الشريف كتبه الإمام الشهير ذو النورين - أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه إماماً من أفواه الصحابة القراء في عصره الذين أخذوا القرآن الكريم عن رسول الله (ﷺ) » ، ومنه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية بمصر (فهرس المخطوطات المصورة: ١ : ٢ - ٣ تسلسل ١٩ / الكتب السماوية).

كما ذكر نسخة أخرى مكتوبة بخط علي بن أبي طالب على الرق المبشور في متحف (طوب قبو سراي) بتركية رقمها 36 E.H.29 قوامها ١٤٧ ورقة. في آخرها: "كتبه علي بن أبي طالب".

وأشار (كوركيس عواد) إلى نسخة في مكتبة أمانة خزينة ملحقة بطوب قبو سراي - الرقم ٤٤ ، وذكر فيها أنها بخط خديج بن معاوية بن مسلمة الأنصاري، كتبها للأمير عقبة بن نافع، وهو باني مدينة القيرون، وكتبها خديج سنة ٤٩ هـ، وتقع في ٢٢٦ ورقة، ومنها نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية (فهرس المخطوطات المصورة ١ : ١ - ٢ ، تسلسل ٩ / الكتب السماوية).

وأشار أيضاً إلى نسخة في مكتبة أمانة خزينة ملحقة بطرب قبو سراي الرقم ٣٩ نسخها جعفر بن محمد بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب قوامها ١٦٢ ورقة، ومنها نسخة في معهد المخطوطات العربية (فهرس المخطوطات المصورة ١:٢ تسلسل ١١ / الكتب السماوية)، "وانظر الأعلام (٢ : ١٣٧) حيث صورة عن الصفحة الأولى". ويتابع المؤلف إشارته إلى وجود مصاحف مخطوطة في مكتبات العالم الأخرى، فيذكر نسخة في غاية النفاسة، تُنسب كتابتها إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، توجد في مكتبة (رضا رامبور) في (الهند) قوامها ٣٤٣ ورقة، ومكتوبة بالخط الكوفي. ويشير إلى نسخة أخرى في القاهرة قوامها ١٠٠٠ ورقة كتبت على رق الغزال بين سنتي ٢٥ و ٣١ هـ، اكتشفت في رواق المغاربة بالجامع الأزهر بالقاهرة. ويذكر نسخة من القطع الكامل بخط كوفي على رق الغزال من غير نقط ولا شكل ولا كتابة لأسماء السور وعدد الآيات، على عادة الرسم في صدر الإسلام، جيء بها من الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) إلى دار الكتب المصرية... كتبها أبو سعيد الحسن البصري سنة ٧٧ هـ. (انظر فهرس الدار ١ : ٥ الرقم ١٣٩).

أما الكتاب المقدس، فيشير كوركيس عواد إلى نسخة منه بالعربية في مكتبة دير طورسينا، قوامها ٧٥ ورقة كتبت بخط متوسط بين الكوفي والنسخي، في القرن الرابع الهجري، وإلى نسخة ثانية في مكتبة طورسينا قوامها ١٣٩ ورقة كتبها موسى الراهب على رق بخط كوفي عتيق بين أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث للهجرة (انظر ص ٦١ و ٦٢ من أقدم المخطوطات العربية في العالم).

ويذكر (عواد) نسخة من الإنجيل في مكتبة الفاتيكان يرقى زمانها إلى القرن الثاني للهجرة، وصفها لويس شيخو في مجلة المشرق (٤ : ٩٩)، وقال: هي مترجمة عن الأصل اليوناني. كما يذكر أن من رسائل بولس والأعمال نسخة في مكتبة طورسينا، قوامها ٢٦٩ ورقة مكتوبة على الرق في دمشق سنة (٨٦٧/٢٥٣) (ص ٦٥).

ومما يشير إليه أيضاً أنه قد عُثِر على قسم من مزامير داود في ساحة الجامع الأموي بدمشق مكتوبة باللغة العربية، لكن بالحرف اليوناني، ويرقى إلى العصر الأموي، ويُحِيل هنا

إلى (حبيب زيات) وكتابه (خزائن الكتب في دمشق وضواحيها) المطبوع في القاهرة ١٩٠٢م، وإلى مجلة المشرق (٥: ٤٧).

وفي الباب الثالث، وهو حول أوراق البردي العربية، يذكر (كوركيس عواد) أن ما عثر عليه من البرديات يُعدُّ بألاف القطع، فيها السليم وفيها المهشم، والكتابات التي عليها تتعلق بموضوعات شتى، وتبدأ من صدر الإسلام حتى نهاية القرن الخامس الهجري. ويوجد في دار الكتب المصرية ٤٤٤ ورقة بردي، أقدمها مؤرخ بسنة ٨٦ / ٧٠٥ م، وهي في موضوعات اقتصادية واجتماعية وإدارية، درسها وقرأها المستشرق (جروهمان) وشاركه د. حسن ابراهيم وعبد الحميد حسن ومحمد مهدي علام وعبد العزيز الدالي ... ويشير المؤلف إلى أوراق بردي أخرى في (جامعة شيكاغو) درستها نبيهة عيود... وإلى قطعة من ورق البردي ترجع إلى أواخر القرن الأول للهجرة في معهد آسيا للاستشراق في (لينغراد). وثمة برديات عربية أخرى في (لندن) ومكتبة دار الكتب المصرية (انظر فهرس الدار ٥ : ٣٢٥).

أما الباب الرابع والأخير، فهو أكبر أبواب الكتاب، وفيه أشار البيلوغرافي (كوركيس عواد) إلى مخطوطات من كتب التراث القديم تعود إلى القرون الخمسة الأولى للإسلام، تأليفاً ونسخاً. وكان ترتيبه لها حسب الترتيب الأبجائي للعنوانات.

ومما ذكره في هذا الباب نسخة تعد أقدم مخطوطات مكتبة الظاهرية (سابقاً)، حسبما أخبرني (صلاح الخيمي) أمين المخطوطات قبل نقلها إلى (مكتبة الأسد الوطنية)، وهذه النسخة هي (مسائل الإمام أحمد بن حنبل) وهي نسخة مكتوبة سنة (٢٦٦ / ٨٧٩) ورقمها / ٣٣٤ / حديث في ٨٦ ورقة.

ومن المخطوطات القديمة في الظاهرية يشير إلى نسخة من: أمالي أبي جعفر البحري، وأبي بكر النجاد، وجعفر بن محمد بن نصير، وهي نسخة عتيقة عليها سماع بتاريخ (١٠٢٦/٤١٧). ويُحيل هنا إلى (الألباني ص ١٠٨ الرقم ٣٩٨).

ومن مخطوطات المتحف البريطاني: الإناس في علم الأنساب، للوزير المغربي (١٠٢٧/٤١٨)، وهي نسخة برقم ٣٦٢٠ نقلت عن هذا المؤلف، وعليها علامة التصفح والمقابلة بخطه، في ١٠٨ ورقات. ومن مخطوطات المكتبة المركزية بجامعة طهران، مسائل

حنين بن إسحق (٢٦٠ / ٨٧٣) وهي نسخة برقم ٢١٦٥ كتبت في حياة المؤلف سنة (٢٤٩ / ٨٦٣) (راجع مجلة المكتبة ١، بغداد، تموز ١٩٦٠ ع ٣ ص ٢٣).

ومن مخطوطات المشهد الرضوي بطهران: فحول الشعراء، لأبي تمام (٢٣١/٨٤٦)، وهي نسخة فريدة برقم ٨٣ / أدبيات في ١٩٣ ورقة، كتبت في القرن الخامس للهجرة، ووصفها محمد أسعد طلس في بحثه: نفائس المخطوطات العربية في المشهد الرضوي المطهر (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - مجلد ٢٤ (١٩٤٩) ص ٢٧٤).

ومن مخطوطات المغرب العربي: كتاب النحو، لأبي علي الحسن بن عبد الله المعروف بلغة الأصفهاني (٢١٠ / ٨٢٥)، ومنه نسخة في مكتبة الخزانة العامة بالرباط في ١٦ صفحة ضمن مجموع برقم ١٠٠ / ٥ ق تاريخها (٩٦٢/٣٥٢) وعنهما نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية (انظر مجلة المعهد ٢٢ (١٩٧٦) ص ٢٠ مسلسل (١٦١)).

ومن مخطوطات مكتبة الشيخ عارف حكمت بالمدينة المنورة: التشبيهات، لابن أبي عون (٣٢٢/٩٣٤). ونسخة هذه المكتبة كتبت سنة (٤٦٦ / ١٠٧٣). ويراجع بشأنها مجلة المعارف ج ١٨ ص ٣٢٩ وتصدر في بلدة (أعظم كره)، وجرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ١٣٣:٤، وطرازي ١: ١٥١.

ومن مخطوطات جامعة ليدن بهولنده: كتاب إصلاح المنطق، لابن السكيت وتاريخ نسخة هذا الكتاب (٤٩٥/١١٠١) ورقمها ٤٦، وعليها خط أبي بكر يحيى بن علي التبريزي تاريخه (٤٩٦/١١٠٣). ومن مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس: أخبار ملوك العرب الأولين من بني جرهم وهود، للأصمعي والنسخة المرادة هنا هي برقم ٦٧٢٦ عربيات، كتبها ابن السكيت على الرق بالخط الكوفي في (٥٢) صفحة، سنة (٢٤٣ / ٨٥٧). وعنهما نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي (راجع ميخائيل عواد: مخطوطات المجمع العلمي العراقي - دراسة وفهرسة (١ بغداد ١٩٧٩ ص ٢٣٣ الرقم ٦ / تاريخ).

ومن مخطوطات الأسكوريال في إسبانية: الإبل، للأصمعي. وهذه النسخة برقم ١٧٠٠ بخط أبي منصور بن أحمد الجواليقي سنة (٤٥٠ / ١٠٥٨ م) ويراجع بشأنها فهرس الغزيري (Casiri vol 11.P167)، ومقدمة رمضان عبد التواب لكتاب الأمثال، لأبي

عكرمة الضبي - ط دمشق ١٩٧٤ ص ١٥). ومن مخطوطات جامع الزيتونة بتونس: الغريب المصنف، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي البغدادي (٢٢٤ / ٨٣٨). وقد كتبت نسخة هذه المخطوطة سنة (٤٠٠ / ١٠٠٩) بخط نسخي نفيس مشكول، وهي برقم ٣٩٣٩ في ٣٠٨ ورقات. وعنها نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية (فهرس المخطوطات المصورة بالمعهد (١٩٥٤) ص ٣٦١ الرقم ١٨١/علم اللغة) وراجع (الزركلي: الأعلام ٣ ط ٤ بيروت ١٩٧٩ ص ٣٢٦).

وبعد، فهذه نماذج عشرة من المخطوطات الـ (٧١٧) التي ذكرها (كوركيس عواد) أتيت بها من أماكن مختلفة، لأدلل على مدى الجهد المبذول في هذا المؤلف القيم، وعلى مدى المساحة الجغرافية التي تبعثت فيها المخطوطات العربية القديمة جداً. وعلى الرغم مما تقدم، فإنني لا أدع عرض هذا الكتاب قبل أن أسجل حوله النقاط التالية:

أ - إننا إزاء سفر نفيس أطلعنا على مخطوطات نادرة وقيمة، سيقدر للباحثين وطلبة الدراسات العليا في مختلف الجامعات العربية الاستفادة من بعضها دون ريب... ولكن لا يمكن للمصنف (عواد) أن يزعم أنه استكمل ذكر جميع المخطوطات العربية التي وصلت إلينا، ويرجع تاريخها إلى القرون الخمسة الأولى للإسلام، والدليل أنه أغفل ذكر مخطوطة للغريب المصنف، لأبي عبيد القاسم بن سلام توجد في مكتبة الأميروزيانا بميلانو، كتبت في جمادى الأولى سنة ٣٨٤ هـ، وعدد أوراقها ٢٠٤ ورقة. وذلك حسبما يذكر (جريني) (انظر مناهج تحقيق التراث، لرمضان عبد التواب، القاهرة ١٩٨٦ ص ٦٨).

وأغفل مخطوطة ديوان عبيد بن الأبرص التي أخرج عنها المستشرق (لايل) الديوان، وهي مخطوطة قديمة جداً ومؤرخة بسنة ٤٣٠ هـ، (انظر مناهج تحقيق التراث، لعبد التواب ص ١٢٧). وكذا تنهى إلينا خير إذاعي يفيد أنه يوجد في (موريتانيا) نسخة مخطوطة لكتاب مروج الذهب، للمسعودي (٣٤٦ / ٩٥٧)، بخط مؤلفها، ولم يشر إليها (عواد) في كتابه هذا.

وهناك دون ريب الكثير من المخطوطات العربية التي تقبع على رفوف مكاتب خاصة وعمامة وتحقق شرط هذا الكتاب، ولم ترد الإشارة إليها فيه.

ب - إن المقارنة بين عنوانات المخطوطات المذكورة، وما طبع منها، تكشف عن أن بعضها قد طبع دون علم ناشرها بالنسخ القديمة المشار إليها في هذا السفر القيم، ومن تلك مثلاً كتاب إصلاح المنطق، لابن السكيت، فقد أخرج المرحومان أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون هذا الكتاب، دون أن يعلموا بمخطوطة له نفيسة، توجد في جامعة ليدن برقم ٤٦ تاريخها ٤٩٥ هـ وعليها خط التبريزي، وقد مر ذكرها من قبل. نقول هذا ونحن نعلم أن أصول نشرة (إصلاح المنطق) التي أشرنا إليها هي أربع مخطوطات يعود أقدمها إلى القرن الرابع الهجري وعليها سماع لأحمد بن فارس سنة ٣٧٢ هـ وهذه المخطوطة من مخطوطات مكتبة المنصورة بمصر. ومن تلك الكتب المطبوعة أيضاً: كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، فقد حققه على محمد البحراوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ونشره في سنة (١٣٧١ / ١٩٥٢) عن ثلاث نسخ، الأولى في (الأستانة) وتاريخ نسخها ١٣٢٠ والثانية بدار الكتب المصرية ونسخت سنة ١٠٩١ هـ، والثالثة نسخة من الجزء الأول ونسخت سنة ١١٦٢. ولم يعلم المحققان بأن لهذا الكتاب إمام نسخة توجد في المكتبة الرضوية بمشهد (انظر مجلة معهد المخطوطات ٦ (١٩٦٠) ص ٣٢٩) وبخط مؤلفها أبي هلال، ومؤرخة بسنة ٣٩٤ / ١٠٠٣ م - انظر ص ١٦٦).

ج - أشار (كور كيس عواد) في كتابه هذا إلى مخطوطات منتهى النفاسة، قلما يعرفها المختصون، منها مثلاً نسخة كتاب الصناعتين التي كتبت بخط مؤلفها - كما ذكرنا سابقاً، ومنها نسخة من كتاب الفصاحة للخفاجي (٤٦٦/١٠٧٣)، وقد كتبت بخط المؤلف سنة ٤٥٤ هـ، وتوجد في مكتبة برلين برقم ٧١٧٣، وعنها نسخة مصورة في دار الكتب المصرية بالقاهرة (فهرس الدار ٢: ٢٠٢).

ومن المخطوطات النفيسة جداً أيضاً مخطوطة الإناس في علم الأنساب، للوزير المغربي، وهي في المتحف البريطاني في ١٠٨ ورقات، وعن هذه المخطوطة، ومخطوطة أخرى، أخرج الشيخ حمد الجاسر هذا الكتاب بالرياض عام (١٤٠٠/١٩٨٠). ومخطوطة

المقاسات، لأبي حيان التوحيدي، وتوجد في الظاهرية، وهي برقم ٤٨٠٣ / عام في ٣٢ ورقة (راجع فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية/ الفلسفة والمنطق وآداب البحث لعبد الحميد حسن / دمشق ١٩٧٠ ص ٧٢ - ٧٣). ومنها مخطوطة: البيان في ما يستعمله الإنسان، للطبيب أبي علي يحيى بن عيسى بن جزلة - الطبيب البغدادي (٤٩٣ / ١١٠٠)، وهي في المتحف البريطاني، وكتبت في حياة المؤلف سنة (٤٨٩هـ) في ٢٣٩ ورقة. ومن المخطوطات النفيسة نسخة من كتاب: الموشح للمرزباني (٣٨٤ / ٩٩٤) توجد في مكتبة أحمد الثالث باستنبول، كتبت في حياة المؤلف سنة ٣٦٦ هـ، في ٣٠٠ ورقة (راجع بشأنها: تذكرة النوادر ص ١٢٥ - ١٢٦).

وثمة نسختان من ديوان الشريف الرضي، الأولى كتبت في عهد المؤلف المتوفى سنة (٤٠٦ / ١٠١٥)، وتوجد في خزانة السيد محمد بحر العلوم في النجف، والثانية عليها إجازة بخط صاحب الديوان للبيهقي تاريخها (٤٠٣ / ١٠١٢)، وتوجد في خزانة داعي السلام السيد محمد علي في حيدر آباد بالهند.

د - إن المؤلف كان يشير أحياناً إلى أن بعض المخطوطات التي يذكرها قد طبع، ويذكر اسم المحقق ومكان الطبع وتاريخه. وبدهي ألا يشير إلى ما طبع من عنوانات وردت في كتابه، وطُبع بعد تاريخ صدوره، وهو سنة ١٩٨٢. لذا وجدنا من المناسب أن نغطي هذه الثغرة في حدود علمنا المتواضع بما نشر من المخطوطات، التي ورد ذكر عنواناتها في هذا الكتاب. فمن تلك المخطوطات التي طبعت على سبيل المثال، لا على سبيل الاستقصاء:

١ - أخبار ملوك العرب الأولين من بني جرهم، أو تاريخ العرب قبل الإسلام، للأصمعي. ونشره الشيخ محمد حسن آل ياسين في بغداد، معتمداً على نسخة باريس المشار إليها هنا، وذلك في السنة ١٩٥٩ م.

٢ - إصلاح ما غلط فيه أبو عبد الله النمرى فيما فسره من أبيات الحماسة، للأسود الغندجاني. وقد حققه ونشره الدكتور محمد علي سلطاني في الكويت (معهد المخطوطات العربية) سنة ١٩٨٥.

٣ - الخليل، للأصمعي. وقد نشره د. نوري حمودي القبسي في بغداد، بالاعتماد على مخطوطة الظاهرية المشار إليها في هذا الكتاب، والتي يرجع تاريخها إلى سنة ٤١٠ هـ.

٤ - العروض، لابن جني. وقد حققه ونشره الدكتور أحمد فوزي الهيب في الكويت سنة ١٩٨٧. وأشار الدكتور الهيب إلى ثلاث مخطوطات أخرى لهذا الكتاب، عدا التي ذكرها (كور كيس عواد). وثمة مخطوطات كثيرة ذكرت في كتاب (أقدم المخطوطات العربية في العالم) نشرت قبل صدور هذا الكتاب، مثل كتاب ضرائر الشعر للقزاز القيرواني، وكتاب الإنساب في علم الأنساب للوزير المغربي، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، والفهرست للنديم، وشعر سلامة بن جندل، والصاحي في فقه اللغة لابن فارس، والورقة لابن الجراح، وديوان ابن الدمينة، وديوان البحري، وديوان الحادرة، وديوان حسان بن ثابت، وغريب الحديث للقاسم بن سلام، وغريب الحديث لابن قتيبة.

وأخيراً يمكننا أن نقول بثقة: إننا إزاء مصنف قيم جداً، استغرق من صاحبه جهداً بيلوغرافياً كبيراً، فاستحق منا هذه العناية التي لا نزعم أنها تغني عن العودة إليه من قبل المختصين بعالم المخطوطات العربية المبثوثة في أرجاء الوطن العربي والعالم، ومن قبل الباحثين في تاريخ حركة نشر التراث العربي في زماننا المعاصر.



تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين (المجلد الثاني)

صدرت الترجمة العربية لموسوعة البَحَاثة (فؤاد سزكين) « تاريخ التراث العربي ». وهي موسوعة مؤلفة من عشرة مجلدات نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض، في ثمانينيات هذا القرن، بعد أن قام بترجمتها د. محمود فهمي حجازي، وراجع الترجمة د. عرفة مصطفى و د. سعيد عبد الرحيم. وقد تناولت هذه الموسوعة التراث العربي، بكل أصنافه، وكل جوانب التأليف فيه، سواء كانت دينية، أو لغوية، أو أدبية، أو تاريخية، أو علمية أساسية، أو علمية تطبيقية، حتى السنة (٤٣٠ / ١٠٣٨).

ويهمُّنا هنا أن نعرِّف بالمجلد الثاني، من تلك الموسوعة، الموقوف على الشعر الجاهلي والإسلامي فحسب، فهو قسمان، يتكون القسم الأول منه من مقدمة يتطرق فيها المؤلف إلى جهود المستشرقين وبجوثهم في الشعر الجاهلي والمخضرم، ويشير فيها إشارات سريعة وموجزة إلى أعمال (يعقوب جولويس) المتوفى سنة ١٦٦٧، ويمر بجهود (فريتاخ) و (دي برسفال) و (دي سلان) و (فون هامر بورجشتال)، وهذا الأخير ألف كتاباً عن تاريخ التراث العربي في القرن التاسع عشر يحتوي على (٩٩١٥) ترجمة، وكان آخر مجلد له قد ظهر سنة ١٨٥٦. ثم يذكر (سزكين) ما صنّفه (آلوارد) من تحقيق لشعر الشعراء الستة الجاهليين (لندن ١٨٧١)، ليصل إلى كتاب (كارل بروكلمان) الذي ظهر أصله بين سنتي ١٨٩٨ و ١٩٠٢. وقد ذكر (سزكين) أن (بروكلمان) اعتمد اعتماداً شديداً على فهرس (آلوارد) للمخطوطات العربية بالمكتبة الملكية في برلين، الذي صنعه بين سنتي ١٨٨٧ و ١٨٩٩. وكان القسم الأساسي منه مخصصاً للشعر. وهو يتألف من عشرة مجلدات.

وتمر سريعاً من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين ليطالعا فيه، فيما يطالعا، كتاب (ريشر): موجز تاريخ التراث العربي، وذلك بين سنتي ١٩٢٥ و ١٩٣٣. ثم نرى (بروكلمان) وقد استدرك على أصل كتابه ذيلاً ظهر بالألمانية بين سنتي ١٩٣٧ و ١٩٤٢. وكذلك يشار في هذا الصدد إلى كتاب تاريخ الأدب العربي الذي ألفه (ريجيس بلاشير) بالفرنسية، وترجمه إبراهيم الكيلاني إلى العربية، وهو في ثلاثة مجلدات.

ثم يجيء أخيراً هذا الكتاب الذي نقف عنده «تاريخ التراث العربي» وهو مطبوع، أولاً، بليدن، بالألمانية، في سبعينيات هذا القرن. وستقصر حديثنا - كما ذكرنا - على المجلد الثاني منه، وهو المجلد الخاص بالشعر القديم.

ففي القسم الأول من هذا المجلد يتكلم (سزكين) على نشأة الشعر العربي وأشكاله، فيذهب إلى أن أقدم شاعرين جاهليين، وهما مهلهل وعمرو بن قميعة، لا تتجاوز سنة ميلادهما، على الأرجح، سنة (٤٥٠ م). (وسزكين) بهذا ينسجم مع مقولة (الجاحظ) في كتابه (الحيوان) عن عمر الشعر الجاهلي التي تفيد: أن عمر الشعر العربي الذي تدارسه اليوم لا يتجاوز مئة وخمسين سنة قبل الإسلام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتا سنة على الأكثر... وقد أثبتنا في أطروحتنا للدكتوراه، وهي بعنوان «الشعراء الجاهليون الأوائل»، أن هذا الحكم غير صحيح، ولدينا شعر عربي قابل للثقة به ظهر في القرن الثالث الميلادي، أي قبل الإسلام بنحو أربع مئة عام. ومن شعراء القرن الثالث الميلادي، مثلاً، جذيمة الأبرش، وابن أخته عمرو بن عدي، وخصم هذا الأخير عمرو بن عبد الجن التنوخي.

وينتقل (سزكين) إلى الحديث عن رواية شعر الجاهلية وصدر الإسلام، وأصالته، ويستعرض هنا آراء المستشرقين في توثيق الشعر العربي وفي تزيفه.

ويشير إلى جهود (مرجليوث) و (طه حسين) و (تشارلز لايل) و (كرنكو) و (برونليش) و (بلاشير)... وتبدو آراء (سزكين) في هذا الصدد أقرب إلى الثقة بجمهرة ما ورثناه من شعر جاهلي وأبعد عن الشك، فهو يقول: «والأمل معقود في أن يظل البحث في المستقبل بعيداً عن هذا الشك المتحيز والعقيم عند النظر في مصادر الشعر الجاهلي» (مجلد ٢ قسم ١ ص ٤٨).

ويبدو أن سزكين أدرج علقمة بين هؤلاء الشعراء حين وجد قصيدة له مشروحة مع شعر أصحاب المعلقات عند الأعلام الششمري (٤٧٦ هـ) وأبي بكر عاصم بن أيوب البطلوسي (٤٩٤ هـ) (انظر مجلد ٢ ق ١ ص ٣ و ٤).

ويقتل الباحث بعدئذٍ إلى الشعراء الصعاليك الذين يذكر منهم الشنفرى، وتأبط شرأ، والحارث بن ظالم، والسليك بن السلكة، وقيس بن الحدادية، وحاجز الأزدي، وعروة بن الورد.

ونجده يقسم الشعراء الجاهليين الأخر حسب المناطق التي ظهرُوا أو عاشوا فيها، فهناك شعراء الشام، وجنوبي العراق، وشمالى نجد (كلب وقضاة وتغلب وبكر). ومن هؤلاء زهير بن جناب الكلبي، ووعلة الجرسي، وعبد الله بن عجلان النهدي، ومهلل، والأخمس بن شهاب وغيرهم. وهناك شعراء الحيرة وما حولها، ومنهم أبو دؤاد الإيادي، وعبد المسيح بن عسلة، وعبيد بن الأبرص، وأوس بن حجر، والمتلمس الضبيعي وغيرهم وشعراء منطقة الفرات الأدنى والخليج العربي وشرقي الجزيرة واليمامة كشعراء عبد القيس وغيرهم، وشعراء نجد وتخومه من الحجاز واليمن: الرباب، طيء، أسد... وشعراء الحجاز، وشعراء هذليون، وشعراء مكة وما حولها، وشعراء المدينة وما حولها، واليمن، موطناً وأصلاً، وأخيراً النساء الشاعرات.

والحقيقة أن الدقة لم تحالف (سزكين) في توزيع هؤلاء الشعراء حسب مواطنهم، فهو مثلاً يعد المتلمس الضبيعي وعبيد بن الأبرص من شعراء الحيرة، والمعروف أن المتلمس من شعراء بكر، من بني ضبيعة، ومنازلهم كما يذكر هو (ص ١١٥) بين اليمامة والبحرين، وقد عُذَّ من شعراء البحرين في بعض الدراسات المعاصرة. ولا يكفي لقاء المتلمس عمرو بن هند، وغضب هذا الأخير منه ومن ابن أخته طرفة، وإرسال صحيفة لعامله على البحرين لقتلهما، لعدِّ المتلمس من شعراء الحيرة. ومن المعروف أن المتلمس قد ترك الحيرة وسكن بصرى في حوران، بعد أن اكتشف حقد ابن هند عليه وألقى صحيفته بنهر الحيرة، وقد عاش بقية عمره في بصرى الشام ومات فيها (انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ١٨٢). أما عبيد بن الأبرص فهو من قبيلة أسد بلا خلاف، وكان الأوَّل بالبحانة سزكين أن يدرجه مع شعراء

يُجد وتقومه من الحجاز واليمن، (الرباب وطيء، وأسد)، وقد فعل هذا مع شاعر آخر من أسد هو بشر بن أبي حازم، ولم يَفْعَلْهُ مع عبيداً والشيء ذاته يمكن أن نقوله عن أوس بن حجر الذي كان فَحَلْ مضر غير المنازع، إلى أن نشأ النابغة وزهير فأخمله كما يقول أبو عمرو بن العلاء (الشعر والشعراء ١ / ٢٠٢).

ويحتوي هذا الجزء على (٢٨٠) ترجمة لشعراء جاهليين أو مخضرمين، انتهت حياتهم في أغلب الظن قبل سنة (٥٠ هـ). ولا يعبر هذا العدد عن شعراء الجاهلية والإسلام بدقة، ففي الجاهلية وحدها، ما يقرب من ثلاثة آلاف شاعر... ولكننا لا نستطيع أن نبخس هذا الرقم دلالاته على مجموع الشعراء، إذا كان الغرض هنا هو التمثيل إذ تكفي عينة ١٠ ٪، أو ما يقاربها، من مجموع ضخم، لتحقيق غرض التمثيل.

وقد كانت خطة (سزكين) في ترجمة كل شاعر من هؤلاء الشعراء أن يتحدث عنه بصفحة أو أكثر أو أقل، أو بأسطر قليلة معدودة، يذكر بعدها المصادر التي ذكرته، أو حوّت أخباراً عنه، أو دراسة لشعره، ثم تأتي النقطة الثالثة وهي أهم ما في الكتاب، في نظري، وتتناول الكلام على ديوان الشاعر، وطبعات هذا الديوان، ومخطوطاته التي لم تنشر بعد. ويكشف ذكر المخطوطات في مختلف أنحاء العالم، الذي أورده المؤلف، عن رحلة في طلب العلم محمودة، وعن رغبة كبيرة في جمع العلم واستيعابه. وإزاء هذه الترجمات والإحالات الواسعة لا يملك المرء إلا أن يثني على جهود المؤلف العظيمة، وأن يكرّم فيه المهمة العالية، والنشاط الجهم، والإرادة الفذة، فمثل هذا الأثر العظيم لا ينتجه إلا رجل عظيم.

بيد أن أمر العلم عجيب، فليس يمكن أن تقال فيه كلمة أخيرة جامعة مانعة، وذلك بسبب الجهود المتكاثرة التي تطلع علينا بجديدها يوماً إثر يوم، حتى إن الاستقصاء يبدو دائماً عزيز المنال، فهناك الكثير الذي يمكن تداركه مما يتصل بترجمات الأعلام ومصادرهم، ومخطوطات آثارهم، ولا غرو في ذلك، فالمؤلف وقف في محاولته هذه عند السنة ١٩٧٥. وهي السنة التي طبع فيها كتابه هذا في مدينة (ليدن) بهولنדה.

ولكن ما يستدرك، يبقى دون أن ينال من هذا المؤلف الشامخ الذي لا يكاد باحث في الأدب القديم أن يستغني عنه أو يضرب عنه صفاً.

قصائد جاهلية نادرة من مخطوط منتهى الطلب

لمحمد بن المبارك بن ميمون

نشرها الدكتور يحيى الجبوري

من بين المجموعات الشعرية القديمة التي يؤول إليها الباحثون في الشعر القديم تبرز قصائد هامة جمعها حماد الرواية، تسمى المعلقات، وعددها سبع قصائد، وفي روايات أخرى عشر. وقصائد جمعها المفضل الضبي في القرن الثاني الهجري فسميت باسمه: (المفضليات) وعددها (١٣٠) قصيدة. وقصائد أخرى جمعها الأصمعي تسمى (الأصمعيات)، وعددها (٩٢) قصيدة، ويليهما حماسة أبي تمام، وحماسة البحتري، وجمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، ومختارات شعراء العرب، لابن الشجري، وحماسة الظرفاء، للوزني، والحماسة المغربية، للجراري التادلي، والدر الفريد، لابن أيدمر، وقد بلغ هذا المجموع الأخير عشرين ألف بيت شروء فذُّ محكم مضبوط منقح محكك... الخ .

ولكن أياً من هذه المصادر الهامة، عدا « الدرّ الفريد »، ربما لم يبلغ في استيعابه وشموله ما بلغه مخطوط « منتهى الطلب من أشعار العرب »، لصاحبه محمد بن المبارك بن ميمون، ذلك العالم الفذ والرواية الأديب الذي عاش في القرن السادس الهجري، وجمع ما جمعه في شهور سنتي (٥٨٨ و ٥٨٩ هـ) في بغداد، حسبما يذكر هو نفسه، وقد كان عمره إذ ذاك جاوز الستين، فما الذي صنعه، وكيف صنع؟

يقول ابن المبارك في كتابه: « هذا كتاب جمعتُ فيه ألف قصيدة اخترتها من أشعار العرب، وجعلته عشرة أجزاء، وضمنت كل جزء فيها مئة قصيدة، وكتبت شرح بعض غريبها في جانب الأوراق، وأدخلت فيه قصائد المفضليات، وقصائد الأصمعي التي اختارها، ونقائض جرير والفرزدق، والقصائد التي ذكرها ابن سلام الجمحي في كتاب الطبقات، ولم

أخلاً بذكر أحد من شعراء الجاهلية والإسلاميين الذين يستشهد بشعرهم، إلا من لم أقف على مجموع شعره، ولم أره في خزائنه وقفاً ولا غيرها، وإنما كتبت لكل أحد ممن ذكرت أفصح ما قال وأجوده حتى لو سبر ذلك علي منتقد بعلم، عرف صدق ما قلت».

والحق أن عوادي الأيام قد عدت على هذا المجموع الفذ العظيم، فضاع مع أسفار المكتبة العربية التي ضاعت، ولم يبق إلا بعضه، وهذا الباقي هو الجزء الأول والجزء الثاني، وهما معروفان لكثيرين من المهتمين بالأدب القديم، ولا يزالان مخطوطين. ولكن الأقدار أتاحت للدكتور (بجيسى الجبوري) أن يعثر بجزأين آخرين هما: الثالث والخامس، بين مخطوطات مكتبة جامعة (بيل) بالولايات المتحدة الأمريكية. وهذان الجزآن هما اللذان أخرج منهما كتابه هذا الذي نتحدث عنه «قصائد جاهلية نادرة». وكان الدكتور الجبوري قد نشر، من خلال هذين الجزأين، شعر عمر بن لجا التيمسي، وأبي حية النميري، وعمرو بن شأس الأسدي، وهذبة بن خشرم العنزي، وعداش بن زهير العامري، والحارث بن خالد المخزومي. وقد ظهر من هذه الأشعار المنشورة ثلاثة في دمشق، هي شعر أبي حية النميري، وشعر هذبة بن خشرم العنزي، وطبعها في وزارة الثقافة في سنتي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ على التوالي. وشعر عداش بن زهير وظهر ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية عام ١٩٨٦ .

أما هذا الكتاب «قصائد جاهلية نادرة» فقد حوى شعر ستة عشر شاعراً مغموراً هم: عدي بن وداع، وحاجز بن عوف، وزهير بن مسعود الضبي، وعمرو بن براقه الهمداني، ومعفر بن حمار البارقي، وعبيد بن عبد العزى السلامي، وامرؤ القيس بن جبلة السكوني، وامرؤ القيس بن عمرو الحارث السكوني، وعبد الله بن ثور العامري، ومالك بن زرعة الباهلي، وأبو قردودة الطائي، وعامر بن جوين الطائي، وبشر بن عليق الطائي، ومحرز بن المكعب الضبي، وعبد الله بن سليم الأزدي، وأبو الطمحان القيني.

وهؤلاء الشعراء ليسوا جميع الشعراء الذين حوهم الجزآن الثالث والخامس، ففي الجزء الثالث وحده روى ابن ميمون لأربعة عشر شاعراً، ما مجموعه (١٥٠) قصيدة ومقطعتان وبيتان مفردان، عددها جميعاً (٦٨٢٨) بيتاً. أما الجزء الخامس ففيه قصائد لواحد وثمانين شاعراً عددها (١٧٨) قصيدة، أبياتها (٦٦٤٨) بيتاً.

والكتاب الذي تدارسه هنا هو (قصائد جاهلية « أو مخضرمة » نادرة) عددها (٢٣) قصيدة منسوبة إلى شعراء جاهليين (أو مخضرمين) قلما نعرف عنهم شيئاً. ولكن النصوص التي تختارها الدكتور الجبوري في كتابه هذا تؤكد أن لكل من هؤلاء الشعراء شخصية متميزة، فمنهم البطل المحارب، ومنهم الشاعر العاشق، ومنهم الصعلوك واللص، والشاعر القبلي الحريص على انتصار القبيلة والفخر بالأجداد والمآثر. وقد شرح صاحب هذا الكتاب الصادر في بيروت عام ١٤٠٢ / ١٩٨٢ منهجه في إخراجة فقال:

«حاولت أن أستشير مصادرنا عن هؤلاء الشعراء، فما جاء فيها غير إشارات يسيرة لا تغني شيئاً، لذلك كان الجهد منصباً على خدمة القصيدة نفسها، بأن قدمت إضاءة عن جو القصيدة ومحتواها، وشيئاً عن الشاعر إن وجد، وأكثر ما وجد من خلال القصيدة، وجعلت ذلك مدخلاً للقصيدة نفسها، ثم حققت النص وضبطته وصححته، ثم شرحت مفرداته اللغوية، وعينت المواضع التي يشير إليها الشاعر على قدر ما تسعف كتب البلدان، وأوضحت بعض المعاني الغامضة والإشارات إلى الوقائع والأيام، ثم ألحقت بقية شعر الشاعر إن وجدت له بقية في الكتب، ولم تنل هذه البقية أو التتمة مني عناية كبيرة، من حيث استقصاء الشعر وتخرجه، لأن هذا عمل ثانوي آخر، وإنما دونت ما وجدته أمامي في الطريق أثناء العناية بالقصيدة النادرة نفسها» (ص ٥).

ملاحظات واستدراكات:

ومن خلال شرط الباحث في كتابه هذا سنعالج، على عجل، عناية الناشر بخدمة القصيدة نفسها، كما ذكر في مقدمته، فمن المؤسف أن أخطاء كثيرة في الضبط، وأن أغلاطاً عروضية، قد شابت القصائد التي اختارها الدكتور الجبوري، ووصفها بـ «الجاهلية النادرة»، وتمثل على ذلك بما يلي:

١ - (ص ٨٧) جاء في قصيدة زهير بن مسعود الضبي هذا البيت بهذا الشكل:

(فأنهلُ دمعك في الرداءِ وهل يكي الكبيرُ الأشمطُ الرأسِ

وقد جعل الباحث همزة (أنهل) همزة قطع، وهي همزة وصل، لأن الفعل خماسي ماضٍ.

وتكرر ما يشبه هذا في مواضع أخرى من الكتاب (انظر مثلاً البيت ١٠ ص ١١٠، والبيت ٧ ص ١١٣، والبيت ٢٤ ص ١١٥، والبيت ٣٣ ص ١٢٣. الخ) وفيها جميعاً أغلاط في همزتي الوصل والقطع. وربما كان ذلك من أخطاء الطباعة، وعندئذ لا مواخذة .
- وفي الصفحة ذاتها (٨٧) ضبط المؤلف كلمة (ذُعْلِيَّة) في البيت الخامس بفتح الذال واللام . والصواب كسرهما، (ذُعْلِيَّة) (انظر القاموس المحيط « ذعلب »).
٢ - (ص ٩٤) ورد في صدر البيت (٢٥) «قولهم برّ» والصواب تشديد الراء ثم تنوينها.

٣ - (ص ١٠٠) جاء في صدر البيت الأول: « تقول سليمان لا تُعْرَضُ لتلفة». والصواب تَعْرَضُ، واصلها (تَعْرَضُ) وقد خُفِّت. وهي كذلك في رواية البيت في (الأغاني ٢١ / ١٧٥ والوحشيات ٣١) .

٤ - (ص ١١٢) جاء في قصيدة معمر بن حمار البارقي هذا البيت هكذا:

سراءت يوم نغسل بمُسْبِكِرُ
تَرْبِيَّةُ الدَّرِينِرةِ والنصيفُ

وقد شرح المحقق كلمة (تَرْبِيَّةُ) بِ (تربيته) . ولا ينسجم هذا الشرح مع معنى البيت. ولعل (تَرْبِيَّةُ) محرّفة عن (تَرْبِيَّةُ) .
٥ - (ص ١١٣) جاء هذا البيت بهذا الضبط:

على فيها إذا دَنَّتْ الثريا
دُنُو الدلو أسلمها الضعيفُ

وفيه التقى ساكنان في (دَنَّتْ الثريا) وهذا غير جائز في العربية.

٦ - (ص ١٢١) البيت (١٥) جاء صدره كما يلي :

«فجحن هُدُوًّا والثياب كأنها»

والصواب: «فجتن هدوا...». ولعل هذا خطأ مطبعي.

٧ - ص ١٢٢ البيت (٢٦) جاء كما يلي:

مخافة أن أقلَى إذا شئتُ سائلاً وترجعني نحو الرجال المطامعُ

ولا معنى للبيت بهذه الصورة وهذا الضبط، وخاصة إذا ضبطت كلمة (أقلَى) بفتح الهمزة، والصواب في اعتقادي: «مخافة أن أقلَى إذا جئتُ سائلاً» فالمرء قد يكره أو يقلَى إذا جاء سائلاً. وكلمة (جئت) تتناسب، من حيث المعنى، مع كلمة (ترجعني). والذي يبدو لي أنّ لمة تحريفاً في (شئت) حُرِّفَتْ فيها الجيم إلى شين.

٨ - ص ١٤٩ البيت الأول ورد كالتالي:

طَرَبْتُ وَعِثَاكَ الهوى والتطربُ وعادتكُ أحزانٌ تشوقُ وتنصبُ

وفتح تاء (تنصب) وكسر الصاد فيها غير سليم. والصواب أن تضبط بضم التاء وكسر الصاد (تنصب). وإن كان لا بدّ من فتح التاء، وجعل الفعل من الثلاثي (نصب)، فالواجب فتح الصاد لتصبح (تنصب)، فعين (نصب) مفتوحة في المضارع، وهي من باب (فَرِح - يَفْرَح). انظر القاموس المحيط (نصب).

هذا، وقد أحال الضبط الناقص والمغلوط إلى أخطاء في العروض، وإلى أبيات اختلفت أوزانها، ومن أمثلة ذلك ما جاء في الصفحات التالية:

٩ - ص ١٠٩ جاء البيت الثالث، من شعر معقر بن حمار البارقي، كما يلي:

تُهَيِّبُكَ الْأَسْفَارُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ رَدٍ لَا يُسَافِرُ

وفي صدر هذا البيت غلطان، وخلل عروضي. والصواب:

«تُهَيِّبُكَ الْأَسْفَارُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى» - وانظر (معجم الشعراء ص ٩).

١٠ - ص ١٨٧ البيت (٨) جاء مختلفاً عروضياً، بسبب توزيع شطره كما يلي:

ليالي نلهو بالشباب وتقي العيون ولا نفشي الحديث المكنما

والصواب أن يوزع شطراه كما يلي ليستقيم وزنه:

ليالي نلهو بالشباب وتقي العيون ولا نفشي الحديث المكنما

١١ - ص ١٨٩ البيت (٢٥) ضُبِطَ ضَبْطاً أَخْلَ بوزنه فقد جاء كما يلي:

وإننا صبخنا اليزنية منكم دماً ثم زويتنا الصفيح المصنما

وبتسكين الميم في (منكم). ينكسر البيت. والصواب أن نضمها (مِنكُمْ)، لتصبح عروض البحر الطويل (مفاعِلن)، لا (مفاعِل).

ومن الواضح أن الباحث يحيى الجبوري لم يستنفذ جهده في جمع شعر أي شاعر، من هؤلاء أصحاب (القوائد النادرة)، وهي نادرة لقلّة تداولها، وليس لقيمتها الفنيّة. ولكنه، والحق يقال، وضع للباحثين عتبة يعبرونها إلى بحوث أخرى في استقصاء أشد، وشمول أوفى. وتمثيلاً على ما سبق نجده يقول عن الشاعر امرئ القيس بن عمرو بن الحارث السكوني الكندي (ص ١٤٧): «المصدر الوحيد الذي ذكر هذا الشاعر هو المؤلف والمختلف للآمدي (ص ٦)، وساق له الآمدي خمسة أبيات أخرى من قصيدته البائية التي مطلعها:

طربت وعناك الهوى والتطربُ وعادتك أحزان تشوق وتغيبُ

في حين جاءت هذه القصيدة في (منتهى الطلب) في أربعة وثلاثين بيتاً، ولئن خدم (الجبوري) الباحثين في إثبات هذه القصيدة من المخطوطة التي بين يديه، إنه قصّر في ذكر ترجمة هذا الشاعر، وفي حصر مصادره في كتاب واحد هو (المؤلف والمختلف)، ولو فتحنا كتاب (معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، للدكتور عفيف عبد الرحمن) لوجدناه يسوق من مصادر هذا الشاعر ومراجعته عدا (منتهى الطلب):

١- المزهري للسيوطي ٢ / ٤٥٦، وأخبار المراقسة ٣٥٣ - ٣٥٤، وجمهرة النسب ٢ / ٣٥٥)
 انظر معجم الشعراء، لعبد الرحمن، بيروت، دار المناهل ١٩٩٦ ص ٢٨ - ٢٩).
 ومثمة ملاحظات أخرى تتصل بجمع شعر الشاعر، وبشرح بعض المفردات الغريبة،
 الذي لم يستوفه الباحث، نترك التفصيل فيها لاعتقادنا بأنه (يكفي من القلادة ما أحاط
 بالعنق) .

بيد أن ما تقدم لا يجعلنا نبخس هذا الكتاب حقه، فهو يطلعنا على كنوز قيمة من
 تراثنا الشعري القديم، ويكشف لنا عن بنى جديدة للقصيدة الجاهلية، ويوسع أفق نظرتنا إلى
 الشعر الجاهلي، ويفيدنا في ترسيخ بعض أحكامنا حول هذا الشعر، أو بالعكس، في نقض
 بعض الأحكام المتصلة به، أو في تعديلها، حين يعوزها شرط الشمول المتوخى في الدراسات
 الجامعية الجادة.

ويبقى الشعر الوارد في كتاب «قصائد جاهلية نادرة» وثيقة علمية وأدبية هامة. في
 مقدور المرء أن ينفذ من خلالها إلى جوانب شتى من حياة العرب قبل الإسلام، سواء كانت
 جوانب أدبية أو تاريخية أو اجتماعية أو حضارية، وفي إمكان الباحث أيضاً أن يفيد منها في
 الاستدراك على بعض ما نشر من أشعار تتصل بها، أو تتقاطع معها، وهذا ما فعلناه في
 دراستنا لأشعار العامرين الجاهليين فيما يلي هذا البحث.



أشعار العامريين الجاهليين

للدكتور عبد الكريم يعقوب

في القرنين الثاني والثالث للهجرة برز اتجاه قوي لجمع شعر القبائل، وتمثل هذا الاتجاه في جهود علماء كبار، أمثال أبي عمرو الشيباني (٢٣١ هـ)، ومحمد بن حبيب (٢٤٥ هـ)، وأبي سعيد السكري (٢٧٥ هـ). وقد ذكر الآمدي (٣٧٠ هـ) في (المؤتلف والمختلف) أسماء ستين قبيلة صُنِعَ لها أشعار، أو أُلِّفَ فيها كتب حوت أخبارها وأشعارها. وكذلك ذكر ابن النديم في كتابه (الفهرست) أسماء (٢٨) قبيلة صُنِعَتْ لها أشعار على يد السكري، ويزيد هذا العدد إلى نيف وثمانين قبيلة قام أبو عمرو الشيباني بجمع أشعارها. ولكن هذه الأشعار — مع الأسف — ضاعت ولم يصل إلينا منها سوى ديوان هُنْدَيْل، الذي صنّفه أبو سعيد السكري، وقد نشر مراراً كان آخرها في القاهرة في ثلاثة أجزاء ظهرت بين عامي ١٩٤٥ - ١٩٥٠.

وفي عصرنا هذا بُعِثَ هذا الاتجاه من جديد، فقد قام السيد (صلاح كزاره) بجمع أشعار تميم في العصر الجاهلي، ونشره في (ايرلانجن) بألمانيا عام ١٩٨٢. والكتاب رسالة علمية قدمت لإحدى الجامعات الألمانية. وقد جمع الباحث صلاح كزاره / ١٠٧٨ / بيتاً لـ / ٨٨ / شاعراً تميمياً جاهلياً، ممن ليس له ديوان. وكذلك قام السيد (عبد الحميد محمود المعيني) بجمع شعر بني معين في العصر الجاهلي وتحقيقه، وقد نشره في بريدة بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٨٢ (انظر نشرة أخبار التراث العربي الصادرة في الكويت عام ١٩٨٣ - العدد التاسع ص ٢٨). وحدثني الدكتور هاشم ياغي من الجامعة الأردنية بأنه تم تكليف عدد من طلاب الدراسات العليا في الأردن بجمع أشعار بعض القبائل ودراستها، لينالوا بهما درجات علمية عليا، وفعل نظير هذا طلبة سوريون كثر، فقاموا بجمع أشعار قبائل قديمة، وصنعوا منها أطروحات لنيل شهادة الدكتوراه، أمثال علي أبو زيد الذي جمع شعر تغلب،

وأحمد حالو الذي جمع شعر طيبي، ومحمد علي دقة الذي جمع شعر قبيلة أسد بن خزيمة، وشفيق بيطار الذي جمع شعر كلب.

والكتاب الذي تتناوله هنا (أشعار العامرين الجاهليين)، وقد نشره الدكتور عبدالكريم يعقوب، كُلف بما يماثله أحد طلبة الدراسات العليا في جامعة عين شمس بالقاهرة، وقد أنجز عمله ونال به درجة الماجستير، والطالب هو عز الدين أحمد البدوي النجار. وكان عنوان بحثه بالضبط «تحقيق ديوان عامر بن الطفيل العامري ودراسة شعره مع جمع لشعر العامرين» - (انظر نشرة أخبار التراث العربي في الكويت - آب ١٩٨٣ العدد ٨ ص ٢٥). وعمل الدكتور يعقوب هذا يُعدُّ شاهداً على الجهود المكررة التي كان بالإمكان ادخارها وتوفيرها لأعمال علمية أخرى، لو أن التواصل العربي الثقافي، والتبادل العلمي بين الأقطار العربية، والباحثين العرب، كان أوسع وأوثق وأعمق.

ونحن هنا نودُّ أن نعرض لهذا الكتاب الذي بين أيدينا لتُعرفَ به أولاً، ونُدلي برأينا فيه ثانياً. وفي كل ذلك يحدونا أمران: الأول أمل بأن يتسع صدر المؤلف لما نأتي به من ملاحظات، والثاني رغبة في أن يكون أيُّ عمل علمي في صورة قريبة من الكمال، هذا الكمال الذي يطمح إليه البشر ولا يبلغونه.

صدر هذا الكتاب عن دار الحوار باللذقية عام ١٩٨٢. وهو يحوي مجموعة من الأشعار لبني عامر. وعامر هذه قبيلة عظيمة عدّها بعض القدماء من جماجم العرب، أي من رؤوسهم وأسيادهم. والحق أن هذه القبيلة أنجبت كثيراً من الأشراف والسراة أمثال خالد بن جعفر الكلابي، ومعاوية بن مالك بن جعفر الكلابي، وعوف بن الأحوص، وعامر بن مالك، وكان من شعرائها الكبار في الجاهلية: لبيد بن ربيعة، وعامر بن الطفيل، والنابغة الجعدي، وتميم بن أبي بن مقبل، وحמיד بن ثور الهلالي. ولكل من هؤلاء الشعراء ديوان مطبوع، أو شعر مجموع.

ولكن هذه المجموعة لم تحوِ أيُّ بيتٍ من أبيات أولئك الذين ظهر شعرهم في ديوان مجموع، سواء كان صانعاً قديماً أو مُعاصراً، بل حوت أشعار الشعراء الذين ليس لهم ديوان. وقد جمع الباحث الدكتور (يعقوب) في هذا الكتاب، الذي بلغت صفحاته (١٤٤) صفحة،

(٤٥٠) بيتاً من الشعر والرجز، وكانت هذه الأشعار والأرجاز معزوةً إلى (٣٠) شاعراً عامرياً.

وإذا ما قارنا عدد أبيات هذه المجموعة، وعدد شعرائها، بأشعار تميم وشعرائها في الجاهلية التي جمعها د. صلاح كزاره، نجدهما قليلين جداً، وسنرى مصداق ذلك بعد قليل. وبالإجمال فإن ملاحظتنا على (أشعار العامرين الجاهليين) تتركز في النقاط التالية: أولاً - حوت هذه المجموعة شعراً لشعراء عامريين مخضرمين أمثال خدش بن زهير، وعامر بن مالك، وجبار بن سلمى، وهذا أمر يجعل من عنوانها عنواناً تعوزه الدقة، فالحق أنه يجب أن يضاف إلى كلمة (الجاهليين) الواردة في العنوان (والمخضرمين).

ثانياً - إن الدكتور يعقوب لم يراع في تصنيف شعراء المجموعة، الذين عرف بهم في صدر كتابه، أي أساس من أسس التصنيف أو التوبؤب، فقد عزف عن الترتيب الهجائي، فاعتقدنا أنه صنفهم حسب كثرة الشعر المجموع لكل شاعر من الشعراء المعنيين، ولكن الكثرة، أو القلة، لم تكن المبدأ المرعي أيضاً. وقد قمت بإحصاء شعر كل شاعر من شعراء المجموعة فوجدت أن خدش بن زهير هو أكثرهم شعراً، وقد جاء في الترتيب أولهم وهذا حسن. ولكني فوجئت بأن الباحث يذكر شريح بن الأحوص، قبل بغير بن عبد الله القشيري، وللأول (١٤) بيتاً، وللثاني (١٦) بيتاً، ثم ينقلنا مباشرة إلى عبد الله بن جعدة وله (١٢) بيتاً، ليسوق بعده أشعار عروة الرحال، وله خمسة أبيات، ويعقبه بقحافة بن عوف بن الأحوص، وله (١٦) بيتاً من الشعر والرجز، وهكذا...

ثالثاً - ثمة نقص خطير في هذه المجموعة يجعلها بعيدة عن تمثيل شاعرية قبيلة عامر، ففي شعر خدش بن زهير مثلاً، وتحت رقم (٦)، نجد الدكتور يعقوب يسوق (١٦) بيتاً، ثم يأتي بالقطعة رقم (٧)، وهي لخدش أيضاً، وأبياتها خمسة أبيات، والقطعتان المقطعتان هما قصيدة واحدة مثبتة في الجزء الخامس من (منتهى الطلب) لمحمد بن المبارك بن ميمون البغدادي، وقد أشار إلى ذلك الدكتور يحيى الجبوري في كتابه «قصائد جاهلية نادرة» (بيروت ١٩٨٢ ص ٣٢). وإذا كان د. يعقوب قد جمع من هذه القصيدة (٢١) بيتاً في

قطعتين، فإن صاحب (منتهى الطلب) جعلها في (٤٧) بيتاً، وبذا تنقص هذه القصيدة - (٢٦) بيتاً عن الأصل المثلث في منتهى الطلب.

ولا شك أن د. يعقوب معذور لهذا، فهو لم يطلع - كما يبدو - على الجزء الخامس من (منتهى الطلب)، ولا عَجَبَ من أنه لم يطلع على كتاب د. يحيى الجبوري المذكور آنفاً، فقد صدرت مجموعته وكتاب الجبوري في سنة واحدة.

ولكن الباحث يعقوب وقع على ما يفيد به بأن القطعتين (٦ و ٧) هما قصيدة واحدة، في مصدر من مصادره، هو المقاصد النحوية للعيبي (٢ / ٣٧١)، فهو يقول في حاشيته رقم ٢ ص ٢٧: « جعل العيبي الأبيات الأربعة الأولى مطلعاً للقصيدة السابقة، رقم (٦)، والأصح أن هذه الأبيات الخمسة قطعة أخرى غير السابقة، لأنها نقيض تام معها، وإن اتفقتا في الوزن والقافية ». وحبذا لو لم يخطئ الباحث العيبي، لأن ما قاله العيبي هو الصواب بعينه.

وكذلك في شعر خدش بن زهير نقص آخر في القطعة رقم (١٣)، فهي في المجموعة التي نحن بصددتها (٦) أبيات، في حين يسوقها محمد بن المبارك بن ميمون على أنها (٣٤) بيتاً (انظر قصائد جاهلية نادرة ص ٣٢)، وبذا يفوتنا (٢٨) بيتاً من هذه القصيدة، وكان قد فاتنا في ما سبق - (في القطعتين ٦ و ٧) (٢٦) بيتاً، فيصير المجموع (٥٤) بيتاً، خلا عنها بمجموع شعر خدش بن زهير وحده في هذه المجموعة.

وكتبنا هذا قبل أن يظهر شعر خدش بن زهير في كتاب مستقل . أما وقد أصدر مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٦ (شعر خدش) بتحقيق الدكتور (يحيى الجبوري) . فإننا رأينا أن تقارن بين صنيع الدكتور (يعقوب) وصنيع الدكتور (الجبوري)، ففعلنا ، فوجدنا أن شعر هذا الشاعر يزيد عند الأخير عنه عند الأول (٧٦) بيتاً ، فهو عند (الجبوري) (٢٧٥) بيتاً ، وعند (يعقوب) (١٩٩) بيتاً .

وفي وسعنا الآن أن نستدرك على ذنبك العملين ، فنضيف أربعة أبيات لخدش بن زهير ، خلا عنها العملان ، وهي في (قصيدة الدامغة) للهمداني (ص ٦٠٢) وأول هذه الأبيات المكتظة بالتحريف والتصحيف :

دَعْوَةٌ إِلَيْهِ عَصَبَةٌ عَامِرِيَّةٌ حِسَانُ الْوَجْهِ يَلْبَسُونَ السَّنُورَا

ولا ندرى إذا كانت الأبيات الأربعة في (قصيدة الدامغة) بين أشعار خدش بن زهير التي جمعها الدكتور (رضوان محمد حسين النجار) ونشرها في مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية (بالرياض - ع ١٣-١٤ لعام ١٤٠٣/١٤٠٤ هـ) لأننا لم نتسكن من الاطلاع عليها .

وإذا ما تركنا شعر خدش وانتقلنا إلى شعر عوف بن الأحوص، فإننا نستطيع أن نضيف إليه من (لسان العرب) بيتاً لم يرد في المجموعة، فقد قال عوف في مادة (عمرد):

وَلَثَرَتْ بِهِمْ قَتْلَى حَيْفَةً إِذْ أَبَتْ بِسَوْتِهِمْ إِلَّا النَّجَاءَ الْعَمْرَدَا

وقد أخلت (أشعار العامريين الجاهليين) بأبيات أخرى لشعراء آخرين، فسي وسعنا أن نضيف، ونحن على غير مهل من أمرنا، ستة أبيات إلى الأبيات الـ (٢٢) المعزوة إلى أبي براء عامر بن مالك، خمسة منها وردت في كتاب الشمشاطي (الأنوار ومحاسن الأشعار) (تحقيق د. السيد محمد يوسف، الكويت ١٩٧٧ ج ١ ص ١٨٩) قالها أبو براء إثر هزيمته أمام قُرْطُ بن السفيح بن السفاح في يوم الأئلب، وهي:

لعمرك ما طَعَنُ الرَّيْسِ بِلِدْعَةٍ	خلال الوغى ذا مجدّة من هوازن
سموتُ إلى الخيل المغيرة صبحاً	فعارضني قُرْطُ بِاسْمِ مَارِنِ
فجاشت به نفسي وللمرء نبوة	فكنتُ كضرعامٍ خضيبِ البرائِنِ
بنا عطفُهُ عن قريبٍ حيث لم يجدْ	مصيداً بجاشٍ في العجاجة ساكنِ
فإن ألقَ قُرْطاً أجيزه حَذُو نعلِهِ	بواءٍ، وما قرطٌ لتلك بآمنِ

ولعامر بن مالك أيضاً بيت في (المستقصى من أمثال العرب) للزخشرى (بيروت ١٩٧٧ ط ٢ ج ١ ص ٢٥٨) ليس في المجموعة، وفيه يخاطب قيس بن زهير، والبيت:

وما أم أدراس بأرضٍ مضَلَّةٍ بأغدرٍ من قيسٍ إذا الليلُ أظلما

ولشريح بن الأحوص سبعة أبيات في مخطوطة (الأنس والعرس)، للآبي، المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس (ورقة ١٤٩ ب) لم ترد في مجموع أشعار العامرين، والأبيات السبعة هي:

تَبِعَ ابْنَ عَمِّ الصَّدْفِيِّ حَيْثُ وَجَدْتُهُ	فَإِنَّ ابْنَ عَمِّ السُّوءِ أَوْعَرَ جَانِبُهُ
تَبَيْتُهُ حَتَّى إِذَا مَا وَجَدْتُهُ	أَرَانِي نَهَارَ الْقَيْظِ تَجْرِي كَوَاكِبُهُ
فَإِنِ أَنَا عَمَةٌ لَا تَدْعُنِي إِذَا تَعَتْ	وَتَدُّبُ إِلَى حَيْثُ كَانَتْ عَقَارِبُهُ
شَجِيٌّ تَابِعًا فِي الْخَلْقِ لَيْسَ بِبَارِحٍ	وَلَيْسَ بِمَنْزُوعٍ، وَإِنْ مَاتَ صَاحِبُهُ
أَنَا إِذَا اسْتَعْنَيْتُمْ، فَعَدُّوكُمْ	وَأَدْعَى إِذَا مَا لَدَهْرٌ نَابَتْ نَوَائِبُهُ
مِنْ النَّاسِ، مَنْ يَفْتَشِي الْأَبَاعَةَ نَفْعُهُ	وَيَشْفِي بِوَحْشِي الْمَمَاتِ أَقَارِبُهُ
فَإِنَّ يَكُ خَيْرًا فَالْبَعِيدُ يَنَالُهُ	وَإِنْ يَكُ شَرًّا، فَابْنُ عَمِّكَ صَاحِبُهُ

٤ - إن عدد الشعراء، وهو (٣٠) شاعراً، يثير شكاً عريضاً في أن يكون هذا هو العدد الكامل لشعراء عامر في الجاهلية وصدر الإسلام، وأستظهر على ما أقول بأنني قد جمعت من أسماء شعراء قبيلة واحدة، تضارع قبيلة (عامر) في الجاهلية، ما يربو على هذا العدد، من خلال ثلاثة مصادر أساسية فقط، وأن شعراء قبيلة أسد بن خزيمه، وكذلك شعراء قبيلة تغلب، وقبيلة طيء يربو كل منهم على خمسين شاعراً. وما يؤكد أن شعراء جاهليين عامرين سقطوا من مكانهم اللائق في هذه المجموعة - غياب اسم الشاعر الشجاع (عمرو بن حذار) هذا الذي ذكره المرزباني في (معجم الشعراء) (تحقيق فراج، القاهرة ١٩٦٠ ص ٣٧ - ٣٨) فقال:

«عمرو بن حذار من بني وائلة بن صعصعة ويكنى أبا أبي، ويدعى ذا العنق، وكان شجاعاً، وهو الذي قتل بشر بن أبي خازم الأسدي، وكان عمرو مع عامر بن الطفيل في يوم الرقم، وأغارت بنو عامر على بلاد غطفان فقال عمرو لفرسه، وأبلى يومئذٍ بلاءً حسناً:

محمود شاكر، وهذه الطبعة وقع التنصّل منها من قبل المحقق في مقدمة الطبعة الثانية، حيث يقول شاكر: «فأنا لا أحلُّ لأحد من أهل العلم أن يعتمد بعد اليوم على الطبعة الأولى من طبقات فحول الشعراء مخافة أن يقع بي في زلل لا أرضاه له، وأضرع إلى كل من نقل عن هذه الطبعة شيئاً في كتاب، سواء كان قد نسبه إلي أم لم ينسبه، أن يراجعه على هذه الطبعة الجديدة من الطبقات، لينفي عن نفسه وعمله العيب الذي احتملت أنا وحدي وزره» - (انظر مقدمة الطبعة الثانية لطبقات فحول الشعراء، القاهرة ١٩٧٤، ص ٧٠)، ولما كان الدكتور يعقوب من أهل العلم، وجب أن تكون إحالاته إلى الطبعة الثانية من الكتاب المذكور.

أخيراً إن هذه الملاحظات تبقى أقلّ وأضالّ من الجهد المشكور الذي بذله الدكتور يعقوب في جمعه وتخريجه لهذه الأشعار، التي لولاه لما صارت في حوزتنا، بعد أن كانت مشتتة ومبعثرة هنا وهناك.



شاعرية المتنبي في نقد القرن الرابع للهجرة

لمحي الدين صبحي

يأتي كتاب «شاعرية المتنبي في نقد القرن الرابع للهجرة» للناقد المعروف محي الدين صبحي، الصادر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق عام ١٩٨٣، بعد مجموعة من الكتب النقدية للمؤلف نفسه، أسهمت إسهاماً طيباً في حركة التأليف في النقد الأدبي المعاصر، بدءاً من كتاب «نزار قباني شاعراً وإنساناً»، ومروراً بـ «الأدب والموقف القومي» و«مطارحات في فن القول» و «الكون الشعري عند نزار قباني» و «البطل في مأزق» و«دراسات كلاسيكية في الأدب العربي» و «دراسات». بالإضافة إلى ترجمات مفيدة للنقد الإنكليزي كان أبرزها: نظرية الأدب، لرينيه ويليك واوستن واوين، ومقالة في النقد، لغراهام هو، والنقد الأدبي - تاريخ موجز، لويمزات وبروكس... الخ.

أما كتاب (صبحي) هذا، فهو من طراز آخر، إنه - كما يفهم من المقدمة - دراسة أكاديمية أعدت لنيل درجة الماجستير، بإشراف الدكتور محمد يوسف نجم.

وفي هذه الدراسة نجد الكاتب يجول في بحر قرن زمني، من إنتاج الفكر النقدي العربي التراثي، المنصب على شاعر بعينه، ليستكشف، من خلاله، نظرية شعرية، فارسها علي بن عبد العزيز الجرجاني - صاحب كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه».

بيد أن الكاتب، وإن تخير كتاب «الوساطة» ليشكل محور البحث في رسالته، فقد رجع إلى مجموعة من الكتب النقدية التي تمثل ممهّدات لانبعاث كتاب «الوساطة»، لذا فهو يقسم دراسته إلى تمهيد، وكتب ثلاثة (أو أبواب ثلاثة)، وخاتمة.

وفي الباب الأول يعالج محي الدين صبحي ما قيل في المتنبي في ثلاثة مصادر نقدية، هي: «الرسالة الموضحة في سرقات أبي الطيب وساقط شعره» للحائمي (٣٨٨ هـ)، و«الكشف عن مساوئ شعر المتنبي» للصاحب بن عباد (٣٨٥ هـ)، و«المنصف للسارق

والمسروق منه في إظهار سرقات المتنبي « لابن وكيع التنيسي (٣٩٣ هـ). ثم يقارن في الفصل الرابع من هذا الباب بين الموضحة، والمنصف.

أما الكتاب الثاني، فمحموره القيم النقدية في كتاب الوساطة، ويتحدث فصله الأول عن مقاييس الشعر الرديء عند الجرجاني، وفصله الثاني عن السرقة عند الجرجاني، والثالث عن مقاييس الشعر الجيد.

وكان الكتاب الثالث والأخير موقوفاً على شاعرية المتنبي في الوساطة، وفصوله

الثلاثة هي:

١ - المتنبي في شعره الرديء، ٢ - المتنبي في شعره الجيد، ٣ - الموازنة بين المتنبي وفحول المحدثين. وينتهي الباحث دراسته بخاتمة عنوانها: مقارنات في الممارسة النقدية. وتنطوي هذه الخاتمة على المقارنة بين « الوساطة » وكل من « الموضحة » و « الكشف » و « المنصف ».

وقد كان أبرز ما توصل إليه الباحث في حديثه عن رسالة الخاتمي أن صاحبها الذي حاور المتنبي في أربعة مجالس وجهاً لوجه، كان مدفوعاً بنيتةً مُبَيَّنةً للغرض من شاعرية أبي الطيب، والانتقاص منها، كما أنه وقع في تناقض صارخ وتحامل واضح، فحينما يكشف المتنبي لخصمه الخاتمي عن إساءة أبي تمام يرد الخاتمي بأن الحسنات تشفع للسيئات، وهذا مبدأ كان ينكره هذا الخصم على أبي الطيب...!

أما في رسالة صاحب بن عباد، وهي موجهة إلى أحد مشايخي المتنبي، فيظهر النقد الانطباعي الذوقي الذي كان (الصاحب) يعوّل عليه، كما يبدو أن الحافظ لتأليف هذه الرسالة كان الحقد الشخصي.

ومن هنا فالدارس (صباحي) يوافق الناقد محمد مندور، الذي قال عن هذه الرسالة: « جزئية في البحث والنظر، لأن هم الأديب كان التقاط السيئات»، ويعارض بدوي طبانة في إشادته برسالة الصاحب، لأن هذه الإشادة كانت ناجمة عن موقف مسبق، آل إلى الالتزام بتبني الشخص الذي يترجم له طبانة، والتجاوز عن أخطائه، وهذا ما فعله بدوي طبانة الذي ألف كتاباً عن سيرة الصاحب.

وكان عيب (المنصف) لابن وكيع يكمن في استهتاره بمبادئ المنهجية العلمية، وفي أن كتابه الآنف الذكر أُلّف بإيعاز من خصوم المتنبي في مصر، لذا سوَّغ ابن وكيع لنفسه أن ينتقل من الشعر إلى صاحبه، فيشدد النكير على المتنبي، فيجيء نقده له مكافئاً لهجاء المتنبي لكافور الأخشيد في شعره.

ويسلم الحديث عن عيوب تلك الكتب إلى الكلام على القيم النقدية في كتاب الوساطة، وهو عنوان الكتاب الثاني من هذه الدراسة. وقد كان من أبرز تلك القيم الحديث عن الناقد الرديء الذي يتصف بالتعصب أو التحامل، أو بالمعالجة القاصرة للشعر، بوصفه بنية من الألفاظ والمعاني، بينها نسب ينبغي تحرّيه... ومن المبادئ النقدية في الوساطة التسامح في التفاوت في شعر الشاعر، والدعوة إلى فهم التعقيد والتكلف على أساس نسبي.

وفي الفصل الثاني من هذا الباب، وهو السَّرَق عند الجرجاني يستتبط الدراس (صبحي) أن الجرجاني تصور السَّرَق على أساس أن الإبداع الفني أتباعي في أساسه، والابتكار الخالص أمر شبه مستحيل...

ومن هنا كان الجرجاني يحاصر الشعراء باتهامهم « بالنقل والقلب والزيادة والتأكيد والتعويض والتصريح والاحتجاج والتعليل » وذلك لأن القديما استغرقوا المعاني... أما مقاييس الشعر الجيد في الوساطة فتتنظمها فكرتان، الفكرة الأولى تقسم إلى قسمين هما:

١ - تكوين الشاعر. ٢ - صناعة الشعر.

وتكوين الشاعر عند الجرجاني قوامه الموهبة أولاً، والثقافة ثانياً. والموهبة عنصران: الطبع والذكاء. فالطبع هو الذي يلهم الشاعر سلامة اللفظ وسلاسة الأسلوب، وهو مجسّد في إبداع البحري، ومعياره هزة الطرب التي يحدثها عند المتلقي. وأثر عفوية الشعر، في النهاية، أعمق في نفس القارئ من أثر الشعر المصنوع المتكلف، في نظر صاحب الوساطة، ومن ثم يأتي دور الرواية والدربة والبيئة الثقافية والتطور الحضاري. ومن جماع الطبع والصنعة يأتي « النمط الأوسط » الذي يلاحظه الجرجاني في شعر عصره.

والفكرة الثانية في مقاييس الشعر الجيد هي صناعة الشعر، وقد عبر عنها العرب بعبارة «عمود الشعر»، وهو ما خلص إليه التراث العربي في النقد حتى زمن الجرجاني. والحق أن «عمود الشعر» هو أساس التفاضل بين الشعراء. يقول الجرجاني: «كانت العرب تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبهه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته... ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة، إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض.»

وفي هذه العبارات تكمن النظرية الشعرية التي ربما كان أبرز ما يميزها بعدها التام عن كتاب أرسطو في الشعرية.

ويعضي الدارس في شرح عناصر هذه النظرية الشعرية فيقسمها إلى:

أ - عناصر تكوينية: وتشمل شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته.

ب - عناصر جمالية: وتشمل الإصابة في الوصف، والمقاربة في التشبيه.

ج - عناصر إنتاجية: وتشمل البديهة الغزيرة وكثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة، والفراة.

كما يلاحظ أن الشعر العربي آنفد قد تأثر بالبديع والاستعارة اللذين كان ابن المعتز (٢٩٦ هـ) - فيما يُظنُّ - أول من أشار إليهما في كتابه البديع الذي ألفه عام (٢٧٤ هـ). وهذا ما لم يُؤيِّه الدارس الاهتمام اللازم، بل وجدناه بعد أن يقول: «الجرجاني ينيه على أن هذه العناصر ليست من صميم الشعر، بل هي حيلة خارجية تفيد الأبيات شيئاً من «الغرابة والحسن» على أنه ألحقها بعمود الشعر لشيوع استعمالها»، يقول: «وفي وسعنا نحن بعد ألف عام أن نقدّر واقعية الجرجاني وصحة حدسه، إذ قدّر لهذه العناصر أن تسيطر على الشعر بعده.»

والحق أن الجرجاني مسبوق بمحاولات أخرى أسهمت في فتح الأبواب أمام «البديع» وترويض النفوس لإساغته وقبوله، بدليل وجوده قبل القرن الثالث في الشعر الجاهلي

والإسلامي، وفي القرآن. بيد أن هذا الوجود لم يكن يمثل الكثافة والغزارة اللتين أتى بهما شعر القرن الثالث، وخاصة شعر أبي تمام وأضرابه.

والمهم أن غاية هذا الباب كانت استنباط العناصر الأساسية في نظرية الجرجاني النقدية، لتكون هذه العناصر مقدمة لازمة لما يليها من حديث عن شاعرية المتنبي، التي كانت عنواناً للباب الثالث من الدراسة، وعنواناً للكتاب بأسره في الوقت نفسه.

والمبادئ الأساسية التي طبّقها الجرجاني على المتنبي خمس، هي:
أولاً: مقايسة المتنبي بشعراء عصره المحدثين « فهو مثلاً كان يجمع بين الطبع والصنعة، وفي صدر شعره الأول احتذى أبا تمام، وفي صدر شعره الثاني أشبه مُسلمَ بن الوليد».

وثانياً: الإقرار بالعيب الذي يحويه الحسن « لك بكل سيئة عشر حسنات، وبكل نقيصة عشر فضائل ».

وثالثاً: الدفاع حتى عما يعتبر عيباً، لأنه قد لا يكون ساقطاً كله.

ورابعاً: الاحتكام إلى كثرة الحسنات التي ترفع شعر الشاعر.

وخامساً: ربط الأحكام بالأمثلة.

وفي الفصل الأول، من الباب الثالث هذا، يتحدث الباحث صبحي عن المتنبي في شعره الرديء، وكيفية دفاعه عن هذا الشعر. وينتقل في الفصل الثاني إلى المتنبي في شعره الجيد. وعناصر هذا الشعر - كما مرت سابقاً - هي الطبع والرواية والدرية... وقد حوى هذا الفصل كلاماً آخر عن المتنبي وشكل القصيدة، والمتنبي وعمود الشعر، وسرقات المتنبي. وفيه أيضاً عالج الباحث العناصر التكوينية والعناصر الجمالية والعناصر الإنتاجية في شعر أبي الطيب، وهي العناصر التي جعلها الجرجاني أسس التقييم والحكم على الشاعر، وكان صبحي قد استخلصها في الكتاب الثاني ليطبّقها على شعر المتنبي. وقد خلص في النهاية إلى أن طريقة أبي الطيب جارية على مناهج الشعراء العرب في التعبير والتخييل والتفكير، وأن الإضافات التي أضافها بشعره إلى التراث تجعل منه شاعراً مبتكراً لا يعتمد على غيره، بل إن أصلاته

تظهر، على السواء، في تطوير معاني الأسبقين، وفي إبداع معانٍ وأخيلة جديدة. وفي هذا ردّ على ابن وكيع التنيسي والحائمي (انظر ص ١٨٩).

وكان الفصل الثالث من الباب الثالث موقوفاً على المقارنة بين المتنبي وفحول المحدثين. وفيه وقعت مقارنة بين المتنبي وأبي تمام، لأن اعتماد المتنبي على أبي تمام كان أشدّ التهم شيوعاً وأكثرها تبعاً من النقاد، فأورد الجرجاني (٢٥٠) بيتاً للمقارنة، وقد حكم الجرجاني بأن المتنبي قصّر عن أبي تمام في أربعة مواضع، وفضله في عشرين بيتاً. وأما ما لم يعلق عليه فيحمل على باب التناسب والمساواة. وقد وقعت المقارنة أيضاً بين المتنبي والبحرّي، فأورد الجرجاني حوالي سبعين بيتاً يسلم للبحرّي بالفوق في موضعين منها، وللمتنبي بأربعة عشر موضعاً. وما بقي فيحمل على التناسب والمساواة. ويقارن الجرجاني بين المتنبي وأبي نواس، والمنتبي وابن الرومي، والمنتبي وابن المعتز... الخ.

وختمت الرسالة، كالعادة، بالخاتمة التي وازن فيها محي الدين صبحي بين الوساطة وكل من « الموضحة » و « الكشف » و « المصنف »، فوجد أن النية السوداء، في كل من هذه الكتب، لإسقاط الشاعر، والغض من قدره، واضحة جداً. وآية ذلك تجاهل النواحي الإيجابية في شعر أبي الطيب، واستخدام مقياسين للحالة الواحدة، بحيث أن ما جُوِّزَ لأبي نواس وأبي تمام من سقطات مثلاً لم يُجوزَ للمتنبي، كما أن هذه الكتب الثلاثة، على عكس (الوساطة)، حُبِّرتْ بفعل دافع غير أدبي وغير نزيه، وهي أبعد ما تكون، في أحكامها، عن التحرر والموضوعية والمنهجية السليمة. وهذا كله كشف عنه الناقد الرصين والنزيه قاضي القضاة زعيم المعتزلة في عصره: علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة (٣٩٢ هـ).

ويجدد أن نسجل أخيراً أن الجرجاني في ردوده على خصومه الثلاثة، الحائمي والصاحب وابن وكيع، دافع عن شاعره أبي الطيب دفاعاً حميداً، «فأظهر سلامة لغة المتنبي، وصحة مذهبه في القول الشعري، وجريه على عادة العرب في الضرورات. ووجد شعر صاحبه يفوق شعر أبي تمام، لأنه أقل تكلفاً منه، ويجاري البحرّي في جودة اللفظ، ويبيذه في تركيز المعنى، ويوازي كل ما هو جيد فيما قالته العرب ويطوره، ويعلو بما يمتاز به من فريدة

تشهد لصاحبها بالغرارة في البديهة والقدرة على التصرف في فنون الشعر جميعها، بما يتماشى مع مبادئ عمود الشعر وإضافات المحدثين إليه» (شاعرية المتنبي ص ٢٣٢).
 أما بعد، فقد كان من شأن هذه الدراسة حول المتنبي أمران اثنان، أولهما: تأكيد ثراء شاعرية أبي الطيب الذي أثار ضجة نقدية كبيرة أقامت الدنيا في عصره، ولم تقعد لها من بعده. وثانيهما: قدرة البحث الحديث على استنتاج الأسس والمبادئ التي تحكم الممارسة النقدية القديمة، من خلال منهج علمي سليم استمر يتصاعد دونما انكسار من أول صفحة في الرسالة حتى آخر صفحة فيها. ولا جرم، فكاتب الرسالة ذو باع طويل في الكتابة والبحث والممارسة النقدية، والمشرف عليها أستاذ جامعي مشهود له بسعة الاطلاع ودقة المنهج والخبرة في التراث والمعاصرة، على حد سواء.

ولكن « الحسنة لا تعدم ذاما »، وليس ما يلي من نقاش إلا جزءاً من نظرات تسلط على كل البحوث عادة، وهو ليس ملزماً بالضرورة. وسنلخص آراءنا في هذه الدراسة في النقاط التالية:

أولاً: كانت مصادر هذا البحث (٣٤) مصدراً ومرجعاً، وهي من حيث الكيف ذات صلة بالبحث لا تناقض. ولكنها، من حيث الكم، تشكو من القلة. فمن المعروف أن كثرة المصادر تغني البحث وتثريه بالنظرات المختلفة وتدعم حجج الدراس وتؤيد براهينه، ومن هنا فنحن نرى أن ثمة نقصاً فيها ؛ ندلل على هذا النقص بغياب مرجع هام جداً، كانت العودة إليه ضرورة، وهو « رائد الدراسة عن المتنبي » الذي صنفه كوركيس عواد وميخائيل عواد، وهو مطبوع في بغداد عام ١٩٧٩.

وفيما يتعلق بالمصادر أيضاً وجدنا الباحث لم يعتمد أفضل الطباعات للكتب التراثية التي كان يؤول إليها، فهو يشير إلى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة بتحقيق (دي غويجي) المطبوع في ليدن عام ١٩٠٤، في حين أنّ طبعة أحمد محمد شاكر الثانية للكتاب في القاهرة عام ١٩٦٦ أكثر دقة وإتقاناً وكمالاً. لذا كان من المستحسن العودة إليها، وصرف النظر عن طبعة دي غويجي، لأن طبعة (شاكر) هي المصدر الأوثق للباحثين في التراث.

ثانياً: إن تقسيم الكتاب إلى كثير من الأبواب والفصول والعناوين والفقرات كشف عن ولع شديد في التويب والتقسيم والتفريع، حتى إن الباحث جعل من ثلاث صفحات هي الصفحات (٥٣، ٥٤، ٥٥) فصلاً مستقلاً تحدث فيه عن مؤلف كتاب المنصف - ابن وكيع التنيسي وكتابه. وكان الأجلر بهذه الصفحات الثلاث أن تكون تمهيداً، أو مقدمة للحديث عن الكتاب، وليست فصلاً مستقلاً.

والحق أن الباحث محي الدين صبحي رجوع عن هذا في الباب الثاني من رسالته، فجعل من الحديث عن الجرجاني والوساطة، الذي امتد ثمانى صفحات، مقدمة للحديث عن كتاب الوساطة بعمق واتساع.

هذا أمر، والأمر الآخر هو أن ترقيم الكاتب للأفكار الرئيسية والفرعية اعتوره بعض الاضطراب، بحيث صار من الصعوبة بمكان أن تبين بدقة عودة أرقام الفقرات الصغيرة إلى الأفكار الكبرى التي تفرعت عنها (انظر مثلاً الصفحات ١٢١، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨... الخ).

وإنصافاً للكاتب نقول: إن تبعة هذه الامور قد لا تقع عليه، بل على مصحح الكتاب ومدققه، إن لم يكن المؤلف هو المصحح والمدقق نفسه.

ثالثاً: والحق أن التصحيح - وهذا أمر ثالث - كان من السوء بحيث أنك لا تكاد تقرأ صفحة من هذا الكتاب، إلا وتقع فيها على خطأ أو خطأين مطبعيين ! وقد أخلت بعض الأخطاء، أو لنقل السقط، الذي ربما لم يلاحظه المصحح، بالمعنى ؛ فهل يمكن أن تفهم مثلاً مثل هذه العبارات من الصفحة (٣٨) « وصورة البحري في « الموضحة » مع شبيهة بصورته في « الوساطة »، فالخاتمي يشهد له بحسن الأخذ، وحسن التخلص وجودة الوصف » ؟ لا شك أن كلمة أو كلمات سقطت من هذا المقيوس، فأفسدت معناه وجعلته ملتبساً بل مستغلقاً.

رابعاً: ومن المسائل الفنية في إخراج الكتاب جمع حواشي الفصل الواحد في صفحة أو صفحات متتالية، وترك المتن وحيداً في الصفحة دون حواشيه، وهذا، في الحقيقة، أمر وارد في الطباعة، ولكنه يُتعب القارئ ويزعجه.

ورغم كل ما تقدم فإن هذه الدراسة تمثل إضافة طيبة للمكتبة العربية بعامة، وللمكتبة النقدية بخاصة، وللمكتبة المتنبي على نحو أخص، والجهد فيها، رغم كل شيء، خليق بالثناء العطر، والإشادة المعتبرة.

فن الشعر لأرسطو وأثره في البلاغة والنقد العربيين

دراسة للدكتور شكري عياد

بين أيدينا اليوم ترجمتان من كتاب (الشعر) لأرسطو ، الأولى ترجمة ترائية، والأخرى معاصرة. أمّا الترجمة الترائية، فقد قام بها (أبو بشر متى بن يونس) المتوفى سنة (٣٢٨ هـ)، نقلاً عن لغة وسيطة هي اللغة السريانية. وقد عُرف السريان بحرفيتهم في نقولهم عن اليونانية. وهذا ما يكشف عنه نص الترجمة الذي حققه الدكتور (شكري عياد)، ونشره، مع دراسة لتأثيره في البلاغة العربية، في القاهرة عام ١٩٦٧، حائزاً به درجة الدكتوراه.

والنشرة الحديثة لكتاب الشعر لأرسطو قام بها الدكتور (عبد الرحمن بدوي) عن اليونانية مباشرة، وقد طبعت الترجمة في بيروت عام ١٩٧٣. وترجمة (د. بدوي) تشير إلى أن ثمة نقصاً، أو غموضاً، أو تصرفاً، اعترى ترجمة (الشعر) قديماً.

وحديثنا الآن يتركز حول البحث الذي أنشأه الدكتور (شكري عياد) عن أثر هذا الكتاب في نقدنا وبلاغتنا العربيين، وذلك بعد أن بذل جهداً طيباً في تحقيق ترجمة متى بن يونس، ليقوم على أساسها دراسته.

وقد أسلمه بمحبه التاريخي، ذو الصلة بالأدب المقارن، إلى أن البيئة العربية تمثلت كتاب الشعر على درجات ثلاث، أولاها: الترجمة. ويليهما: التلخيص والتفسير. ويليهما: التأثر والاقتراب لبعض الآراء. ثمّ العمل الأول في بيعة المترجمين السريان، والعمل الثاني في بيعة الفلاسفة. والعمل الثالث كان في بيعة البلاغيين والبلغاء.

وقد انتهى الباحث إلى أن (متى بن يونس) ترجم كتاب الشعر في حوالي السنة ٣٢٠ هـ. ومن المعلوم أن أربعة من الفلاسفة العرب المسلمين لخصوا كتاب الشعر لأرسطو، دون تقييد حرفي منهم بنص الكتاب. وهؤلاء الفلاسفة هم، حسب تعاقبهم الزمني: (الكندي) و (الفارابي) و(ابن سينا) و(ابن رشد). وقد بقي من هذه الملخصات شذرات من تلخيص

الفارابي، ومن التلخيصين الأخيرين، وفقد تلخيص الكندي. والشذرات التي أشرت عن الفارابي (٣٣٩ هـ) ليست بذات بال، ولا تشكّل قواماً لدراسة كيفية فهم هذا الفيلسوف لكتاب أرسطو في الشعر.

أما ابن سينا (٤٢٨ هـ) فقد أجمل الدكتور (شكري عياد) تصويره للعمل الشعري، بعد أن درس الأفكار الواردة في تلخيصه بالتفصيل، فقال: «إن ابن سينا قد تصور العمل الشعري على أنه شيء يكون في صورة المعاني لا في مادتها، وتصور غرضه في أنه إثارة انفعال، وتصور القطعة منه على أنها كُـلُّ متكامل، ولكنه مركب متشابك الأجزاء» (كتاب أرسطو فن الشعر وأثره في البلاغة العربيّة ص ٢١٤).

وكان تلخيص ابن رشد في نظر (شكري عياد) لا يقدم أصولاً جديدة لما يمكن أن نسميه «نظرية الفن»، فالأصول التي نجدتها مفصلة مشروحة عند ابن سينا، نجدتها مجملة أو مجزأة عند ابن رشد، والجديد هو تطبيقه لبعض الأفكار التي فهمها من أرسطو على نماذج من الأدب العربي، وها هو ذا يبين أن إخراج الألفاظ والعبارات غير مخرجها المؤلف يُوجد للكلام صفة الشعر، ويمثل لذلك بقول القائل:

وَمَا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ يَبْنَسَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

فيرى أن هذا الكلام صار شعراً لأن صاحبه استعمل: «أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا»، و «سالت بأعناق المطي الأباطح» بدل قوله: تحدثنا ومشينا.

ومن المعروف أن هذين البيتين، وبيتاً ثالثاً بينهما، قد قُيِّمَتْ تقييماً سلبياً في مقدمة كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة، إذ عدّها ابن قتيبة مثالاً على الشعر الذي حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشنته، لم تجد فيه فائدة في المعنى - (الشعر والشعراء ١ / ٦٦). في حين أطرى هذه الأبيات كل من ابن جني في الخصائص (١ / ٢١٨ - ٢٢٠)، وعبد القاهر الجرجاني في (أسرار البلاغة) (ط محمد رشيد رضا ص ١٦ - ١٨).

وقبل أن ندع الحديث عن تلخيص ابن رشد يحسن أن نشير إلى أن ابن أبي أصيبعة قد نسب، في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (٤ / ٩٤)، إلى ابن الهيثم العالم الرياضي المشهور رسالةً في صناعة الشعر ممتزجة من اليوناني والعربي، وإذا صح هذا، يكون ابن الهيثم قد قدم النموذج الذي احتذاه ابن رشد، ولكن رسالة ابن الهيثم لا زالت في ذمة التاريخ.

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الفلاسفة العرب قد استخلصوا الأفكار العامة من كتاب الشعر، وكانوا يشرحونها في ضوء فلسفة أرسطو العامة وفلسفته النفسية، والإطار المنطقي الذي وضعوا فيه كتاب الشعر. وأهم هذه الأفكار «التخييل». «فالتخييل» هو المصطلح الذي مال إليه فلاسفة العربية ونقادها بدلاً من «المحاكاة».

وعندما يصل الباحث شكري عياد إلى تأثير أرسطو في البلاغيين العرب، يرى أن الجاحظ ربما أخذ أصول بعض الأفكار من كتاب الشعر لأرسطو في حديثه عن البيان، في حين يظن أن ابن المعتز تأثر بكتاب الخطابة لأرسطو، وليس بكتاب الشعر الذي نتحدث عنه، فقد كان كتاب الخطابة ترجم قبل زمان ابن المعتز، كما يشير إلى ذلك ابن النديم في (الفهرست).

أما تأثير كتاب الشعر في النقد العربي، فيبدو بوضوح في بعض الكتب النقدية التي ظهرت في القرن الرابع، وبشكل أكثر تحديداً في نقد (قدامة بن جعفر)، وقد كان قدامة يعد واحداً من رجال المنطق الذين شرحوا كتب الفلسفة. وهو عندما تقدم من نقد الشعر، حاول أن ينظر إليه نظرة منهجية شاملة تحاول أن ترتقي بالجزئيات المتناثرة والأحكام الذوقية المتسرعة، إلى مرتبة القوانين الكلية. ومن أصداء التأثير بفلسفة اليونان في نقد الشعر قول قدامة في «الغلو»: «بلغني عن بعضهم أنه قال: أحسن الشعر أكذبه، وكذا نرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم». وكانت «فكرة التناسب» التي أشار إليها أرسطو في كتابه، والتي ترجمها متى بن يونس بقوله: «وليس ينبغي أن يطلب من صناعة المديح كل لذة، لكن لذة التناسب»، هذه الفكرة كانت تحتل حيزاً كبيراً في ذهن قدامة، حتى أن مصطلحاته لم تخرج عن نطاق هذا المفهوم.

وقد تابع الدكتور جابر عصفور، صاحب كتاب « مفهوم الشعر في التراث النقدي»، شكري عياد فيما ذهب إليه، جاعلاً من عمل قدامة في « نقد الشعر » محاولة لإقامة نظرية منهجية متكاملة في نقد الشعر وفهمه، ومنتهداً إلى أن قدامة كان يصدر في أحكامه عن أسس فلسفية، بدلاً من اعتماده على التقاليد الشعرية، التي دعا إليها غيره من النقاد في القرن الرابع الهجري.

وكان من شأن جريان دم جديد في جسد النقد العربي أن أعيدَ النظر في كثير من أحكام النقاد العرب التقليديين، الذين هاجموا محاولات التجديد عند الشعراء العربية، أمثال أبي تمام. لذا وجدنا قدامة نفسه يؤلف كتاباً يسميه « الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام»، منتصراً لأبي تمام، كما يبدو من العنوان، في حين يقابله الآمدي بكتاب (الموازنة) منتصراً للبحرزي، وممثلاً لذوق المدرسة العربية في نقد الشعر وتقييمه، ولم يكنف الآمدي بذلك، بل ألف كتاباً دعاه: « تبيين غلط قدامة » (انظر معجم الأدباء ٣ / ٥٨).

وتبدو لنا قيمة محاولة قدامة بن جعفر، ومحاولة ابن طباطبا العلوي قبله في « عيار الشعر»، إذا عرفنا أن النقد العربي، أو أكثره، في القرن الرابع، كان يجري وراء الإبداع، ولم يقوَ على أن يستشرف له آفاقاً جديدة، أو يوحى له بأشكال للتعبير مستحدثة، مستنفداً جهوده في مسألة السرقات الشعرية، وفي ما يحق للشاعر أن يأخذه من غيره، وما لا يحق. على أن أعمق تأثير لكتاب أرسطو اتضح في آثار اثنين من بلاغيي العرب، هما: عبدالقاهر الجرجاني في القرن الخامس، وحازم القرطاجي في القرن السابع. ويرى الدكتور عياد أن عبد القاهر لا يصرح بانتفاعه بتلخيص ابن سينا لكتاب الشعر، ولكن مقارنة النصوص تثبت ذلك الانتفاع، ففكرة النظم في آثار عبد القاهر تشبه فكرة الوحدة الواردة في « فن الشعر » لأرسطو.

أما حازم فينقل في كتابه القيم « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » نصوصاً طويلة من تلخيص ابن سينا، ويعلق عليها، ويتكلم بصراحة عن «قوانين الصناعة الشعرية» التي بحثها أرسطو في كتاب الشعر، ويقول: إنه سيحاول أن يتممها بقوانين مناسبة للشعر العربي. وحازم يرى أن الشعر العربي أرحب ميداناً، وأعظم تصرفاً في فنون القول من الشعر اليوناني

(انظر شكري عياد - ص ٢٨٨). ومما يضاف هنا أن الدكتور جابر عصفور قد تمكن من ترجيح صدى أقوال ابن سينا والفارابي وغيرهما في نقد حازم، في كثير من صفحات كتابه «مفهوم الشعر في التراث النقدي».

وكانت آخر النتائج التي توصل إليها الدكتور عياد في دراسته الجادة هذه، هي أن الشعر العربي نفسه قد تأثر بالصور التي عرفها العرب من كتاب الشعر، وكانت هذه النتيجة فرضاً يتعذر تقدير درجته من الرجحان.

ويدور أن تأثر الشعر العربي بالثقافات أمر قابل للنقاش، فتعقيد التصنيع والتخييل في شعر أبي تمام، والتفلسف والحكمة في إبداع المتنبي، لا ينهضان دليلاً واثماً على القول بالتأثر، ولعل هذا ما دفع بشوقي ضيف إلى القول: « ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا، إن مياه التفكير اليوناني دخلت النهر العربي، ولكنها استمرت، في كثير من جوانبه، تجري مع مياهه جنباً إلى جنب، وقلما اختلطت بها، قد تختلط في بعض المناطق، ولكنها سرعان ما تعود إلى الانفصال» (الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص ٣٣٤).

ولكن الدكتور إحسان عباس يرصد في كتاب (ملاحم يونانية في الأدب العربي) مجموعة من الظواهر الأدبية والأنواع القصصية تأثر فيها الأدب العربي بالأدب اليوناني. وهذا ما سنلاحظه في دراستنا لهذا الكتاب، التي أثبتنا هنا بعد مراجعتنا هذه لكتاب « فن الشعر» لأرسطو.

ومما يجدر التنبيه عليه في هذا البحث هو أن نتائجه العامة جاءت تخالف ما كاد يجمع عليه كل من درس تأثير كتاب أرسطو في النقد والبلاغة العربيين، أمثال تكاتش، وجريلي، وكراتشكوفسكي، وطه حسين، وذلك لعدم فهمه واستيعابه من قبل النقاد والشعراء العرب، وها هو ذا عبد الرحمن بدوي يقول:

«ويخيل إلينا أنه لو قدر لهذا الكتاب، كتاب (فن الشعر) لأرسطو، أن يفهم على حقيقته، وأن يستثمر ما فيه من موضوعات وآراء ومبادئ، لعني الأدب العربي بإدخال الفنون الشعرية العليا فيه، وهي المأساة والمهابة، منذ عهد ازدهاره في القرن الثالث الهجري، ولتغير

أوجه الأدب العربي كله، ومن يدري لعل وجه الحضارة العربية كله أن يتغير طابعه كما تغيرت أوروبا في عصر النهضة» (فن الشعر لأرسطو، ترجمة د. بدوي ص ٥٦).
ومع ذلك فإذا كنا لا نسلم بكل نتائج الدكتور عياد في رسالته هذه، نظراً لاختلاف موضوع كتاب الشعر لأرسطو، وهو التراجيديا والكوميديا، عن موضوعات الشعر العربي، فإن هذا، كما يقول زكي نجيب محمود، في مقدمته لهذه الرسالة، لا يمنعنا من تقدير هذا البحث وإعلاء منزلته في المكتبة العربية الحديثة المعنية بالتراث .



ملاحح يونانية في الأدب العربي

للدكتور إحسان عباس

يشكو الباحث في الأدب المقارن من قلة عدد المصادر العربية في هذا الميدان من ميادين المعرفة. ويأتي كتاب الدكتور إحسان عباس هذا ليكون لبنة في عمارة هذا الأدب، الذي لا يزال تدريسه في جامعاتنا العربية حديثاً نسبياً. ولعله من المفيد أن نذكر بعض الكتب التي تناولت هذا الموضوع، وأهمها كتاب الأدب المقارن لمحمد غنيمي هلال، ورحلة الأدب العربي إلى أوروبا لمحمد مفيد الشوباشي، ونموذج البخيل في الأدب العربي لمحمد عفيفي مطر. ولممة كتب أخرى ليس هنا مكان استقصاء أسمائها.

وكتاب إحسان عباس هذا يجيب عن سؤالين اثنين هما: ما الذي ترجمه العرب من تراث اليونان علماً وأدباً وفلسفة؟ وما هي الطرق التي استغل فيها العرب هذا التراث؟ ولا شك في أن اتساع صدر الأدب العربي للمؤثرات الأجنبية لا يُعدُّ انتقاصاً من قدره أو طعناً في أصالته، بل هو شهادة إثبات لثقته بنفسه، وقدرته على استيعاب تجارب الآخرين وأساليب إبداعهم.

ويميز الدارس في هذا الكتاب أربعة خطوط متوازية من التلاقي بين الأدبين العربي واليوناني هي: الشعر المترجم عن اليونانية، وتحويل الحكم النثرية اليونانية في صور شعرية، وتشكيل الأدب السياسي في قوالب أدبية، واللقاء على مستوى الأمثال والخرافات والأساطير بين الأدبين.

لقد عرف العرب الترجمة العربية للشعر اليوناني، وكان من أبرز من عرف الشعر اليوناني حنين بن إسحق، حتى إذا جاء عهد الفارابي وجدناه يقف على يئنة من أنواع الشعر اليوناني ويعرف كثيراً عنه، وذلك في رسالته عن قوانين صناعة الشعر. ولا شك في أن العرب ترجموا كتاب الشعر لأرسطو وتأثروا به على مستوى النقد الأدبي (انظر دراستنا

السابقة لكتاب فنّ الشعر وأثره في النقد والبلاغة العربيين لشكري عياد). على أن البيروني كان أقوى من عرف جذور الأدب اليوناني، وذلك في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة»، وكتابه «الآثار الباقية من القرون الخالية». وبرز أيضاً أثر اليونان في أدب العرب عند ابن سينا في كتابه «الشفاء»، الذي اعتمده حازم القرطاجي، في غير موطن، من كتابه النقدي العظيم «منهاج البلغاء وسراج الأدباء».

وقد اهتمت هذه الدراسة الجديدة بأثر (إيسوب) - مبدع الحكايات الخرافية - بالشخصيات والأمثال العربية، فعلى سبيل المثال تُعدُّ قصة الثعلب والضب، من قصص الجاهليين، إيسوية المنزع.

ويخلص الدارس إلى فرضية فحواها: أن أدب (إيسوب) كان معروفاً لدى عرب الجاهلية، عن طريق اللغة الآرامية ونصاري الحيرة. ولكن الدراسات المعاصرة أرجعت بعض العناصر عند (إيسوب) إلى أصول مشرقية، وبخاصة إلى أصول سومرية. ويبدو أن قصة الرجل والحية التي وردت كثيراً في كتب الأمثال، وفي شعر النابغة الذبياني، كانت ذات صلة بمؤثرات خارجية، وإن لم تكن تعود في الأصل إلى البيعة اليونانية.

وقد أصبحت هذه الخرافات جزءاً هاماً من الأدب الإسلامي، والمثال هنا قصة الثور الأبيض، التي جاءت على لسان علي بن أبي طالب... وذلك يصدق على العصر العباسي، الذي امتاز بتلاطم الثقافات الأجنبية مع الثقافة العربية.

وتُرجم الشعر الخمري إلى العربية، وبخاصة في بيئة الأندلس والقيروان. وبرز في هذا الميدان علي بن أبي الرجال، الذي يرجح أنه كان يعرف اليونانية، وتفرد إبراهيم الرقيق في نقل أشعار خمرية مترجمة عن اليونانية.

وظهر التأثير اليوناني أيضاً في استغلال الفكر السياسي اليوناني مادة ملائمة للرسائل الأدبية. ويُعدُّ عبد الحميد الكاتب نموذجاً في هذا المجال. وقد أشار إلى ذلك طه حسين. ويصدق هذا القول كذلك على سالم مولى سعيد بن عبد الملك. ويُظهر إحسان عباس كيف كانت أقوال الفلاسفة المسلمين في (عضد الدولة) محاكاة لما قاله الحكماء عند تابوت الاسكندر.

ويقال الشيء ذاته عن إعادة صوغ الفكر السياسي اليوناني في أسلوب أدبي، ومثاله الرسالة المنسوبة إلى (أرسطوطاليس)، وهي بعنوان (السياسة في تدبير الرياسة) أو (سر الأسرار فيما كتبه للاسكندر). ونجد صدى لها في كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي، فهو يقول مثلاً: «تجرع من عدوك الغصة إن لم تنل الفرصة، فإذا وجدتها فانتهازها قبل أن يفوتك الدرك، أو يصيبك الفلك، فإن الدول تبنيها الأقدار، ويهدمها الليل والنهار». وهذه العبارة تبدو انعكاساً لما قال (أرسطوطاليس): «اقتصص من عدوك الفرصة واعلم ان الدنيا دول». ونجد الأمثلة واضحة على هذه الصياغة في كتاب (الآداب) لأسامة بن منقذ.

ومن ملامح اللقاء بين الأديين، تحوير الحكم والأمثال اليونانية في صورة نظم. وقد تم ذلك على يد أبي العتاهية في قصيدته (ذات الأمثال) وكذلك في بعض مقتطفات أبي نواس، فمما كان يقوله أبو نواس:

عدوك ذو العقل خير من الصب صديق لك الواسع الأحمق
وما ساس أمراً كذي شيبه بصير بما ساس مستوفق

والبيت الأول صياغة للحكمة القائلة: «عدو عاقل خير من صديق جاهل». وقد تجسّد هذا الاتجاه على شكل كتابين يُنسبان لابن المقفع، هما: الأدب الكبير والأدب الصغير، وفيهما تمثلت الحكم الفارسية، التي تشبه الحكم التي أخذها العرب عن اليونان.

ومن مظاهر اللقاء بين الأديين انصهار معاني الحكم اليونانية في الشعر العربي، ومثال ذلك شعر أبي العتاهية الذي بكى فيه صديقه علي بن ثابت، وهو يجود بنفسه فقال:

يا شريك في الخير قرّبتك الله لهُ فَنَعَمَ الشَّرِيكَ في الخَيْرِ كُنْتَا
فَدَ لِعَمْرِي حَكَيْتَ لِي غُصَصَ المَوْتِ تِ فَحَرَكْتَنِي لَهَا وَسَكَنْتَا

فقوله: «حركتي وسكنت» مأخوذ من قول أحد الحكماء «حركتنا الإسكندر في سكونه». وما وقف عنده ابن هندو صاحب كتاب «الكلم الروحانية في الحكم اليونانية» بيت أبي الطيب:

ووضع الندى في موضع السيف بالفلا

مُضَوَّرٌ، كَوَضِعَ السِّيفُ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

قد قرنه إلى قول أفلاطون «العفو يفسد من الخسيس بمقدار ما يصلح من الرفيع».

وقد كان أوفى عمل منظم في هذا الصدد الرسالة الخاتمية التي يشك إحسان عباس في نسبتها إلى الخاتمي (٣٦٨ هـ) (ص ١٥٤ فما بعدها)، والتي تقارن بين كلام أرسطو في الحكمة، وأبيات أبي الطيب المتنسي المشابهة لها. وقد تابع الرسالة الخاتمية في نهجها ابن حمدون صاحب كتاب «التذكرة» (٥٦٢ هـ)، وأسامة بن منقذ في كتابه «البديع في نقد الشعر».

واتخذ العرب المقامة وعاءاً للفكر الحكمي والسياسي اليوناني، ومع الإقرار المبني بأن المقامة لونٌ محلي، لا علاقة له بالدراما اليونانية، إلا أننا نجد في تراثنا العربي مقامة لابن بطلان ألفها سنة ٤٥٠ هـ، وعَتَوَتْهَا باسم «دعوة الأطباء»، تشبه في عنوانها كتاباً أنشأه (أثنايوس النقراطيسي) بعنوان «مأدبة الحكماء». وقد جمع أثنايوس في مادته المتخيلة عدداً من ذوي الاختصاصات المتنوعة في مدينة (روما)، في حين جمع ابن بطلان في مدينة (ميفارقين) عدداً من المشتغلين بصناعة الطب.

وبعد ثلاثة قرون عاد الفكر السياسي اليوناني إلى الناظر في شكل المقامة. فآلف (لسان الدين بن الخطيب) الذي عاش في دولة بني نصر بغرناطة، مقامة سياسية مستفيدة من كتاب العهود اليونانية المستعرجة من كتاب السياسة لأفلاطون، الذي ترجمه أو صاغه ابن الداية.

ويحتم د. عباس كتابه القيم هذا بملاحظات على طريق الدراسة المقارنة، يشير فيها إلى أوجه التلاهي بين الأدبَيْن العربي واليوناني، في ثلاث عشرة نقطة، منها مثلاً:

- - العرب واليونان كانوا يجالون الشعر، وهو عند العرب ديوانهم ومخلد سجايهم وذكراهم. وقد عدّه الفريقان أداةً للتسلية والمنفعة.

- - مسألة النظم والنثر تمثلت، عند الشعبيين، دون تفضيل حادّ بينهما. وقد كان ابن طباطبا مثلاً يرى في القصيدة شيئاً بالرسالة.
 - - قضية الطبع والصنعة في الشعر مشتركة عند الأمتين.
 - - الصراع بين القدامى والمحدثين ظاهرة مشتركة في الأدبين.
 - - إجلال الكتاب في العالم الهلنستي والعالم العربي، وخاصة عند الجاحظ في مقدمة كتابه الحيوان.
 - - قضايا التناظر الطبيعي والمجتلب.
 - - الحب كالبطولة من موضوعات الشعر عند الشعبيين.
 - - كثير من طرق التعبير عن المواقف المختلفة ينهج نهجاً واحداً.
 - - إن الإيجاز في الأدبين كان معياراً للجودة.
 - اللقاء على مستوى الأساطير. وقد أشار إليه الأستاذ (غوستاف فون غرونباوم). عندما درس مواطن التشابه بين الحكاية اليونانية وقصص ألف ليلة وليلة. ولخص مؤلف (الملاح اليونانية) نتائج غرونباوم في هذا الصدد معلقاً عليها بقوله: «إن التشابه حاصل ولكن التأثير يصعب القطع به».
- وهكذا نرى أن الدكتور إحسان عباس قد مسح مسحاً شاملاً أوجه التلاقي والتشابه والتأثير بين الأدبين، عبر تطور الأدب العربي، الذي امتد قرونًا قبل عهد الانحدار. وقد كان يحقّ فارس الميدان في هذا الموضوع، فأثاره ومولفاته الكثيرة تشهد له بطول الباع، وسعة الاطلاع. ولكن هذا المسح الشامل، على جمال عرضه ووضوح أفكاره ومراميه، كان يتجاوز عن تفصيلات كثيرة جديرة بالتوقف عندها، شأنه في ذلك شأن أي بحث ينطلق من النظرة الكلية الجامعة، ولعل هذا الأمر هو الذي جعل المؤلف نفسه يقول في مقدمة كتابه: «وحسبي أن أضع أمام الدارسين ما يمكن أن يكون تمهيداً متواضعاً لبحوث أخرى، قد تجرّد من يحققها بوسائل أكثر واستعداد أشد، فإذا استطاعت هذه المحاولة أن تثير بعض الجهود إلى ذلك، فإنها لن تكون غير ذات نفع» (ملاح يونانية ص ٩). والحقيقة أنها محاولة نافعة بأي مقياس أُخِذت.

أعلام الفكر في دمشق بين القرنين: الأول والثاني عشر للهجرة للسيدة إحسان خلوصي

حظيت دمشق - قلب العروبة النابض - بعناية الكثير من المصنّفين والمؤلّفين. ولو عدنا إلى الوراء، لوجدنا في كل قرنٍ تقريباً مؤلفاً أو أكثر تحدّث عن دمشق الشام، وعن فضائلها وشؤونها وخطتها وأعلامها. ويمكن أن نشير إلى بعض المؤلّفات في هذا الباب قديماً وحديثاً.

ففي القديم: ألف أبو الحسن الرازي (٣٤٧هـ) كتاباً سَمّاه: « ولاة دمشق في عهد العباسيين ». وإذا كان هذا الكتاب، من ثمرات القرن الرابع، فإنّ القرن الخامس يطالعنا بكتاب الربيعي (٤٤٤هـ) : « فضائل الشام ». أما في القرن السادس فقد صنّف ابن عساكر (٥٧١هـ) كتابه العظيم والفدّ «تاريخ مدينة دمشق»، وهو كتاب لانظير له، في بابه، من حيث الحجم والإحاطة والاستيعاب، إذ بلغ في إحدى تجزئاته ثمانين مجلّدة، طبع منها حتى الآن مالا يقلّ عن عشرين مجلّدة، كان مجمع اللغة العربية بدمشق قد طبع أكثرها. وفي القرن السادس الهجري أيضاً ألف ابن يعلى القلانسي (٥٥٥هـ)، واسمه حمزة بن أسد، كتاباً سَمّاه: «ذيل تاريخ دمشق» أخرج فيه ما يخصّ مدينة دمشق من كتاب (هلال الصابي) عن الدولة الإسلامية. وقد نشر هذا الكتاب المستشرق (أمدروز) في بيروت عام ١٩٠٨.

وفي القرن السابع ألف الحافظ ضياء الدين محمد بن الواحد، وهو من أهل دمشق مولداً ووفاءً (توفي سنة ٦٤٣هـ) كتاباً سَمّاه: « فضائل الشام ». وفي هذا القرن ذاته صنّف

أبو شامة (٦٦٥) ذيلاً على كتاب «الروضتين» وأعطاه عنوان: «تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين» وخصّ فيه أعلام دمشق بنصيب وافر.

وفي القرن الثامن أخرج (القزازي) (٧٢٩ هـ) كتاباً سَمَّاه «الإعلام بفضائل الشام». وفي القرن نفسه صنّف الصفدي - خليل بن أيّيك (٧٦٤ هـ) كتاباً سَمَّاه: «تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب». وقد طبع هذا الكتاب بدمشق، بتحقيق السيدة إحسان خلوصي والسيد زهير حميدان الصمصام، عام ١٩٩٢، في جزأين.

وفي المكتبة العربية ذكر لابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) كتاب تراجم قيّم، باسم «الدُرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة». ولا شك أنه حوى الكثيرين من أعيان دمشق.

وفي القرن العاشر أخرج ابن طولون (٩٥٣ هـ) أكثر من كتاب عن دمشق، فقد صنّف أولاً ذيلاً على كتاب الصفدي المذكور سابقاً. وصنّف ثانياً كتاب: «قُضاة دمشق». وقد طبع هذا الكتاب بتحقيق صلاح الدين المنجد عام ١٩٥٦. أمّا كتاب ابن طولون الثالث، فهو: «القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحيّة» وهو مطبوع أيضاً بدمشق منذ عام ١٩٤٩، بتحقيق السيد محمد أحمد دهمان.

كما ألف في القرن الثاني عشر الهجري محمد بن كنان الصالحي كتاباً سَمَّاه «يوميات شامية». وفيه تاريخ لأحوال دمشق في العهد العثماني ما بين (١١١١ و١١٥٣ هـ) وقد حقّق هذا الكتاب السيد أكرم العلي وطبعه بدمشق عام ١٩٨٢. وكذلك صنّف، في القرن ذاته، البُديري الحلاق «حوادث دمشق اليومية»، وهو مشهور مطبوع أكثر من مرة.

وفي الحديث: يمكن للمرء أن يشير، وباختصار، إلى جهود بعض المحدثين والمعاصرين في التأليف عن دمشق وشؤونها. فهذا صلاح الدين المنجد، وهو من هو، يصدر الكتب التالية:

- - أمراء دمشق في الإسلام.
- - ولاية دمشق في العهد السلجوقي.
- - ولاية دمشق في العهد العثماني.

• - المؤرخون الدمشقيون.

كما يؤلف محمد كرد علي، مؤسس مجمع اللغة العربية، ورئيسه لسنتين عديدة، كتاب «خطط الشام» وكتاب «دمشق مدينة السحر والشعر». ويُصنّف نعمان قساطلي «الروضة الغناء في دمشق الفيحاء». ومما نعرفه أيضاً أنّ لجان سوفاجيه كتاب: «دمشق الشام». وللأب الدكتور (لويس بوزيه) كتاب «دمشق في القرن السابع الهجري» بالفرنسية. ولأحمد حلمي العلاف «دمشق في مطلع القرن العشرين». ولإسكندر لوقا أطروحة دكتوراه بعنوان: «الحركة الأدبية في دمشق ما بين ١٨٠٠ و ١٩١٦ م». وكذلك أصدرت الأديبة سهام ترجمان كتاب «يا مال الشام». وألف منير كيّال كتاب «يا شام». ولنحاة قصّاب حسن «حديث دمشقي». وللأستاذ نصر الدين البحرة كتاب حديث جديداً بعنوان «دمشق الأسرار»... الخ.

ويأتي كتاب السيدة إحسان خلوصي «أعلام الفكر في دمشق بين القرنين الأول والثاني عشر للهجرة» ليكون حلقة من حلقات التأليف في هذه المدينة العريقة التي تعدّ أقدم مدينة مأهولة في العالم حتى اليوم، وليشكّل إسهاماً مشكوراً في بابه. ويضمّ هذا الكتاب الذي نراجع (٢٣٠) متين وثلاثين ترجمة، توزعت على أعلام، ومؤرخين، وشعراء، وأطباء، وفقهاء، وفلكيين، وأدباء، ونحويين، ولغويين... الخ. وقد رُتبت الأعلام فيه حسب الترتيب الألفبائي أو المعجمي، فالكتاب يبدأ بإبراهيم بن عبد الرحمن الدمشقي، وهو فقيه، وينتهي بيوسف بن محمد الطرابلسي الدمشقي، وهو طبيب.

ومن المؤرخين الذين عرفت بهم الكاتبة على سبيل المثال لا الحصر:

- ١- ابن عساكر (٥٧١هـ). ٢- أبو شامة (٦٦٥هـ). ٣- ابن أبي أصيبعة (٦٦٨هـ). ٤- الذهبي (٧٤٨هـ). ٥- ابن شاعر الكندي (٧٦٤هـ). ٦- ابن طولون (٩٥٣هـ). ٧- البوريني (١٠٢٤هـ). ٨- البديري الخلاق (١١٧٥هـ).
- ومن الشعراء مثلاً: ١- عدي بن الرقاع العاملي (٩٥هـ). ٢- حميدة الخزرجي (٨٥هـ). ٣- الرواء الدمشقي (٣٨٥هـ). ٤- ابن حيوس (٤٧٣هـ). ٥- ابن الخياط

- ٥١٧ هـ). ٦- عرقلة الكلبي (٦٠٤ هـ). ٧- ابن الساعاتي (٦٠٤ هـ). ٨- فتیان الشاغوري (٦١٥ هـ). ٩- ابن عنين (٦٣٠ هـ).
- ومن الأطباء مثلاً: ١- الحكم الدمشقي (٢١٠ هـ). ٢- البيروني (٤٠٠ هـ). ٣- ابن المطران (٥٨٧ هـ). ٤- رشيد الدين الصوري (٦٣٩ هـ). ٥- ابن أبي أصيبعة (٦٦٨ هـ). ٦- ابن النقيس (٦٨٧ هـ).
- ومن الفقهاء والتصوف مثلاً: ١- أرسلان الدمشقي (٦٠٩ هـ). ٢- محي الدين عربي (٦٣٨ هـ). ٣- ابن ذرود (٨٥٦ هـ). ٤- شهاب الدين العمادي (١٠٧٨ هـ).
- ومن الفلكيين مثلاً: ١- المزي (٧٥٠ هـ). ٢- ابن الشاطر (٧٧٧ هـ). ٣- المناشيري (١٠٣٩ هـ).
- ومن النحويين: ١- ابن الناظم (٦٨٦ هـ). ٢- ابن العيني (٨٩٣ هـ). ٣- الميداني الدمشقي (٩٢٣ هـ). ٤- البهنسي الدمشقي (١٠٩٠ هـ).
- ومن الموسيقيين: الكنجي (١١٥٠ هـ). ومن المهندسين: الحارثي المهندس (٥٩٩ هـ) ومن اللغويين: ابن النحوية (٧١٨ هـ).
- أما النساء فلم يُذكرُ منهن سوى ثلاث نسوة هُنَّ: ١- حميدة الخزرجي (٨٥ هـ) شاعرة ٢- تقيّة الصورية (٥٧٩ هـ) شاعرة ٣- زينب الغزية (٩٨٠ هـ) شاعرة.
- وكان شرط المؤلّفة في كتابها أن تذكر فيه، من أعلام دمشق، كل من وُلد بدمشق أو مات فيها، أو كانت له صفة (دمشقي)، أو ورد اسمه في المصادر على أنه من أهالي دمشق أو نشأ فيها.
- الملاحظات والاستدراكات:**
- هذا عرض موجز للكتاب. ويمكن للباحث، دون ريث طويل، أن يسجل عليه بعض الملاحظات التي لو بذلت المؤلّفة جهداً إضافياً، لاستغنت عن كثير منها. وها هي ذي ملاحظتنا واستدراكاتنا عليه:

أولاً- إنَّ الفترة الزمنية، التي حاولت المؤلفَة أن تغطّيها بكتابتها هذا، فسيحة جداً، وممتدة جداً. الأمر الذي أدى الى فوات الكثير من أعلام دمشق الكبار، في القرون الخوالي المدروسة. ولو أنَّ الكاتبة اقتصرَت على قرن واحد، لكان حال كتابها أفضل بكثير... وحبذا لو اقتدت الكاتبة بالمرحوم (جميل الشطي) الذي ألف كتاباً بعنوان ((أعيان دمشق في القرن الثالث عشر الهجري ومنتصف القرن الرابع عشر)) وقد حوى كتابه هذا أكثر من ألف ترجمة. أو لو اقتدت بالسيد مطيع الحافظ ونزار أباطة، اللذين أخرجنا ((تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري)) في ثلاثة مجلدات.

ثانياً - من اللافت للانتباه أن المؤلفَة لم تذكر أي علم في كتابها يبدأ اسمه بحرف (الغين)، ولا أي علم يبدأ بحرف (اللام)، ولا أي علم يبدأ بحرف (النون)، وهذا مما لا يجوز البتة، ولا سيّما أن كتاب «الأعلام» للزركلي، وهو مبوّب حسب الحروف الهجائية، بين أيدينا، وهو من مراجعها!

أما حرف (الباء) فلم يرد تحته سوى اسم علم واحد هو بركات بن أحمد (٩٢٩هـ). وكذلك حرف (الجيم) ورد تحته ترجمة واحدة لجرجيس بن يوحنا البيرودي (٤٠٠ هـ). وحرف (الهاء) ترجمة واحدة فقط أيضاً.

ثالثاً - إن النساء، في هذا المؤلف، غُيِّطْنَ حَقَّهن، وكان الأولى بالكاتبة، وهي من بنات جنسهن، أن تصفهن أكثر. فلم يذكر في «أعلام الفكر في دمشق» من النسوة سوى ثلاث، ذكرنا أسماءهنّ من قبل. ولو عادت الكاتبة إلى بعض الكتب التي ترجمت للنساء، لأمكنها أن تضرب رقم تراجم النسوة، وهو (ثلاث)، بمئة على الأقل... علماً بأن بين يديها كتاب «تراجم النساء» من تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، الذي أخرجته الآنسة (سكينة الشهابي). وبين يديها كتاب «أعلام النساء»، لعمر رضا كحالة، وهو في خمسة مجلدات، وكتاب (بلاغت النساء)، لابن طيفور، وكتاب «الإماء الشواعر»، لأبي الفرج الأصفهاني... الخ.

رابعاً - أهملت المؤلفَة العودة إلى كثير من المصادر والمراجع التي من شأنها أن تعني عملها وتضاعف كتابها، وعلى الرغم من عودتها إلى (١٦٠) كتاباً، فقد أغفلت كتباً هاماً،

ولم ترجع إليها، وهي مكانز تزوّدها بكثير من الأعلام والتراجم، ومن تلك الكتب على سبيل المثال لا الحصر: ١ - كتاب طبقات ابن سعد. ٢ - كتاب الوفيات، لمحمد بن رافع السلامي الدمشقي تحقيق عبد الجبار زكار، دمشق ١٩٨٥. ٣ - ذيل طبقات الخنابلة، لابن رجب الحنبلي (٧٩٥). ٤ - كتاب تاريخ التراث العربي، لفواد سزكين، وهو في عشرة مجلدات و مترجم إلى اللغة العربية... الخ.

خامساً - وللأسباب السابقة سقطت ترجمات هامة من كتابها، كان من بينها مؤرخون وأطباء وفقهاء، وأعلام متفرقون آخر. فمن بين المؤرخين الذين كان من حقهم أن يكونوا بين دفتي كتاب «أعلام الفكر في دمشق» وحسب شرط المؤلف:

- ١ - أبو الحسين الرازي (٣٤٧ هـ) - ٢ - ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي (٦٤٣ هـ) صاحب كتاب «فضائل الشام» ٣ - محمد بن رافع السلامي الدمشقي (٧٧٤ هـ) صاحب كتاب «الوفيات» ٤ - ابن رجب الحنبلي (٧٩٥ هـ) ٥ - أبو بكر تقي الدين ابن زيد الجراعي الحنبلي (٨٨٣ هـ)، وقد حقق له كاتب هذه السطور كتاب (الأوائل) ونشره في بيروت عام ١٩٨٨. وأبو بكر تقي الدين هذا دمشقي وفاءً، وهو محقق لشروط كتابها.

ومن الأطباء على سبيل المثال لا الحصر:

- ١ - ابن أنال - طبيب معاوية بن أبي سفيان وسميره، وهو (من رجال القرن الأول الهجري).
- ٢ - أبو عثمان الدمشقي (من رجال القرن الرابع الهجري).
- ٣ - أسعد بن أبي الفتح إلياس بن جرجس المطران (وتوفي سنة ٥٨٥ هـ).
- ٤ - ابن طليب الدمشقي (القرن السابع الهجري).
- ٥ - ابن القف (٨٦٥ هـ) وهو أبو الفرج بن القف، وله من الكتب «الشافي في الطب»، و «كتاب شرح الكليات من كتاب القانون»، وهو في ستة مجلدات. ومن الأعلام الأخر المتفرقين الذين وقع إغفالهم:

- ١ - يوحنا الدمشقي، وهو لاهوتي وفيلسوف أثرت فلسفته حتى في فلاسفة غربيين، مثل توما الأكويني. وقد عاش يوحنا الدمشقي في القرن الأول للهجرة.
 - ٢ - أخفش باب الجابية (٢٩٢ هـ) وهو شيخ القراء بدمشق، وله كتب في القراءات، واسمه هارون بن موسى التغلبي، وهو آخر الأخفشين.
 - ٣ - إسماعيل بن سلطان (٥٦١ هـ) وهو شاعر فاضل دمشقي.
 - ٤ - ابن عبد الولي (٧٦٤ هـ) وهو فقيه شافعي.
 - ٥ - عبد القادر الصمادي (١١١٤ هـ)، وهو أصلاً من قرية (صماد) بحوران، وكانت له زاوية في منطقة الشاغور بدمشق.
- وخلاصة القول: أنّ جهداً أوفر واستقصاءً أشمل، لو بُذِلَا، لكانا كفيلين بمضاعفة عدد التراجم التي حواها كتاب «أعلام الفكر في دمشق بين القرن الأول والثاني عشر للهجرة»، ولجعلنا من هذا الكتاب لاجزءاً واحداً فقط، بل أجزاء كثيرة، ولمكننا من أن يكون ناتج ضرب الـ (٢٣٠) ترجمة التي احتواها، بخمسين أو ستين، قليلاً، إذا قيس بعدد أعلام دمشق الحقيقيين، خلال اثني عشر قرناً، مرت على مدينة لم تكفّ عن أن تكون عاصمة للعلم والثقافة على مرّ العصور.



حلب في كتب البلدانيتين العرب

إعداد د. شوقي شعث وأ. فالخ بكور

يدور هذا الكتاب، كما يفهم من عنوانه، حول ثاني مدينة من مدن القطر العربي السوري، وما ذكرته عنها بعض كتب التراث. ويحسن بنا، قبل الشروع في دراسته وتقدمه، أن نلّم بمعلومات عامة حول محور هذا الكتاب، وحول التأليف فيه، معتمدين بذلك على مراجع سيمّر ذكرها بعد قليل. فمدينة حلب مدينة قديمة يرجع تاريخها الى ما قبل الميلاد بالفين وثلاثمئة سنة، إذ ذكرت في رقم (ايلا) على أنّ اسمها (أرومان) أو (أرمسي). وأشارت الوثائق الفرعونية الى مملكة حلب والى عاصمتها منذ العام ٢٠٠٠ ق.م. وكانت حلب عاصمة أكبر دولة أمورية دولة (بمحاض)، في القرن الثامن عشر ق.م. ووصل الينا نص باللغة البابلية يشير الى معاهدة وقعت بين ملك حلب والملك الحثّي (مورسيل الثاني). ومن المعروف أنّها سقطت بيد الأخمينيين في العام ١٥٦٠ ق.م. ثم خضعت للآراميين، فالآشوريين، فالفرس الأخمينيين، حتى اذا جاء العام ٦٤ ق.م كانت تحت الحكم الروماني... ولما انقسمت الامبراطورية الرومانية ونشبت الحرب بينها وبين الفرس، دخل الفرس حلب في السنة ٤٤٠م، وأحرقوها، ثم عاد اليها الروم فأصلحوها. وفي العام ٦٣٦م فتح العرب حلب على يد أبي عبيدة بن الجراح مسلماً، وبنى فيها سليمان بن عبد الملك الجامع الكبير المعروف بجامع زكريا، وهو نسخة ثانية عن الجامع الأموي بدمشق.

وتعد حلب ثاني أكبر مدينة عربية تحتوي آثاراً وعمراناً وملامح إسلامية بعد القاهرة. ومن المعروف أنها كانت عاصمة للدولة الحمدانية، وأن (سيف الدولة الحمداني) أقام فيها، ومنها كان يقود الجيوش لحرب الروم. هؤلاء الذين تمكنوا في العام (٩٦٢/٣٥١) بقيادة الامبراطور (نقفور) من احتلالها ونهبها وحرقتها... حتى اذا جاء الفاطميون الى بلاد

الشام، سيطروا عليها في العام ١٠١٥م، ثم نشأت فيها الدولة المرداسية لأكثر من ٥٠ عاماً، بعد الفاطميين. وتعرضت حلب الى نكبات وكوارث كثيرة في تاريخها. إذ بعد أن توالى على حكمها الزنكيون والأيوبيون، هاجمها المغول سنة ١٢٦٠م، وأحرقوها، وتلاههم التتر على يد (تيمورلنك) في السنة ١٤٠٠، فاستباحوها. وجاء بعدهم المماليك، فالعثمانيون سنة ١٥١٦، وقد دخلوها بعد معركة (مرج دابق) شمالي حلب، فصارت المدينة مقراً للحاكم التركي الملقب بـ (الباشا). وبعد ان خرج الاتراك في مطلع هذا القرن آلت الى سورية، فجعل منها الفرنسيون دولة ضمن حدود الانتداب، سموها (دولة حلب). ثم نعمت، كباقي محافظات القطر العربي السوري، بالجللاء والاستقلال والحرية، منذ العام ١٩٤٦.

ومن المعروف أنَّ حلب تقع في شمالي سورية، وتبعد عن دمشق نحو ٣٦٠ كم، ويخترقها نهر (قويق) المشهور، وهي تعرف بقلعتها الخالدة، وبأسواقها، وجوامعها، وأسوارها... ولقد قامت مديرية المتاحف والآثار بتسجيل حلب، وكثير من مناطقها، في سجل الآثار لديها، وهذا يعني ضرورة حمايتها وصيانتها. كما سجلتها في السجل العالمي التابع لليونسكو، ضمن سجل الممتلكات الثقافية العالمية، الذي يتحمل العالم بأسره ضرورة حماية كل ما دُوّن فيه والمحافظة عليه.

ونظراً لأهمية هذه المدينة، فإنَّ التأليف فيها، وفي تاريخها، لم ينقطع أبداً. وفي وسعنا ان نشير، دون استقصاء، الى كتب أُلِّفت فيها قديماً، وكتب أُلِّفت فيها حديثاً. فمن الكتب القديمة في حلب وتاريخها:

- ١- كتاب تاريخ حلب، للعظيمي المتوفى بعد (١١٦٠/٥٥٦).
- ٢- كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب، لابن العديم (١٢٦١/٦٦٠).
- ٣- الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، لابن شداد (١٢٨٥/٦٨٤).
- ٤- درّ الحبيب في تاريخ حلب، لمحمد بن ابراهيم المعروف بابن الحنبلي (١٥٦٣/٩٧١). ولهذا المؤلف ذاته كتاب آخر، اسمه: الزبد والضرب في تاريخ حلب، نشره الدكتور محمد التوجي بالكويت، عام ١٤٠٩ هـ.

٥- معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب، لأبي الرفاء العرضي (١٠٧٦/١٦٦٥). وحققه أيضاً محمد التونجي، ونشره بدمشق عام ١٤٠٧ هـ.

ومن الكتب الحديثة المؤلفة في حلب وتاريخها وأعلامها:

١- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، لمحمد راغب طباح. ويقع في سبعة أجزاء. وفيه ترجمة لأكثر من ١٠٠٠/ علم حلي. وطبع مرتين في حلب أولاً عام (١٩٢٦) وثانياً سنة (١٩٨٩/١٤٠٩). بإشراف محمد كمال.

٢- أدياء حلب ذوي الأثر في القرن التاسع عشر، لقسطاكي الحمصي (١٩٤١). وفيه تراجم لأكثر من (٥٠) علماً حلياً كان هو آخرهم.

٣- محافظة حلب، لعبد الرحمن حميدة، ضمن سلسلة بلادنا. وصدر عن وزارة الثقافة بدمشق.

٤- حلب القديمة، منشورات المديرية العامة للمتاحف والآثار بدمشق ١٩٨٣.

٥- أحياء حلب وأسواقها، لخير الدين الأسدي (١٩٧١). وحققه عبد الفتاح رواس قلجعي، وطبعته وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٨٤. ومن المعروف ان للأسدي هذا معجماً يقع في ٨٠٠٠/ صفحة، اسمه (موسوعة حلب المقارنة). وقد ظهر منه عدة أجزاء.

٦- معالم حلب الأثرية، لعبد الله حجار. وهو من منشورات جامعة حلب وجمعية العاديات فيها، لعام ١٩٩٠.

٧- الحلبيون في المهجر، لعبد الله يوركي حلاق. وهو من منشورات مجلة (الضاد) الحلبية، لعام ١٩٩٤.

وأخيراً يأتي هذا الكتاب الذي نقف عنده وعنوانه: « حلب في كتب البلدانانيين

العرب ». وهو من مطبوعات دمشق لعام ١٩٩٥.

يقع هذا الكتاب في (٢٦٣) صفحة. وقد عاد فيه المؤلفان الى حوالي (٥٠) كتاباً. فبدأ منذ القرن الثالث الهجري مع كتاب (صورة الأرض) لمحمد بن موسى الخوارزمي (٨٤٧/٢٣٣)، وانتهيا برحلة محمد ثابت (١٣٧٧هـ)، وكتابه (جولة في ربوع الشرق الأدنى). وقد مرّا بكتب تاريخية عديدة، مثل (فتوح البلدان) للبلاذري، و(المسالك والممالك)

لابن خرداذبه، و(صفة جزيرة العرب) للهمداني، و(معجم البلدان) لياقوت الحموي، و(الروض المعطار) للحميري، و(بغية الطلب) لابن العديم، و(نهر الذهب في تاريخ حلب) للغزي... الخ.

وكررت عودة المؤلفين الى كتب الرحلات. ومن الرحالين الذين عادوا اليهم: ناصر خسرو (١٠٦١/٤٥٣)، وكتابه (سفر نامه)، وهو بالفارسية، وقد ترجمه يحيى حشاش الى العربية، ورحلات بنيامين (١١٧٣/٥٦٩)، والشريف الادريسي (١١٦٤/٥٦٠) صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، وابن بطوطة (١٣٦٩/٧٧٩)، واسم رحلته (تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، ولويس شيخو الذي دَوَّن خلاصة رحلتين قام بهما الى حلب في مطلع هذا القرن، ومحمد ثابت المصري المعاصر، الذي سجل ملاحظاته ومشاهداته في كتاب بعنوان (جولة في ربوع الشرق الأدنى) وفواد أفرام البُستاني الذي قام برحلته الى حلب في أوائل خمسينيات هذا القرن، ودَوَّن ملاحظاته تحت عنوان (خمسة أيام في ربوع الشام)... وأنهى الكتاب بنصوص قصيرة مما قاله الرحالون الأجانب في حلب، أمثال (بوكوك) الانكليزي ١٧٣٧م و(نيهور) الدانمركي ١٧٦٦، و(فولني) الفرنسي ١٧٨٣م، و(لويس اسكندرادي كوارنسنز) قنصل فرنسا في حلب ١٨٠٨م. ولو نظرنا في تواريخ النصوص المختارة عن حلب، من زاوية وفيات أصحابها، لوجدنا سبعة نصوص تعود الى القرن الثالث الهجري، ومثلها إلى الرابع، وأربعة إلى الخامس، ونصاً إلى السادس، وثمانية نصوص الى القرون السابع والثامن والتاسع، ونصا الى العاشر والثالث عشر، ونصين للحادي عشر، وثلاثة للثاني عشر، وتسعة نصوص للقرن الرابع عشر الهجري.

وقد كان وراء النصوص المختارة من المراجع السابقة رغبة في رسم خط لتطور مدينة حلب عبر القرون، ورصد كل ما جدَّ عليها من توسُّع عمراني واقتصادي وتجاري وثقافي وبشري، كما حفلت تلك النصوص بأخبار تاريخية، ومعلومات جغرافية، وأشعار، وأسماء أعلام، وأوصاف لأحوال المعاش في حلب، وأحوال السياسة فيها، خلال ما يقرب من ألف عام.

وعلى سبيل المثال، فإن أبواب حلب كانت عند ناصر خسرو (٤٥٣/١٠٦١).
 أربعة أبواب هي ١- باب الله ٢- باب اليهود ٣- باب الجنان ٤- باب انطاكية. ثم ذكر
 ياقوت، بعد نحو ٢٠٠ عام، أنَّ لحلب في زمانه سبعة أبواب هي: ١- باب الأربعين
 ٢- وباب اليهود وقد سمي أيضا بباب النصر ٣- باب الجنان ٤- باب أنطاكية ٥- باب
 قنسرين ٦- باب العراق ٧- باب السرّ.

وإذا كانت أبوابها قد كثرت، واختلف فيها، فإن قلعتها الخالدة كانت، بلا
 اختلاف، تمثل محوراً لكثيرين ممن تحدثوا عن آثار حلب ومعالم عمرانها. وقد قيل إن
 (سلوقس) هو الذي عمرها، وقيل: بل الآشوريون، وقيل بل: العماليق... ولكن من المؤكد
 أن فيها معبداً حثياً تعود بقاياها الى القرن التاسع ق.م، إضافة الى نواويس رومانية وبيزنطية من
 أيام (جوستنيان). كما أن في القلعة اليوم ملامح عمارة عربية كان لسيف الدولة الحمداني،
 ولسلطين آخر بعده، دور هام فيها. ومن المعروف ان السلطان (قايتباي) جدد في بنائها.
 ورغم الزلزال الذي ألمَّ بها في السنة ١٨٢٢، فإن ابراهيم باشا رممها في ثلاثينيات
 القرن الماضي، كما أجريت عليها ترميمات وتصليحات في زمن الحكم الوطني، وبعد جلاء
 الفرنسيين عن سورية.

ومن آثار حلب ومعالمها أسواقها المشهورة. ومن تلك الأسواق (سوق الزجاج) هذا
 الذي قال فيه (القزويني) (٦٨٢هـ/١٢٨٣): « ومن عجائبها سوق الزجاج، فإن الإنسان
 اذا اجتاز بها، لا يريد ان يفارقها لكثرة ما يرى فيها من الطرائف العجيبة والآلات اللطيفة »
 (ص ١١٠ من الكتاب).

وكذلك تعرفنا من خلال النصوص المختارة مجموعة كبيرة من أعلام حلب في
 القديم، ممن كان لهم إسهام ثقافي وفكري وتألفي، ومن هؤلاء شعراء وفقهاء ومؤرخون،
 ورجال كبار. فمن شعراء حلب القدامى مثلاً: أبو الفتح بن أبي حصينة، وأبو محمد بن
 سنان، وأبو العباس المعروف بأبي مشكور، وابن خالويه، والصنوبري، والخالديان، وشاعر
 العربية الأكبر أبو الطيب المتني، وأبو فراس الحمداني، والبحثري... الخ

ومن الفقهاء : أبو داود، وأحمد بن حنبل، وسعد الدين بن الشيخ، ومحيي الدين بن عربي، والسهروردي... الخ. ومن مؤرخيها: العظيمي، وابن العديم، والقفطي، وياقوت الحموي، وابن شداد.. الخ. ومن رجالاتها الكبار: سيف الدولة الحمداني، والغازي بن صلاح الدين الأيوبي، والوزير القفطي أيضاً صاحب كتاب (طبقات الأطباء) وكتاب (المحمدون من الشعراء)... الخ.

أما في العصر الحديث فيمكن للمرء ان يذكر أعلاماً حلييين كثيرين، مثل راغب الطباخ صاحب كتاب (إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء)، وقسطاكي الحمصي، وخير الدين الأسدي، وعبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة الضاد، وعمر أبو ريشة شاعر سورية الكبير، وعبد الرحمن حميدة أستاذ الجغرافية الجامعي، وعبد الله حجار صاحب كتاب (معالم حلب الأثرية)، وعمر الدقاق، وسامي كيالي، وهو مؤلف كتاب (الحركة الأدبية في حلب) الصادر في الخمسينيات من هذا القرن. ومن قصاصيها : فاضل السباعي ووليد إخلاصي وجورج سالم ونهاد سيريس. ومن مناضليها الكبار في هذه الآونة : المطران ايلاريون كبوشي-مطران القلس الذي أودع سجون اسرائيل لسنوات عدة، ثم أفرج عنه... الخ.

وإذا عدنا الى الكتاب الذي نراجعه (حلب في كتب البلدانين العرب) فإننا نرى فيه، على قيمته، نواقص وثرغرات وملاحظات نسوقها على النحو التالي:

١- إنَّ العنوان لا ينطبق على المحتوى، فالعنوان (حلب في كتب البلدانين العرب) ولكن المحتوى ضم كتباً غير عربية، ألفها مستشرقون أو أعاجم. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإنَّ الكتب التي استُقيت منها النصوص ليست كلها بلدانية، ففيها ما هو تاريخي، مثل (بغية الطلب)، وما هو لغوي صرف، مثل (لسان العرب)، و(تاج العروس). والذي يبدو لي ان السحجة المعقودة ما بين (حلب... وعرب) كانت وراء هذا الاختيار، فوقعتم التضحية بالدقة لصالح العنوان المسجوع.

٢- والتضحية بالدقة والصحة لم تقتصر على العنوان فحسب، بل تجاوزته الى بعض النصوص المقبوسة في الكتاب، وخاصة في مجال الشعر، وسنضرب أمثلة على ذلك ولا نستقصي كل شيء:

أ-نقل المؤلفان عن كتاب "مختصر كتاب البلدان" للهمداني المعروف بابن الفقيه،
والمطبوع بليدن سنة ١٤٠٢ (ص٤٢ من كتابنا) هذين البيتين لعمر بن كلثوم:

وعند الله يأتيه دُعاهَا إلى أرض يعيشُ بها الفقيرُ
لأرضِ الشامِ وهيَ حمىَ وحبُّ وزيتونٌ وكمْ نشأ العَصيرُ

وفي البيتين، حسب هذه الرواية، غموض وتحريف كثير. ولو كلف المصنفان
نفسيهما العودة الى ديوان عمرو بن كلثوم (ط أميل بديع يعقوب ٤٣ - ٤٤) لوجدا الرواية
كما يلي:

وعند الله ثابته دُعاهم إلى أرضٍ يعيشُ بها العَصيرُ
إلى أرضِ الشامِ حمىَ وحبُّ وثم... فشا العَصيرُ

فكلمة "ثانية" حُرِّفَتْ إلى "يأتيه" وكذلك حُرِّفَتْ كلمة "حب" إلى "خب". والحب
أكثر ملاءمة لكلمة (وزيتون) الواردة في الرواية السابقة. وربما كان التلفيق بين رواية الديوان
والرواية الواردة في الكتاب الذي نراجعه تصحح البيت وتقييم وزنه .
ب - وكذلك يلاحظ المرء التحريف وغموض المعنى في بعض أبيات ابن أبي عَينَةَ
التي قالها في حلب، ولا أدل على ذلك من هذا البيت مثلاً:

وسرِبِ من العزْلانِ يرتعْنَ حَوْلَهُ كما أنسلَّ متطوِّمٌ من الدَّرِ من سلكِ

وكلمة (متطوِّم). محرفة عن (منظوم)، بلا ريب.

ج-وفي البيت التالي أيضاً خلل وتحريف فقد روي كمايلي:

فها طيبُ ذاك القصرِ قصرًا ونزهةً بالفيحِ رحبٍ غيرِ وَغَرٍ ولاضنكِ

وكلمة (طيب) هنا، محرفة عن (طيب) دون شك..

٣- لم يتبّه المصنّفان الى وجود عبارات مقحمة أخلّت بسياق النصّ المقبوس، ولم ينبّها عليها. فذكرا في (ص ٥٤) من كتابهما نقلاً عن كتاب «صورة الأرض» لابن حوقل (المتوفى سنة ٣٦٧هـ) (ولتنبّه الى تاريخ سنة ٣٦٧هـ) هذا النصّ عن حلب: «وكان لها أسواق حسنة وحمامات وفنادق كثيرة ومحال وعراض فسيحة ومشائخ وأهل جلة، وهي الآن في زماننا، وهو نيف وسبعين [كذا] [وثلاثمائة للهجرة... الخ ». فكيف يكتب ابن حوقل المتوفى سنة ٣٦٧ عن زمن غير زمانه، هو السنة ٣٧٣ هـ ؟ إذن هذه عبارة مقحمة على نصّ ابن حوقل، أقحمها النساخ على الأرجح، أو أن كلمة سبعين قرئت خطأ، وهي في الأصل (ستين). وهذا احتمال آخر.. ومن ههنا كان لابد من معالجة هذه المسألة في حاشية من حواشي الكتاب، ولكن هذا لم يقع لسوء الحظ.

ومن المؤسف أنه ورد ما يشبه هذا الأمر في (ص ٥٣). فجاءت عبارة مناقضة للسياق، وناقصة، وغامضة، ولا معنى لها. تقول تلك العبارة:

"جند قنسرين: مدينتها حلب، وكانت عامرة غاصة بأهلها، كثيرة الخيرات على مدرج طريق العراق الى الثغور وسائر الشامات، وافتتحها الروم، -وكان الروم قد افتتحوها في تاريخ ثلاثمائة ونيّف وسبعين- مع سور عليها حصين من حجارة لم يغن عنهم من العدو شيئاً بسوء تدبير سيف الدولة، وما كان به من العلة، فأحرب جامعها وسبى ذراري أهلها وأحرقها". ولاشك أن في هذا النصّ سقطاً يكشفه ما بعد العبارة المقحمة والمغلوطه أصلاً، كما سنرى فالعنى لم يقم اذا تجاوزنا العبارة التي تشير الى تاريخ فتح حلب، والخلل واضح فاضح..!

أما أن يكون الروم افتتحوها -حسب العبارة المُعترضة في النصّ - سنة ثلاثمائة ونيّف وسبعين فهذا غير صحيح، وقد مر بنا من قبل أن (نقفور) احتل حلب سنة (٣٥١هـ/٩٦٢)، وفر منها (سيف الدولة) ثم عاد إليها. فتأريخ فتح الروم لحلب إذاً غير صحيح، ولم يُنبّه عليه المصنّفان.

٤- إن بعض المصادر التي عاد إليها المصنّفان لم تقدم للباحث شيئاً يذكر، ويسدو أن الرغبة في التكثر كانت وراء العودة إليها. فمثلاً عاد الباحثان إلى كتاب (لسان العرب) لابن

منظور المصري، فنقلنا منه هذا النص: "حلب مدينة بالشام. وفي التهذيب: حلب اسم بلد من الثغور الشامية" وهذا نص يبدو غير ذي قيمة، إذا قورن بنص آخر لياقوت الحموي، ساقه المؤلفان وبلغ (١٤) صفحة. فمبدأ التناسب لم يكن وارداً في ذهن المصنفين إذن.

٥ - وبالمقابل غفل المصنفان عن كتب هامة أرّخت للحلب، ولم يستفيدا منها. ومن تلك الكتب مثلاً كتاب (تاريخ حلب) للعظيمي (نحو ٥٥٦ / ١١٦٠)، وهو كتاب صدر بدمشق عام ١٩٨٤ بتحقيق إبراهيم زعرور، وأصله رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب بجامعة دمشق.

٦ - لم يكلف المصنفان نفسيهما، أحياناً، شرح بعض المصطلحات القديمة. وكان في وسعهما أن يفعلا ذلك بشيء من الجهد، فمصطلح "السكة" وهو مقياس مسافة، كان يمكن استنتاج حقيقته ومقداره، إذا قارنا بين بعض أقوال المؤرخين الواردة في الكتاب وبعضها الآخر، فقد ذكر ابن خردادبة (٢٨٠/٨٩٣). أن بين حلب ومنبج تسع سكك، ثم ذكر قدامة بن جعفر في كتابه (الخراج) أن المسافة ذاتها تفصل ما بين دمشق وبلبك، فلو عرفنا على نحو تقريبي مقدار هذه المسافة بالكيلو مترات، وقسمناها على تسعة، لعرفنا ماذا يعني مصطلح "السكة"، ولاستطعنا أن نعرف الطرق التي كان يسلكها الناس بين المدن، حسب أقوال القدماء فيها.

٧ - لم ينبّه المؤلفان على وهم جاء فيما نقله (شيخو) عن كتاب اطلع عليه عند (فردريك بومه) في رحلته إلى حلب. فالكتاب نُسب، غلطاً، إلى القزويني. والصواب أنه للمقريري. أما عنوانه فهو (المواعظ والاعتبار). وهو المعروف بـ (الخطط المقريرية). وكذلك وقع خطأ في اسم من روى عنه المقريري المعلومة المتصلة بمكتبات القاهرة، فهو المسيحي وليس المسيحي - (انظر المواعظ والاعتبار للمقريري ط بولاق ٤٠٨/١ - ٤٠٩)، وسنسوق نص المسيحي الذي نقله شيخو بعد قليل.

والحقيقة أن شيخو قد لاحظ شيئاً بين هذا الكتاب الفاقد العنوان وكتاب الخطط المقريرية فقال عنه: إنه على مثال الخطط المقريرية. وكان على الصواب في ذلك (ص ٢٢٠).

٨ - وبخصوص الإخراج الطباعي، فعدا عن الأخطاء المطبعية الكثيرة في الكتاب، وقع غلط في تحديد حواشي الكتاب، فما جاء في (ص٢٦) من الكتاب كله حاشية، ولكن لم يفصل بينه وبين ما يمكن أن يكون متناً بخط، كما هي الحال في الصفحات الأخيرة. ولكن رغم كل ما تقدم، فإن الكتاب الذي نراجعه ضمّ بين دفتيه نصوصاً نادرة، من كتب طبعت قديماً، وليس من الميسور الحصول عليها. كما شفع مُعدّاً الكتاب بعض مقبوساتهما بجرائط قديمة نادرة للمنطقة العربية، مثل خريطة العراق والجزيرة العربية للدريسي، الواردة في (ص٧٧)، وخريطة العالم كله، التي رسمها القزويني، وقد وردت في (ص١١٣).

وتستوقف الباحث في هذا الكتاب معلومات قيمة ذكرها الرحالون الذين مروا بحلب الشهباء عبر القرون. ومن تلك المعلومات القيمة ما ذكره الأب (لويس شيخو) في رحلتين له إلى حلب، الأولى قام بها في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، والثانية نفذها بعد مضي عشر سنوات من الأولى. وقد نشرهما في (مجلة المشرق) وهما فيها على التوالي: السنة الثامنة لعام ١٩٠٥، والسنة ١٩ لعام ١٩١٦.

والملاحظ من مطالعة ما كتبه (شيخو) أن سكان حلب قد زادوا نحو مئة ألف في غضون عشر سنوات، فكانوا نحو (١٥٠) ألفاً ثم صاروا (٢٥٠) ألفاً في عام ١٩١٦. وكان من أبرز ما ذكره (شيخو) في رحلته الثانية إلى حلب إشارته إلى حاجة المدينة آنئذٍ إلى الماء والكهرباء.. ولكنه أشاد بصناعة النسيج فيها آنذاك فقال: إن عدد الأنوال فيها لا يقل عن عشرين ألف نول! وكذلك أشار في رحلته الأولى إلى قوم يتعاطون العلم فيها، فذكر منهم الشيخ كامل الغزي، وهو صاحب كتاب (نهر الذهب في تاريخ حلب) وكان يصنّفه آنئذٍ. وذكر أيضاً أنه لقي من أدبائها جرجس الخياط، وقسطاكي الحمصي، وميشال الصقال... الخ.

ولكن (شيخو) المغمم بالكتب والمنهوم بالعلم حدثنا عن حلب - مدينة الكتب التي تكثر فيها المخطوطات، فذكر أنه اطلع في المدرسة الأحمديّة، بمعونة جناب السيد أحمد أفندي الجليلي، على المخطوطات التالية: تهذيب اللغة، للأزهري (٣٧٠هـ)، وكتاب ما يعول عليه

من الأمثال، لمحمد أمين المحيي، وكتاب الذيل على مرآة الزمان في معرفة الخلفاء والأعيان لأبي الفرج بن الجوزي، ألفه قطب الدين موسى بن محمد البعلبكي، وعلى كتاب طبقات الملوك للثعالبي. وقال: في فهرست هذه المدرسة كتابٌ للفارابي يدعى الرسالة الفتحية، وكأنه فقد إذ لم يمكن اكتشافه (ص ٢٢٠). ونعرف مما نقله شيخو عن الكتاب المعز، غلطاً، للفزوي، وهو للمقريزي، أنّ نسخة من كتاب العين، للفراهيدي، قد بقيت إلى زمن الفاطميين. وكذلك نسخة من كتاب الطبري (تاريخ الأمم والملوك) بخط يده، تُدوّلت حتى زمن متأخر أيضاً (ص ٢٢١).

ويذكر (شيخو) أيضاً أنه رأى من المخطوطات كتاب (الدر المنتخب في تاريخ حلب) لعلاء الدين بن الخطيب، عند كامل أفندي الغزي، وكتاب شرح مقامات الحريري للمطرزي في مكتبة الموازنة. ورأى عند الخوري (جرجس شلحت) نسخة من كتاب (جنوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس) لابن الخطيب وكتاب (المذكر والمؤث) للفراء تاريخ سنة (١١٨٩/٥٨٥)، ونسخة من (كتاب الأضداد) لابن الأنباري (وقد طبع بليدن) عند الأديب قسطنطين الحمصي، وكتاب التيفاشي في (المعادن والجواهر)، عند الشيخ أحمد أفندي الزرقاء، وعند الأخير أيضاً عاينَ كتاب (الوشي المرقوم في حل المنظوم)، المنسوب إلى البديع الهمداني، والمشهور أنه لابن كثير، وكتاب (عجائب المخلوقات) للفزوي، (كتب سنة ١٥٨٠/٩٨٨)، وفي المكتبة المارونية كتاب (دمية القصر في تراجم أدباء العصر) للباخرزي. وكتاب (البرهان في علم الميزان) للجلدكي، وكتاب (أدب القضاة) للشعراني، وكتاب (مفتاح الرحمة وكنز النعمة في الكيمياء)، وكتاب السكافي في الطب، لأبي نصر عدنان بن منصور بن العين زربي، وكتاب (التشويق الطبي) لصاعد بن حسن.

ولم يبعد (شيخو) عن الحق حين نعت حلب بأنها (مدينة الكتب)، فمما يعزز منزلتها هذه، ويؤكد قولته، أن حلب كانت المهدي الأول للطباعة العربية، وهي أول مدينة عربية عرفت الطباعة، إذ أنشئت فيها أول مطبعة عربية سنة ١٦٩٨، وقيل بل سنة ١٧٠٢، وهي مطبعة البطريك (دباس). وكان أول كتاب طبع في تلك المطبعة هو كتاب (القنداق)،

أي خدمة القداس الشريف، ثم تلاه كتاب السواعي، وهو باليونانية والعربية. وكان البطريك (دياس) قد استقدم آلات مطبعته من (بخارست) في (رومانيا). وأخيراً، فمهما يكن الشأن، ومهما شاب هذا الكتاب (حلب في كتب البلديين العرب) من هنات، وما مزجه من ثغرات، يبقى كتاباً مفيداً لمن يريد تناول الأشياء على عجل، ولمن يشاء أن يعرف بعض المختصرات، وبعض النصوص عن حلب، مما كتبه مصنفون خلال أكثر من ألف عام. ولكن تلك النصوص، كما هي شروطها، بقيت مواد خاماً، لم تدخل في بناء تأليني وتصنيفي علمي محكم متكامل.

المحتويات

المقدمة

الكتاب الأول: (جوانب من المكتبة العربية التراثية)

١ - التأليف النوعي والموسوعي في التراث العربي

٢ - الكتب المفقودة أو المنشورة ناقصة في التراث

٣ - المتابعة والتتبع في كتب التراث

٤ - التصنيف بالشعر في التراث العربي

الكتاب الثاني: (ضروب من كتب التراث)

١ - أمثال العرب، للمفضل الضبي

٢ - فحولة الشعراء، للأصمعي

٣ - طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي

٤ - المعمرن والوصايا، لأبي حاتم السجستاني

٥ - الفاضل، للمبرد

٦ - الورقة، لمحمد بن داود بن الجراح

٧ - شجر الدرّ، لأبي الطيب اللغوي

٨ - معجم الشعراء، للمرزباني

٩ - الفصول الأدبية، للصاحب بن عباد

١٠ - الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي

١١ - الخدائق الغناء في أخبار النساء، للمعافري المالقي

١٢ - معجم الأدباء، لياقوت الحموي

١٣ - النجوم الزواهر في معرفة الأواخر، لابن اللبودي



الكتاب الثالث (دراسات وكتب متصلة بالتراث)

- ١ - أقدم المخطوطات العربية في العالم، لكوركيس عواد
- ٢ - تاريخ التراث العربي (المجلد الثاني)، لفؤاد سزكين
- ٣ - قصائد جاهلية نادرة، ليحيى الجبوري
- ٤ - أشعار العامرين الجاهليين، لعبد الكريم يعقوب
- ٥ - شاعرية المتنبي في القرن الرابع للهجرة، لمحي الدين صبحي
- ٦ - فن الشعر لأرسطو وأثره في البلاغة والنقد العربيين ، دراسة لشكري عياد
- ٧ - ملامح يونانية في الأدب العربي، لإحسان عباس
- ٨ - أعلام الفكر في دمشق بين القرنين الأول والثاني عشر للهجرة، لإحسان خلوصي
- ٩ - حلب في كتب البلدانيين العرب، إعداد شوقي شعث وفالح بكور

المحتويات

صدر للمؤلف

أ - في التأليف :

١. إضاءات في النقد الأدبي ، دمشق ١٩٨٠ ، وطبعة ثانية دمشق ١٩٨٥ .
٢. خمسة إشكالات نقدية ، دمشق ١٩٨٩ .
٣. بشر بن أبي حازم الأسدي ، بيروت ١٩٩١ .
٤. الشعراء الجاهليون الأوائل ، بيروت ١٩٩٤ .
٥. دراسات في المكتبة العربية التراثية ، دمشق ١٩٩٧ .

ب - في التحقيق :

١. الأوائل ، لأبي بكر تقي الدين بن زيد الجراعي الحنبلي ، بيروت ١٩٨٨ .

جدول الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	الصفحة والسطر	الصواب	الخطأ	الصفحة والسطر
كان	كمان	١٨ : ١٢٦	السوفيتية	السوفيتية	ص ١٤ : س ٢
يُرَوَّى	يروى	٥ : ١٢٨	اليعلاوي	اليعلاوي	ص ١٩ : س ٢٣
والْحُسْنُ	والحسن	١٥ : ١٢٩	وأضاف إنَّ	وأضاف ان	ص ٣١ : س ١٩
وإنَّ	وان	٦ : ١٣٢	أُنشد	انشد	ص ٣٣ : س ٢
الجُمُحِي	الجمعي	٢٠ : ١٣٩	تُدَوِّرَتْ	تدولت	ص ٤٠ : س ١
ويَلِيقُ بِشَيْمِك	ويليق بشيمك	٧ : ١٤٦	بن المعدَّل	ابن المعدَّل	ص ٤٨ : س ١
(١٤١٤هـ)	(١٣١٤هـ)	١٣ : ١٤٩	سزكين	سزكيس	ص ٤٨ : س ٧
(٣٩/٢٢٠٠)	(٣٩-٢٢٠٠)	٩ : ١٥١	امرئ القيس	امرئ القيس	ص ٤٩ : س ٨
ابن سعيد	بن سعيد	١١ : ١٥٩	بِحَفَّةٍ	بحفة	ص ٤٩ : س ١٠
بن محمد	ابن محمد	٣ : ١٧٣	أُن	إن	ص ٥٥ : س ٤
الاهتمام	الإهتمام	٩ : ١٧٦	مؤرِّج	مورِّخ	ص ٥٦ : س ٤
في أربع	إلى أربع	٤ : ١٧٩	ابن جعفر	بن جعفر	ص ٦٠ : س ٧
القبسي	القبسي	١ : ١٨٦	بيلوغرافيا	بيلوغرافيا	ص ٦٥ : س ٢
الجُمُحِي	الجمعي	٨ : ١٨٦	والنفاظر	والنواظر	ص ٦٩ : س ٢١
ابن ثابت	بن ثابت	١٠ : ١٨٦	كتاب	كتابه	ص ٧٢ : س ١
وطيئ	وطيء	١ : ١٩١	كثيرة.. بل كثيرة	كثير.. بل كثير	ص ٧٣ : س ٤
صفحا	صفا	٢٤ : ١٩١	تُحَسِّن	تُحَسِّن	ص ٧٤ : س ١٧
القرطاجي	القرطاجي	١٧ : ٢١٨	وعندما	وعندا	ص ٧٦ : س ١٢
القرطاجي	القرطاجي	٤ : ٢٢٢	النفاخ	النفاح	ص ٧٧ : س ١٦
محي الدين بن عربي	محي الدين عربي	٧ : ٢٢٩	مج ١٩/١٤	مج ٢-١٤	ص ٩٩ : س ٢
تُدَوِّرَتْ	تدولت	٦ : ٢٤٣	شرية	شريه	ص ١٠٧ : س ١٢
			ابن مرداس	بن مرداس	ص ١١٣ : س ٢



المؤلف في سطور

- الدكتور عماد الفريجات مولود في قرية حبيب بمحافظة درعا عام ١٩٤٩ .
- حائز شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها .
- يدرس الأدب الجاهلي بجامعة دمشق .
- ناقد أدبي وباحث في التراث العربي .
- عضو اتحاد الكتاب العرب منذ عام ١٩٨١ .
- حرر أكثر من مئتي مقال صحفياً وعمل خفياً .
- شارك في أكثر من مؤتمر نقدي خارج القطر العربي السوري .
- بلغت مؤلفاته حتى الآن ستة كتب مطبوعة .